اندريه مالرو

تمهيد

جيد : لا يوجد اغبياء او بلهاء فى كتبك .
مالرو : اننى لا اكتب لكى الهى القلق فى النفس ، اما عن البلهاء فهناك الكثيرون جدا منهم فى الحياة الواقعية .
(عام ١٩٢٨)

حين التقى اندريه مالرو لاول مرة بالجنرال ديجول عام ١٩٤٢ بادره ديجول بقوله : « الماضي اولا » . وكان ذلك فى راى مالرو مدخلا غريبا لمثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه اجاب مع ذلك : ـ

« الامر بسيط .. لقد خضت معركة ،ولنقل انها من اجل العدالة الاجتماعية ، او اذا اردنا مزيدا من الدقة من اجل ان نعطى الناس فرصتهم ... كنت رئيسا مع رومان رولان للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لاحمل الى هتلر ـ الذى لم يستقبلنا ـ الاحتجاج على قضية ديمتروف والذين اتهموا كذبا بحرق الرايخستاج . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت لاقاتل هناك .. ليس فى الفرق والالوية الدولية التي لم تكن قد تكونت بعد ... اذ كان الحزب الشيوعي لايزال يفكر فى الامر ... ثم كانت الحرب الحقيقية (الحرب العالمية الثانية) واخيرا جاءت الهزيمة ... ومثل الكثيرين غيرى اخترت فرنسا ... عندما عدت الى باريس سألنى البير كامى : هل سنضطر يوما الى ان نختار بين روسيا وامريكا ؟ ... لم يكن الاختيار في نظرى بين روسيا وامريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها لوجه امام روسيا القادرة القوية . لم اعد اؤمن بحرف مما كنت اؤمن به حينما كانت فرنسا القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتي الضعف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية ... لقد قال ستالين امامي « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الاوروبية ، اما الآن فالثورة الاوروبية تنتظر الجيش الاحمر » . لست أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الاحمر ، ولا أؤمن بالعودة الى عام ١٩٢٨ » .

« وفي مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسي الاول الذي ساد السنوات العشرين الاخيرة هو في نظري ، اولية الامة ، وهو شيء يختلف تماما عن الوطنية . فهو لاينبني على التفوق ولكن على الخواص المميزة » (اندريه مالرو ـ لا مذكرات ـ الجزء الاول ـ الترجمة العربية مع بعض التصرف) .

هذه الفقرة الطويلة المعبرة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحي الهامة في حياته وتفكيره ومواقفه ونظرته الى الحياة والانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيته الفذة التي تجمع بين حب المغامرة بحيث ملأت حياته ورواياته ، وحب فرنسا الذي املى عليه ان ينخرط في سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وان يقف موقف العداء من الشيوعية بعد ان كان شاكا معها ، وان يقارن في مواقف كثيرة بين (الوجود الفرنسي) و (الوجود السوفيتي) الذي يحاول ان يطمسه في المستعمرات ودول العالم الثالث ولكن دون جدوى ، بل ان حبه لفرنسا كان يملي عليه ان يقارن دائما بين مبادىء الثورة الفرنسية والثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية . سبق ان التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلك بهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطمسه . ان الآلة تصطنع للبلاد الحديثة الشيوعية مهرة اكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة المعلنة من اجل العدالة ، من سان جوست الى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوجو ، هذه الدعوة تحتفظ بتأثير يصارع الماركسية على اقل تقدير . وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا كانت لغتها لا تزال فرنسية . لقد رأيت في برشلونة ايام الحرب الاهلية اكواما من كتاب (البؤساء) بين (باكونين) وكتابات تولستوى النظرية (لا مذكرات) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدى حب مالرو للحرية وايمانه بالانسانية الذي يجب ان يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومن اجل الانسان والحرية تطوع مالرو في عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذا كله بغير شك ابعادا جديدة في نظرته الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .

• • •

والشيء الذي يلفت النظر حقا هو انه على الرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذي لعبه في الادب والفن والسياسة بحيث اصبح يعتبر واحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا في سير الثقافة المعاصرة ، فان هناك كثيرا من نواحي حياته ـ وبخاصة حياته المبكرة ـ لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كان يحب ان يحيط نفسه بالغموض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعض الاحداث التي تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون انهم على بعض الصلة الوثيقة به لا يعرفون في الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسية عن مولده عام ١٩٠١ في احدى العائلات البرجوازية

فى باريس ، وعن ميله فى ايام الصبا والشباب الى الترف وحب الظهور والتباهى فى اول الامر الى ان اصطدم بوقائع الحياة القاسية المريرة فى الهند الصينية حين ذهب الى كمبوديا للتنقيب من الآثار والبحث من كنوزها فوجد نفسه غارقا الى اذنيه فى مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التى تعرض لها فى السنوات الاخيرة من حياته وبالذات منذ اوائل الستينات ، حين قتل ولداه الصغيران فى حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٩ قبل ان يتحقق ما تعاهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالاضافة الى ادمانه الخمر والمخدرات على الاقل فى فترات محددة من حياته ، الى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه امور يمكن ان تضاف الى رصيده الهائل من التجارب فى الحياة التى انعكست فى كتاباته ، بحيث نجد احد النقاد يقول ان اهم واروع اعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتى تبدو متناقضة لاول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردها الى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك من طريق دراسة انتاج مالرو وتصنيف اعماله الى (اتجاهات) رئيسية ، والزعم بان كل اتجاه من هذه الاتجاهات يميز مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على انه كان مغامرا اول الامر ، وحين سئم المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب روائيا ومفكرا اديبا ، وحين فكر فى التقاعد عن ممارسة هذا اللون من النشاط تحول الى (عالم الفن) فأصبح ناقدا فنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من السذاجة الناجمة من المبالغة فى التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره ولم يغادره قط على ما يقول ارمان هوج Armand Hoog . فلقد احب مالرو وهو فى تلك السن الفن الشرقى ، وحضر محاضرات عنه فى مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه فى متحف جيميه Musee Guimte ومع انه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبى والسياسى والثقافى فان هوج يحب ان يجعل مهنته الحقيقية ــ او على الاقل المهنة التى تمسك بها طيلة حياته ــ هى نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تعكس نظرات عميقة فى الفن .

ولقد رأس مالرو بعثة اثرية الى الهند الصينية وهو فى الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحرر من الاستعمار الفرنسى دفع الحكومة الى تلفيق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا ان انبرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال اندريه جيد واندريه موروا واندريه بريتون ولوى اراجون مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهرته حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذى اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول فى ذلك فى كتابه (لا مذكرات) : « لقد التقيت فى مصر بالآراء التى ظلت لعدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى فى الفن .. ولقد اولها من ابى الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال .. ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التى اخلت تستحيل الى مواقع اثرية » وظل ارتباطه قويا بمصر وآثارها الى ان اسهم فى الحملة لانقاذ معابد النوبة « مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التى القيتها من اجل انقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورا فوتوغرافية كثيرة للاعمال الجارية .. انا اذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون انهار الجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تتغير منذ الوقت الذى اخذ فيه فلوبير الشاب مرض الزهرى من فتاة تدعى كوتشيك هانم، كان متيمرا باسمها، قدر انبهاره باسم ملكة سبأ ، ومعناه على ما اظن : السيدة الصغيرة .. وجلبته مملكة سبأ فقام برحلة مليئة بالاخطار اليها ـ « كيف ادخلت فراسى منذ ثلاثين سنة ان اعثر على عاصمة مملكة سبأ ، كان المغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدناها .. فيم كانت ولا تزال شاعرية سبأ ؟ الملكة بلقيس ؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة، وقد جاءتنا من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. (الخ) .. مملكتها تنتمى الى الحضارات الضائعة » .. وحين تولى وزارة الثقافة فى فرنسا حقق انجازات هائلة فى الفن ونشر الثقافة الفنية وانقاذ كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنية والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس ، واشرف على ترميم قصر فرساى الشهير ، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة فى اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن ـ كما يقول فى كتابه الضخم « **أصوات الصمت** » بان الفن هو بمثابة الدين ، وان كل فن انما هو ثورة ضد قدر الانسان ومصيره ونوع من الثأر من العالم المادى ، وان الفن الاوروبى ليس بعد كل شىء سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « اننا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه عبارة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو ، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره ـ او الوضع الانسانى على العموم ـ كما تظهر فى كتابات مالرو . وتتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هى التى تجعل من مالرو فى حقيقة الامر ليس مجرد روائى او دارس للفن ، وانما تجعل منه فى الوقت ذاته مؤرخا وباحثا فى الحضارات والثقافات وبخاصة الحضارات القديمة، والى حد ما الثقافات البدائية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصبغة انثربولوجية واضحة ، وتجعل منها مصدرا للمعلومات الاثنوجرافية الموضوعة فى قالب قصصى جذاب . ورغم اعجابه بانجازات الحضارة الحديثة فانه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل، تماما مثلما يعتبر الفن الاوروبى مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابى عرف الشرق شبيها بعربى عجوز يسير على حماره بينما يغط العالم الاسلامى في نومه الذى لا يقهر ، فقد اصبح المئتا الف من سكان القاهرة اربعة ملايين، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقار التى كان فلاحوها البابليون يصطادون بها ، وتاهت ابواب طهران المطعمة بالفسيفساء فى غمار المدنية كما تاهت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التى اطلقوا عليها اسم الفطريات (والتى تتسع وتنتشر وتتشعب فى كل مكان) ، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . (لا مذكرات) .

وبقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التى اندثرت (وان تكن خلفت وراءها معالم حية تتمثل فى آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة لحضارات مصر القديمة) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية فى المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يمزج فى كتاباته بين الماضى والحاضر .. حضارة مصر القديمة وما يمثله ابو الهول بحاضر مصر وما يمثله انقاذ معابد

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومتاهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم فى رواياته عن تجربته فى الشرق الاقصى حيث اندمج في احداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **ادموند ولسون** Edmund Wilson يقول فى عام ١٩٣٤ ان مالرو اسقط المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من اجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالذات فى رواية **« الغزاة »** Les Conquerants التى تدور حول احداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الاحداث بطريقة تدل على فهم ومعرفة وثيقة بها وبالقوى المتعارضة فى الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» انهم يسمون هذا الكتاب رواية ، ولكن الذى اراه امامى فى واقع الامر هو سجل تاريخى موضوع فى قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الاولى المعروفة باسم مرحلة كانتون » .

والمهم هنا هو ان ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، او بقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتى تكشف فى مالرو عن روح المغامر الاثنولوجى او الانثربولوجى الى جانب روح المغامر الاركيولوجى انما تعكس فى آخر الامر الرغبة العميقة الصادقة فى فهم طبيعة الانسان ووضعه فى هذا الكون .

ولقد خضع مالرو لفترة من حياته ، وبخاصة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتأثير عالم الانثروبولوجيا الشهير ليو فروبنيوس Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت فى كل انحاء العالم فى ذلك الحين ، والمعروف ان فروبنيوس الذى ولد عام ١٨٧٣ كان قد بدأ عددا من الرحلات في افريقيا ـ وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكاميرون الالمانية ـ امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجية ، ووجدت كتاباته صدى عميقا فى الاوساط العلمية واوساط المثقفين فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى . وقد ترجم كتاب فروبنيوس **عن تاريخ الحضارة الافريقية** في نهاية الحرب العالمية الى اللغة الفرنسية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن النحت الزنجى . ومن هنا دخل مالرو الى هذا العالم (البدائى) بشعوبه وثقافاته وافكاره واساطيره وطقوسه وتعاليمه الغريبة عن الثقافة الاوروبية ، والتى تكشف على اى حال عن جوانب جديدة من الطبيعة الانسانية . وقد زاد ذلك من شغف مالرو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة والكشف والمزيد من المعرفة .

ولقد شغل مالرو نفسه **ببعض الافكار التى** شغل بها فروبنيوس من قبل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنيوس قد اثارها حول : هل لفكرة الانسان اى معنى على الاطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الاجابة عليه ، وتراوحت اجاباتهم بين الذين يرون ان الانسان ليس الا نتاجا للظروف الايكولوجية والاقتصادية والثقافية اى انه محصلة لعوامل وضرورات خارجية ، والذين يرون ان الانسان هو ما يفعل او ما يصنع كما ورد على لسان احدى شخصيات مالرو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون أو يريدونه منه . فالانسان وليد ارادته ، وهى فكرة آمن بها مالرو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس واعجابه بهم

وارتباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « **اشجار الجوز في التنبرج** » وان لم تخل منها كتاباته الاخرى التي تمجد اعلاء الارادة الانسانية على كل العوامل والقوى الخارجية التي لا يمكن انكار الدور الذي تلعبه ـ رغم ذلك ـ في تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التي يبدو انها كانت تشغل بال مالرو في كل ما كتب هي ـ كما يقول هو نفسه ـ كيف يمكنه ان يساعد الانسان على ان يدرك ان في استطاعته ـ وبدون ان يستعين بالدين ـ ان يبني عظمته على ذلك العدم الذي يكاد يسحقه .. وفي « **اشجار الجوز في التنبرج** » التي ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار في ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار في ان نموت، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آبائنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان ثمة هوة واسعة عميقة .. تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . وحين اقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فانني اعني انه يحمل في داخله شعورا عميقا ـ مأساويا في بعض اللحظات ان لم يكن في كل الاحيان ـ بموقف اللامبالاة الذي يقفه العالم منه » .

والواقع ان مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته انها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة في ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية عن طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وايضا بالمبادئ الانسانية والاخلاقية الراقية العميقة عن الانسان ووحدته ـ تلك الوحدة المفروضة عليه والتي لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهفة الانسان الغريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يضحي بحياته في سبيل تلك المبادئ والقيم التي يعتنقها فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائي للبقاء « الحقيقي » او الحياة « الحقيقية » .

• • •

في بحثه عن ماهية الطبيعة الانسانية ومحاولته الوصول الى فهم أعمق للسلوك الانساني اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحي العظمة ومظاهر النبل والسمو والتعالي في السلوك ، باعتبارها اهم الملامح التي يجب ان تتوفر في الشخصية الانسانية التي ترتكز على الارادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان في صنع نفسه والتحكم في مصيره وقدره . فهذه الملامح هي التي تتوفر في الانسان الذي يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذي يشعر شعورا عميقا بان له في هذه الحياة رسالة يتعين عليه ان يحملها ويؤديها وينفذها ايا ما يكون ثمن ذلك .. ثم هو الانسان الذي يتمسك بشدة وقوة وايمان بوطنه ، ويعتز به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة كتلك التي كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والالمان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نبذ مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (بيرجين) وانه التقى بشارل ديجول قرب نهاية الحرب، ثم تحول بعد ذلك الى الديجولية المحافظة ، وهي حركة قوبلت بكثير من الامتعاض والنقد والهجوم من المثقفين والمفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانتهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تزوجت فرنسا » . وفي **اللامذكرات** جملة عميقة الى ابعد حدود العمق وردت على لسان بيرجيه (مالرو) مخاطبا صاحبة الفندق الفرنسية حين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وابدت نحوه قليلا من العطف بعد ان وقع في ايدى الالمان ايام المقاومة .. « اشكرك يا سيدتي ! لقد كنت رائعة .. كنت تشبهين فرنسا . » ثم هو يقول في موضع آخر : « ان ما يهمني في اى انسان هو الحال الانسانية ، ويهمني في الانسان العظيم وسائل عظمته وطبيعتها ، وفي القديس طابع قداسته ، وبعض الملامح التى تعبر عن صلة خاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردى » .

ومن الطريف ان عددا من النقاد لاحظوا ان روايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقا ، لان الشر الحقيقى العميق المتأصل يتنافى مع العظمة والسمو والنبل والتعالى ، ولا يمكن ان يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو في كتاباته ، والذين يكرسون انفسهم لصنع التاريخ وتغيير الوضع المؤلم للانسان ، والذين يتميزون بالبطولة والعطاء والتضحية ويقفون من القضايا الانسانية موقفا ايجابيا بحيث يحملون عن غيرهم اعباء الحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمأنينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثلا او نهرو . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عن الرضا بالواقع . انه الهدوء الذى ينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ، والامل في حياة اكثر اشراقا واكثر ابتساما ، والعمل من اجل ذلك .

وتتجلى هذه العظمة في كثير من الافعال والانجازات التى حققها اشخاص معينون يتميزون بالارادة الصامتة الخاصة ، ويستشهد مالرو على ذلك بما كتبه سكوت Scott مثلا وهو يموت في القطب الجنوبى « لقد فعلت ذلك لكى ادلل على ما يمكن للرجل الانجليزى ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذين ذللوا طريق خيبر الذى يعتبر مالرو احد الرموز او الملاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بانه (طريق ملحمى) ويصف الذين ذللوه بانهم لم يموتوا وانما حفروا حقا وعن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقد كان ذلك الممر ميدانا لكثير من المعارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوانب من الهملايا على الطوابير الانجليزية فيبيدونها ، ولم ينج من الابادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطابور ؟ اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطابور » .. فهذه اذن انماط من الشجاعة والبطولة والتحدى والعظمة تهز النفس ، وتعتبر في نظر مالرو المعيار الحقيقى الذى يجب ان يقاس به الانسان العظيم .

• • •

ولكن هذه العظمة تتجلى بافضل واعلى صورها في اثنين من الساسة وكبار قادة الامم في العصر الحديث ، اولهما هو نهرو ، والثانى ، وربما كان في نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو ديجول .

لقد هزه من نهرو هدوءه وسكينته وموهبته في اسكات ما يسميه مالرو « قطيع البشر » حين ظهر اليهم نهرو بشخصيته القوية المتفردة الهادئة . ولكن لعل اكثر ما اعجبه فيه هو ما يسميه ايضا « ميزة الانسان » ، لان الموهبة وحدها ليست كافية . ولقد ذكر له نهرو انه لا يزال مؤمنا بما سبق ان كتبه في الماضى . « قيل ان العمل اللاعنيف خرافة ، ولكنه كان هنا (في الهند) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسي .ولكل عمل سيء نتائج سيئة .. حتى في السياسة .. وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارع في صحته اي قانون فيزيائي او كيمائي » . ثم قال اثناء الحديث : ــ « كنت اذكر راماكريشنا وقوله (لا يمكن ان يظهر الله حيث تكون الكراهية او العار او الخوف) ، ولكنني اذكر ايضا غاندي وقوله (افضل للانسان ان يناضل من ان يخاف) » . فروح النضال كانت تكمن وراء اللاعنف ، واللاعنف لا يعني ابدا السلبية او الاستسلام .. ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة اليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من المناضلين ، وانما كان غاية .. ويذكر مالرو انه اثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصطحبه نهرو من طريق سلم حلزوني مع بعض كبار المدعوين الى مسرح صغير اقيم تحت الارض .. « وبعد ان جلسنا مال نحوي وقال (كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة الينا غاية . وكلما القى القبض على واحد منا كان غاندي يبرق الينا مهنئا . وفي تلك الايام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجون واحيانا فوق اعواد المشانق ، ولا تطلب ابدا في المجالس والمحاكم او المدارس ») ــ **لا مذكرات** .

الا ان الشخصية التي يبدو انها فاقت في نظره في عظمتها وقوتها وجبروتها اي شخصية اخرى عرفها مالرو عن قرب كانت هي شخصية **الجنرال ديجول** ... رجل الفعل ، الذي يهب نفسه للقضية التي يؤمن بها .

وكانت هيبة ديجول او عظمته تبدو بوجه خاص من تلك المسافة التي يشعر بها الناس دائما وهو بينهم حتى وهو يتلطف معهم ، وهي نوع من المسافة الفريدة التي لاتظهر بين ديجول وغيره ممن يحدثونه فحسب ، بل انها تظهر ايضا بين قوله وشخصيته ، وهي اشبه شيء بالمسافة التي يشعر بها المرء امام العقول الدينية الكبيرة التي تبدو كلمات اصحابها العادية وكان لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . الا ان هذه المسافة لاتعني عدم وجود اتصال قوي بين ديجول ومن يحدثه ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . اي ان ثمة اتصالا قويا رغم الشعور بهذه المسافة او ذلك البعد ، وهذا في راي مالرو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فديجول يفرض على الانسان الاحساس بشخصيته الشاملة ، ومع انه كان دائما سيدا مهذبا في معاملة الآخرين ــ حسب تعبير مالرو ــ فان المرء كان يشعر دائما انه في وضع الشخص الذي يتعين عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رايت جنرالا يحب الافكار ويحييها في الطريق تحية لاتكاد تحس ... كل امرىء يشعر امامه بالمسئولية لانه كان يتحمل المسئولية في مصير فرنسا ... هذا المصير الذي استولى عليه وملأ حياته وفكره وكان لزاما عليه ان يكتشفه ويؤكده » . **(لامذكرات)** .

ويقارن مالرو في **اللامذكرات** بين ديجول ونابليون ليبين مايقصد اليه فيقول : « ما ان يخلع الامبراطور دوره ، بل وفي بعض الاحيان وهو يتقمص هذا الدور ــ حتى يظهر نابليون السريع الغضب او الممثل ، زوج جوزفين ومدبر المقالب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . اما الجنرال ديجول في حياته الخاصة ليس عند معاونيه بالرجل الذي يتكلم في الشئون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذي لايتحدث في شئون الدولة... لايرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التواني عن ضبطها . وكان يتقبل عن طيب خاطر في اثناء الحفلات او في المناسبات التي يختارها

بنفسه ان يخوض فى حديث سطحى ، ولكن ذلك لايعدو ما تمليه عليه الكياسة التى لاتنفصل عن شخصه ... نابليون قد افزع جاراته ، اما الجنرال فهو فى راى جاراته متباعد وجذاب (جذاب معناها يحسن الاصغاء) لان هذا الرجل حتى وهو يحدثهن عن اطفالهن لايزال هو الجنرال ديجول ... » . بل ان مالرو يذهب الى ابعد من ذلك للتدليل على قوة شخصية ديجول كرجل افعال حين يعزو اليه انه هو وحده الذى كان قادرا على انتشال فرنسا من وهدتها ومن الاضطراب السياسي والتخبط الذى وجدت نفسها فيه ، وانه كان يريد حقيقة ـ ووحده ـ ان يقف فى وجه الدول الشيوعية بفرنسا اخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بان الناس لم يكونوا يعرفونه ، وبخاصة في المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة اكثر مما يمتلك من الشعبية » .

• • •

فى الصفحة الاخيرة من رواية « قدر الانسان » يقول جيسور موجها حديثه الى ماى : « انت تعرفين هذه العبارة (لابد من تسعة اشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله) . وقد عرفنا ـ انا وانت ـ ماتنطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر مايمكن ان تعرف ... ماى ، اسمعى : ان الامر لايحتاج الى تسعة اشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لتصنع انسانا ... خمسين عاما من التضحيات ... ومن الارادة ... ومن ... اشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لايعود فيه شيء من الطفولة او المراهقة ... وحين يصبح رجلا حقا ـ لايصلح عندئذ الا لان يموت » . (**ترجمة فؤاد كامل**) . وحين نضج مالرو واكتملت رجولته وتفكيره وكتاباته ، جاءه الموت فى نوفمبر ١٩٧٦ ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره .

وفى روايته « **الطريق الملكى** » La Voie Royale يقول مالرو على لسان احدى شخصياته « ان مايثقل على هو ـ كيف استطيع ان اقوله ؟ ـ قدرى الانساني ، وقصورى وحدودي الضيقة ، وانه لابد لى من ان تتقدم بى السن واشيخ ، وان الزمن ـ ذلك الشيء الكريه ـ لابد من ان ينتشر فى كيانى انتشار السرطان » ـ وقد انتشر السرطان بالفعل فى رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء فى مالرو وادبه وفنه وتفكيره بالذات في مواقفه السياسية اثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم اجمع بفداحة الخسارة حين مات ، وخرج مفكرو فرنسا وادباؤها وفلاسفتها جميعا لتحية البطل الذى مات ، وشاركهم فى ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا عن بعض تقاليدها العريقة لتحيته حين اطلقت اسمه على المسرح الفرنسى الذى يقع امام مسرح الكوميدى فرانسيز الشهير ، وهو اجراء لم يسبق له مثيل فى الاغلب ، حيث تقضى التقاليد ان يمر خمسة اعوام على الاقل على موت اي شخص قبل ان يطلق اسمه على اى مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا وللفكر وللثقافة مجرد « اى شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو اثناء حياتـهومنذ مات فى العام الماضي . والدراسات الاربعة التى نقدمها هنا قم بها ن لاول مرة فى تاريخ هذهالمجلة ـ اربع سيدات من المتخصصات فى الادب الفرنسي الحديث ، وهذا اسهام جدي وجديديضاف الى تلك الكتابات العميقة التى ظهرت فى مختلف انحاء العالم حول الاديب الثائر المغامرالفنان السياسي اندريه مالرو ، وهي تحية مـن المفكرين والمثقفين العرب الى احد رجال الفكروالثقافة العالميين الذى اتيح له ان يعرف عن قرب بعـض ملامح الحضارة العربية فى بعـضمراحل تاريخها القديم او الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .

* * *

ضحى عبدالعزيز شيحه

اندريه مالرو

التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية

ان الطريق السياسى الذى سلكه **اندريه**مالرو لم يكن طريقا سويا ، ولم يظل في اتجاه واحد ، فالرجل الذى كان يميل للعقيدة الشيوعية فى الثلاثينات من هذا القرن لم يلبث ان اصبح من اكبر معارضى ، بل ومحاربي الشيوعية فى وزارة الجنرال ديجول . هذا التحول الضخم لا يدل باى حال من الاحوال على ضعف او تهاون من قبل الكاتب الاديب بل ياتى فى اطار مرحلة تطور ونضج اعمق واكبر .

لقد كان من راى اندريه مالرو ان الوفاء المتحجر لا يمكن ان يعتبر دليلا من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسي **فيكتورهيجو** الذى كان قد كتب في **مؤلفه مذكرات احد ثوار ١٨٣٠** : « انه لثناء باطل ان يقال من رجل ان اعتقاده السياسى لم يتغير منذ اربعين عاما فهذا يعنى ان حياته كانت خالية من التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكرى فى الاحداث . انه كمثل الثناء على الماء لركوده،وعلى الشجرة لموتها(١) » .

لقد كان لمالرو مكان ومواقف فى كل منعطفات هذا القرن . فقد اشترك فى الاحداث التى كانت نتائجها المرجوة لاحداث تغييرات هامة في مصائر الناس : « فقد كان فى شنجهاى عندما

---

(١) فيكتور هيجو ، مذكرات احد ثوار ١٨٣٠ ـ اكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفى برلين لانقاذ شالمان وديمتروف . وكان فى ميادين مع الطيران الجمهورى ، وكذلك فى تولوز داخل احد معتقلات الجستابو حيث اطلقت القوات الفرنسية بالداخل سراحه . وكان فى الالزاس على رأس كتيبة الالزاس لورين التى كان قائداً لها فى المعارك وحرص على المحافظة على الكتائس وقتئذ ، واخيرا كان مع ديجول عندما شكل حكومته(٢) » .

يعتبر اندريه مالرو الوحيد من بين المفكرين الذى لم يكتف بالكتابة دفاعا عن قضية يؤمن بها ، بل عمل ايضا فى سبيل هذه القضية .

لقد اراد مالرو ان يقاوم ما اعتبره عبث الوجود الانسانى ، والذى يتميز به مصيره فى الحياة ، والذى يحده الموت وينهيه . وقد كان مالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذلك شغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليه طيلة حياته اذ راى الموت يختطف كل من احبهم : فقد مات ابوه منتحرا فى عام ١٩٣٠ ، وقتل شقيقاه كلود ورولاند فى عام ١٩٤٥ ، كما قتل ولداه في حادث سيارة فى عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت ان حاول مقاومته بشتى الطرق والوسائل ، ووجد أن الانسان اثناء بحثه عن وسائل مقاومة الموت يستطيع مثلا ان يلجا الى الدين والايمان لمساعدته ، نهما قد يشكلان وسيلة فعالة فى هذا المجال ، لكن مالرو يرفض هذا العون من قبل الدين فهو يريد ان ينقذ الانسان من مصيره المحتوم بواسطة وسائل بشرية .

اتخذ الكفاح فى اعمال مالرو اشكالا وصورا مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاح المقامر وكفاح الثائر ، وفى نهاية المطاف كفاح الانسان الواعى بمصيره كانسان . وفي روايته «الفزاة» اختار جارين (بطل الرواية) طريق الثورة لانه وحده الذى يستطيع ان يولد الاحساس بالكرامة الانسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملأون المدن الصينية « والذين يقضى الموت على دهشتهم من وجودهم فى الدنيا بعد ان عانوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجذام والسل او الزهرى وسط لا مبالاة لاحد لها من الاخرين (٣) » . كما تسمح الثورة بازالة الاضطهاد الذى يمحو شخصية الفرد ، وفى نفس الوقت تساعد الثورة على خلق هذه الكرامة التى لا غنى عنها للانسان .

« لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرو يعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهو ــ اى مالرو ــ وان لم يكن يخشى المخاطر التى يجلبها مثل هذا الارتباط الا انه لا يوافق كلية على طرق العمل التى تترتب عليه(٤) » .

---

(٢) BIOSDEFFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires,Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الفزاة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

بعد أن اختار طريق مالرو الثورة في فترة ما من حياته لنجده يرفضه في النهاية ، لانه لم يجد فيه الحل والعلاج الناجع لمأساة الانسان امام الموت القاهر ، ووجد ان الوسيلة المثلى الكفاح ضد هذا العدو القاهر هي أن يبصر الانسان ويرشده ويوعيه بمصيره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه في مواجهة الموت فهو – اى الانسان – بسبب وجوده وتفكيره كانسان ينفي عن نفسه حتمية مصيره « ويصبح » انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر(٥) » .

وتعتبر السياسة في نظر مالرو هى المجال الامثل لممارسة الافعال التى تمكن الانسان من التعبير عن نفسه وتأكيد وجوده . كما يعتبر ارتباطه بقضية الشيوعية في الثلاثينات لم تحوله الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه **الموت** وضد « موكب الضغوط التى تلازمه ، مثل الشر والاضطهاد والعبودية والقيود المتنوعة (٦) » وقد اثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشة الكثيرين ، كما ان الكثيرين اعتبروه تحولا جذريا ومتناقضا من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا ان نطرح سؤالا يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان **اندريه مالرو بالفعل ماركسيا** ؟ للاجابة على هذا السؤال الهام نقول أن مالرو في فترة الثلاثينات من هذا القرن كان زميلا للثوار الشيوعيين ، وشارك في معاركهم وتغنى ببسالتهم واثنى على شجاعتهم في كل من الصين والمانيا وفي اسبانيا .

ففي آسيا كما هو الحال في أوروبا كان الشيوعيون دائما اول المضطهدين واول من يشترك في المعارك(٧) « وفي ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر واع وملتزم بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما اراد ان يقاوم الديموقراطية البرجوازية او بالأحرى الفاشية » . (٨)

فمثل هذا الفكر يتبنى الشيوعية للوقوف في وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحة الموت » او الوقوف ضد الاضطهاد الراسمالي. وهكذا نجد أن جارين احد ابطال مؤلف الغزاة يقول « ومن المؤكد انى لا اشعر تجاه البرجوازية التى انتمى اليها الا بالاشمئزاز والكراهية الشديدة ... واشعر في اعماقي باحقاد قديمة ضدها وهى السبب الاول في ارتباطى بالثورة(٩) » .

وفي راى الناقد الفرنسى **روجيه ستيفان** ان مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ما كانت النظرية الماركسية لا تتجاوز مرحلة المنهج الثورى وبقدر ما كان هذا المنهج يبدو بالنسبة

---

(٥) Ibid, p. 18

(٦) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٧) GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٨) Id,. Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p. Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالرو : الغزاة ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدى للتخريب الفاشى(١٠) » ولكن أندريه مالرو لم يعتنق كلية الفكر الماركسى للثورة ونحن نعتبر ان رأى **جايتان بيكون اكثر** حسما في هذا الشأن فهو يؤكد ان « فكر مالرو لم يتوقف لحظة عند « الحقيقة الماركسية (١١)» فهو لم يستبق من العقيدة الماركسية الا اتهام التفاؤل البرجوازى والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتى سبق ان تنبأ بها رامبو (١٢) » وهكذا نجد ان الماركسية لم تكن تشكل فى نظر مالرو دينا ولا عقيدة ، وانما كانت تشكل ارادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل ايضا احدى الوسائل الاكثر فعالية لكفاح الانسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله **كيو** فى رواية « قدر الانسان » اعتقد ان الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم » ويقول ايضا فى تعريف الكرامة انها » عكس او نقيض المهانة(١٣)

« فالشيوعية اذا تعيد للانسان الاحساس بالكرامة والخصوبة (١٤) »

وقد اكتشف مالرو اثناء كفاحه ضد عبث الوجود الانسانى ان الاخاء الانسانى هو اقوى حصن يمكن ان يقام ضد عدوه القدر وهو حساس للعون النفسى الذى تجلبه المشاركة فى قضية مشتركة للانسان الذى يعانى من ماساة العزلة .

فالشيوعية اذا فى نظر مالرو لا قيمة لها الا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الانسان الاحساس بمسئوليته وذاتيته ، ولكن الاسلوب الذى تطورت به الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى فى الفترة من ١٩١٧ – ١٩٤٧ جعلت مالرو يجزم بافلاس الشيوعية على الاقل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقده الفرنسية **جانين موسوز** فتقول « لاحظ اندريه مالرو انحدارا مظلما جعل من الشيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو اذا يقاوم بشدة النظام الستالينى(١٥) »

وعلى ذلك عندما خانت الشيوعية او الشيوعيون المبادىء الاساسية والانسانية التى فتنته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالرو ان تضامنه مع الشيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية فى العنف ضد ما اعتبره « خيانة للآمال العريضة وتغييرا للطبيعة واستسلاما لارادة الاستعباد » وهكذا حين اصبحت الشيوعية سلاح قمع وعدوان واداة للطغيان ، وعندما بدت فى صورة مضادة للفردية تمنع الانسان من ان يعبر عن نفسه بحرية ، بل اكثر

---

(١٠) Stephane (R.) op. cit. p. 126

(١١) PICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Seuil, 1955, 192 p., p. 91

(١٢) Ibid., p. 92

(١٣) مالرو : قدر الانسان ص ٢٤٢ – ٢٤٣

(١٤) مالرو : مقدمة عصر الاحتقار .

(١٥) Mossuz (j.) op. cit. p. 108

من ذلك تجعله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ،حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .

• • •

وتظهر لنا بوادر الخلاف بين مالرو والشيوعية من خلال اعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما . فقد بدات هذه الروايات تشكك من قيمة القضية السياسية وعلى الاخص القضية الشيوعية وتظهرها وكانها تمثل تهديدا للحرية الشخصية للانسان . فنجد ان رواياته **الفزاة ، وقدر الانسان ، والامل** (١٩٣٧) تكون مجموعة من الاعمال تعلن كلها ان الانسان لا يستطيع ، دون ان يقلل من قيمته كانسان ، ان يحرم من حقه المقدس في الحرية .

وهذا ما يعكسه لنا حزن جارين واساه في قوله « عندما افكر انى كنت طيلة حياتى ابحث عن الحرية ... من يمكن ان يعتبر حراهنا منظمة العمل الدولية او الشعب ؟ أنا أم الاخرين(١٦) » اما في رواية « **قدر الانسان** » فنلاحظ ان اراء ابطالها حول قيمة الشيوعية مناقضة في اغلب الاحيان ، فمثلا يجد كيو في الشيوعية وسيلة للوصول الى الكرامة الانسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد ان كوبي يعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد ان كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص ، بينما لا نجد فيها ماى الا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو ايضا من خلال اعماله الروائية استبداد الراى عند الحزب الشيوعى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلمات فلوجين في رواية « **قدر الانسان** » حتى لو كنت من عمال شنغهاى فسيكون من رايي ان الطاعة للحزب هي الموقف المنطقي الوحيد . وفي روايته «**الوقت الاحتقار**» ينقد مالرو بوحشية اى سياسة استبدادية ، ولكن مساوىء الحزب الذى ينادى بتحطيم اى فكر فردى تظهر في رواية « الامل » فيقول ان كل الذين لا يبدون الاستعداد لاعتناق ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كما يقول على لسان جلوكين «بالتغيير او بالموت (١٧)»

ففى راى مالرو ان الحزب الشيوعى لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالاضافة الى ذلك فهو حزب انتهازى على الرغم من استبداده بالراى . وتعكس رواية « الفزاة » ذلك فنرى ان بورودين لا يتردد في قبول اموال البرجوازية حتى يدفع لقوانه رواتبهم . وكذلك نجد في رواية **قدر الانسان** ان فلوجين يقر صراحة بان الحزب الشيوعى يستغل « الكومنتنج » **وشانج كاى شك** ويضحى بالمناضلين الشيوعيين في شنغهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين ان الفرصة سانحة امام الحزب لاستغلال **تشن** في حالة ارتكابه محاولة اغتيال **شانج كاى شك** ويبدو اذا ان الانضمام الى الحزب الشيوعى يهدم كل مظاهر الاصالة في الانسان .

ولابد لنا ان نشير في هذا الموضع الى انه على الرغم من اطار اعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال ان يقال ان مالرو كان كاتبا ثوريا بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

---

(١٦) الفزاة ص ١٨٩ .
(١٧) الامل ص ٢١٥

ذلك ان رواد حركة النقد الماركسي لم ينخدعوا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروتسكي بعد ظهور « الغزاة » ان مظاهر التعاطف من قبل الكاتب تجاه الصين الثائر لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الذاتية والنزوة الفنية(١٨) » ويضيف تروتسكي « لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن ان يتجنب المفارقات الحتمية التي من هذا القبيل (١٩) » وكتب عنه الناقد الفرنسي كلودروا فقال « ان فهم مالرو للماركسية غير عميق وانه من السهل ومن العدل اذا استرجعنا الماضي ان نجد فهمه غير كاف لها ، والذي يريد ان يتعرف على ماركس من خلال اعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء من تطور ونمو التحليل التاريخي ، وكذلك يجهل الطريق الذي ادى بماركس للتحول من المشاهد المذكورة في اعمال مالرو الى العمل الثوري نفسه(٢٠) » اما جايتان بيكون فيرى ان « الثورة الشيوعية مرتبطة في اعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفحوى(٢١) »

وتقول جانين موسوز بعد ان بحثت عن الاسباب التي ادت بمالرو من زمالة الشيوعية الى القطيعة الكاملة مع الفكر الشيوعي ان هذه الاسباب ليست معروفة معرفة اكيدة .

ويبدو ان الاسباب التي دفعت مالرو الى ان يقاطع الشيوعية لا ترجع الى التفكير في الاراء الفلسفية ، بل ترجع الى التفكير في العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة. فهذا التفكير اوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ اصبح كل مفكر حر يعرف ان الاتحاد السوفيتي البلشفي يتحول الى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا ولزمتا وطنية ونظاما بوليسيا وتحقيقا تعسفيا وتعذيبا وقتلا (٢٢) »

لقد بدا الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين او ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة ان ينصح **اندريه جيد** بعدم نشر كتابه « **العودة من الاتحاد** السوفيتي » .

لكن سرعان ما تبدا الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتي منضما لمعسكر المانيا الفاشية واصبح الاتفاق السري بين ستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل اسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تعفية من اي التزام ، وهكذا **انقضى الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو** والشيوعيين واصبح مالرو حرا في ان يقطع علاقاته مع الشيوعية .

---

(١٨) TROSKY (Léon), La Revolution Etranglee, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 38

(١٩) Ibid, p. 39

(٢٠) ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 118.

(٢١) Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948

(٢٢) STEPHANE (R.) op. cit. p. 127

وقد قال مالرو شارحا التحول الذى طرا على النظام السوفيتي واسباب زوال تعاطفه مع الشيوعيين « ان الايدلوجية الاشتراكية فى مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا فى سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعي ان اتوجه الى برلين مع اندريه جيد لتسليم احتجاجات اوروبا كلها ضد الحكم على ديمتروف الذى كان بريئا من جريمة حرق المجلس التشريعى الالمانى فلم يكن الموضوع يخص البروليتاريا وحدها (...) ولم تكن تتاثل لتستبدل الراسمالية بهذه القوة الرابعة التى ال اليها بوليس الدولة(٢٣) »

وهكذا اصبح مالرو يرى فى الخمسينات ان الخطر الحقيقى الذى يجب التصدى له ومواجهته قبل اى خطر آخر لم يعد الفاشية **بل الستالينية ، اى الاستعمار السوفيتي ،** الذى اصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك من بين الاسباب الاخرى التى أدت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيين اثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتاب مالرو الشعور بان الكثير منهم كانوا يحاولون **الحصول من اعضاء المقاومة الاخرين على كل** المعلومات التى يريدونها دون اى مقابل (اى **دون مقابلة هذا الاجراء بالمثل** (٢٤) » **وهذا هو** نفس ما صرح به للجنرال ديجول عندما قابله فيما بعد فقال له ان الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراكية (٢٥) » .

لكن يجب علينا ان نلاحظ ان كل هذه التحفظات التى ابداها **مالرو تجاه الشيوعيين** الفرنسيين لا يمكن ان تمثل حكما اجماليا او كليا فنجد انه احيانا كان يمتدح بعض الذين قابلهم منهم اثناء المقاومة وكان يقول عنهم انهم رجال عظماء . واحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى اخوة الكفاح التداقى ، وهذا ما يبدو فيما كتبه عام ١٩٤٥ عند رجوعه الى الجبهة « اثناء عودتى الى جبهة القتال (...) كنت افكر فى زملائي الشيوعيين باسبانيا وفى اسطورة البناء السوفيتي فى الرغم من البوليس السياسى وفى الجيش الاحمر وفى المزعين الشيوعيين فى الكوريز لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم من وجود الميليشيا ... » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبح العلاقة ليست بين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة اخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعى الفرنسي لان الشيوعية لم تعد تمثل فى نظره الا نقيضا للديموقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديموقراطية عظيمة الا فى البلاد الاسكندنافية وفى البلاد الانجلو ـ سكسونية او بمعنى اصح فى البلاد التى لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وانه من الآن فصاعدا سوف يقف فى وجه اقامة اى حكم

---

(٢٣) CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

(٢٤) MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

(٢٥) مالرو اللامذكرات ص ١٢٩ .

(٢٦) مالرو : اللامذكرات ص ١١١٨ .

(٢٧) Cite, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

شيوعي في فرنسا ، وانه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجبهة الوطنية « التي تسيطر عليها اغلبية شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة في ايديهم » (٢٨) ولمنع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية في فرنسا بذل مالرو اقصى ما يستطيع كعضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم . وكانت العداوة للشيوعية في ذلك الوقت تعني اولا وقبل كل شيء العداوة للستالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان الستالينية تعني نقيض كل المعاني والقيم التي كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفي رأيه ان الستالينية قد خانت القضية الثورية « ان ثورة اكتوبر حاملة الامل العظيم قد غمرتها لأمد طويل موجة الحكم الاستبدادي » (٣٠) وتعبر « دعوة الى المفكرين التي وجهها عام ١٩٤٨ عن حزنه وخيبة امله » لم يكن متوقعا ان الغد المشرق سيصبح هذا العويل الطويل الذي يأتي من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى انين المساجين » ان الستالينية تعتبر اذا في نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانساني . ومن ثم فان الشيوعيين الذين يمثلهم في فرنسا الحزب الشيوعي الفرنسي يشكلون في نظر مالرو اخطر اعداء البلاد الذين يهدفون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعي يمثل خطرا كبيرا ، ومما يزيد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى بل انه عميل لقوة اجنبية هي الاتحاد السوفيتي. ويمكن القول ان انتقاده للنظام وللحزب الشيوعي وموجهيه ليس له اسباب ايدلوجيه فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ شيء جعل من الستالينية ظاهرة تتعدى نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو في هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتي محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من ان تصبح خطرا على فرنسا.

وبناء على ما تقدم يمكننا القول بانه في نضاله ضد الستالينية لم يفكر الا في مصلحة فرنسا وانه لذلك سوف يتبع مبادىء **جارسيا** احد ابطال روايته **الامل** الذي قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا بأساليب العمل ، فليس هناك فكر سياسي الا عند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولما كانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا في ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة الستالينية هي الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب عن ذلك في **اللامذكرات** « لن يستخدم الحزب الشيوعي المقاومة ضد الجنرال ديجول » .

عندما قابل مالرو الجنرال ديجول لاول مرة في يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول في ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول انه ان كان

---

(٢٨) مالرو : اللامذكرات ص ١١٤ .

(٢٩) مالرو : اللامذكرات ص ١١٦ .

(٣٠) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 114

(٣١) MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

(٣٢) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٣٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشاف العظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذى كان سببا فى بدء التزامه بالديجولية .

ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعية الى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت فى اكتشاف الوطن . وكانت المقاومة هى التى هيأت السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ ـ ١٩٤٥ صراعا طبقيا ولكنها كانت نضالا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت فى نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امتزج النضال فى سبيل العدل والحرية بالنضال القومى واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار فى هذا النضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اراجون وهو من الكتاب الشيوعيين يتغنى ويقول « حزبى اعاد لى الوان فرنسا حزبى حزبى شكرا لدروسك » (٢٤) ويقول مالرو « اثناء المقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » (٣٥) وقد بدت فرنسا فى نظرة فى هذه الفترة فى اجمل صورها من الاخاء والتضامن « (....) كانت فرنسا تتمثل فى تلك الفلاحة التى تراك مارا وانت محاط بدورية المانية فتتصور انها سوف تنفذ حكم الاعدام فتتقدم نحوك خطوة وتنظر اليك فتشير برمز الصليب فى منطقة لايذهبون فيها الى القداس (٣٦) . وقد ساعدت عدة عوامل على ظهور وطنيته الشديدة : اولها مشاهدته لموت زملاء النضال والجنود الذين استشهدوا على ارض الوطن وكان من المستحيل ان لايؤثر ذلك فيه تاثيرا بالغا ، وتحول حب الوطن الى وفاء لهؤلاء الرجال ووفاء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته ، وكما كان لزاما عليه حتى يلغى فكرة مواجهة الموت ان يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » (٣٧)

ومن بين الاسباب الاخرى التى ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده اثناء زيارته لالمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصور بخوف شديد ما كان يمكن ان يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كان من الممكن ان يصبح الوطن الحبيب « ذرا شاسعة للموتى » (٣٨)

وهكذا نرى ان خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فلأول مرة فى حياته يحارب مالرو على الاراضى الفرنسية وفى سبيل وطنه فرنسا « فى عالم اندريه مالرو سوف تبقى آثار هذا النضال الجديد لن تمحى ابدا ، وسوف يكون لوطنه منذ ذلك الوقت قيمة اكبر لم تكن له من قبل » (٣٩) وسوف تبدو له نتائج هذا النضال اكثر فاعلية لانه كان يحارب لصالح وطنه وليس لمصلحة الآخرين » .

---

(٢٤) ARAGON (Louis) La Diane Francaise

(٢٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٣٦) حديث ادلى به الى جابريل دوباريد . GABRIEL D'AUBAREDE

(٣٧) Mossuz (J.) op.cit., p' 35

(٣٨) Ibid, p. 36

(٣٩) Ibid, Loc. cit.

فهم مالرو فجأة في ذلك الوقت سبب فشل **ت . ا . لورانس** في بلاد العرب وفشل **بركن** عند قبائل مويس وفشل « **جارين** » في كانتون وفشل **فانسان برجيه** في السهوب الافغانية فقال « ان النهجين لا يجدي مع الاجسام الغريبة فحتى اسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال عن القوات الدولية التي ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك امرا صعبا عليها وعلمنا كل من ثوار عام ٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجوب العمل في وطن المرء نفسه قبل اي مكان آخر » (٤٠) وهذا نفس ما صرح به الكاتب **لجانين موسوز** اثناء حديث جمعهما بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩٦٨ « لايمكن صناعة وطن الآخرين » (٤١)

اذن فقد اكتشف مارو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدا يتساءل عن القوى التي تتصارع داخله وكذا عن مستقبل النظام السياسي الفرنسي . واعتبارا من ذلك الوقت فسوف يبدأ مالرو القتال والنضال في ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السياسة واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هي الأهم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والالتزام بجانب شخصية بطل تمثل الأمة قيمة خاصة لديه فهي الوحيدة التي يمكن ان تدوم .

لقد اصبح واضحا لمالرو في عام ١٩٤٥ والاعوام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيدتين اللتين تمتلكان الفرصة لحكم فرنسا هما الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكرنا فان مالرو يرفض الشيوعية التي انحصرت في ذلك الوقت في الصورة الستالينية فقط والشيوعية لا يمكنها انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هي الوحيدة التي بوسعها انقاذها ، فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال **ديجول** هو الرجل الذي يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل في العظمة والحرية وهي السياسة التي كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذا في نظر مالرو تبدو وكأنها الامل الوحيد في البقاء . وعلى هذا نراه يعرف الديجولية للجنرال ديجول فيقول « اثناء المقاومة كانت الديجولية في نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية في خدمة فرنسا كتغيير لفكرة فرنسا في خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يمينيه ام يسارية وبعد ذلك اصبحت شعورا بالنسبة لي » (٤٢)

ولكن السبب الرئيسي لتفرق الديجولية في نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوطنية فالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريفها مثل الماركسية او الفاشية ولكنها « حركة سلام وطني » (٤٣) وارادة وطاقة .

والديجولية كما يتصورها الفرد ية مالرو، تجد مكانها في التقاليد الوطنية الثورية بعد ميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديجول ، نجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفرق

---

(٤٠) Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

(٤١) Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

(٤٢) مالرو : شجر الزان الذي يقطع ص ٩٥ .

(٤٣) Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

بينهما » (٤٤) وتعتبر ايديولوجيته الديجولية ايمانا منه بقدرتها على اقامة عالم افضل ليس بمقدور احد غير شارل ديجول ان يبنيه ، اذ بالنسبة لاندريه مالرو فان الديجولية بدون ديجول « لايمكن تصورها » (٤٥)

ربما يبدو مفيدا ان نتوقف قليلا للبحث في اسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل ديجول لرى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال ديجول لاول مرة في باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التى روت انهما تقابلا على جبهة الالزاس لوربيق خريف عام ١٩٤٤ . وينفى مالرو نفسه هذه الرواية بقوله «ان المشاعر التى تربطنى بالجنرال ديجول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الاولى والتى هى من نسج الخيال، فمن المؤكد ان الجنرال ديجول لم يقل منى فى الالزاس العبارة الشهيرة التى قالها نابليون عن جوته (« اخيرا قابلت رجلا ») وذلك لسبب بسيط هو ان على جبهة الالزاس لم يحدث ان قدم الكولونيل برجيه (الاسم الحركى لمالرو) الى الجنرال ديجول » (٤٦)

حقا تمت محاولة تقارب بينهما فى نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الاول من الاسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو (ديجول) يعرض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فاعتقد ان اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه فى حرب اسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف ان خطابه هذا لم يصل على الاطلاق الى الجنرال ديجول . ولكن فى ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو (ديجول) الذى جاء فيه : « مهما حدث فان شعلة المقاومة لا يجب ان تخبو ولن تخبو » (٤٧)

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الاولى ان تتم بعد ذلك بخمس سنوات اى فى يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت اول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد اعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الاولى وللظروف التى تمت فيها وللعوامل التى ساعدت على نجاحها وذلك فى مؤلفه اللا مذكرات . ففى ذات مساء اتصل به تلفونيا شخص غامض لم يفصح مالرو عن اسمه او شخصيته فى روايته وابلغه ان لديه رسالة شفوية هامة يجب ان يوصلها له وطلب ان يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضى بضع ساعات وصل الزائر الغامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات ان الجنرال ديجول يسالك باسم فرنسا هل انت على استعداد لمعاونته « وعلق مالرو على ذلك بقوله » كانت العبارة غريبة »(٤٨) وقبل مالرو الدعوة وانتظر لتحديد موعد المقابلة الاولى مع الجنرال ديجول .

---

(٤٤) Mossuz (J.) op.cit. p. 135

(٤٥) Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

(٤٦) مالرو ، اللامذكرات ص ١١٤ .

(٤٧) شارل ديجول ، خطابات وكلمات (١٩٤٠ – ١٩٤٦) ص ٤ .

(٤٨) مالرو اللامذكرات ص ١٢٢ .

وقد كشفت **جانين موسوز** عن شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو ان الزائر الغامض لم يكن الا جاستون بفلسكى الذى تعرف واعجب بمالرو عند مقابلته عند كورنيليون مولينيه » (٤٩)

وبعد ذلك بايام تلقى مالرو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول فى وزارة الحربية ، وتعلق جانين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الاولى ساد تفاهم حقيقي واتفاق عميق بين الرجلين (٥٠)

وقد بدأ على الفور حديث غريب بين اندريه مالرو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفى صورة اسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى باسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا ان الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل فى الفترة التى لم يكن يعرفه خلالها والتى كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو ان مالرو فهم مايدور بخلد الجنرال فتراه يرد عليه بشبع فضوله ويرضيه قائلا : « لقد تطوعت فى نضال من اجل العدالة الاجتماعية ان صح القول او لاكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » (٥١) وكان مالرو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى ان جاءت بعد ذلك « **الحرب الحقيقية لم بعد ذلك تلتها الهزيمة وكثيرين غيري تزوجت فرنسا** »(٥٢) وكانما نطق مالرو بالكلمة السحرية التى تفتح جميع الابواب وهي « **فرنسا وحب فرنسا** » لم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل اخرى ، وادى اتفاقهما فى الراى وتلاقي وجهتي نظرهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدث مالرو فى هذا اللقاء باقاضة فى المواضيع التى تحتل المكانة الاولى فى تفكيره ، وهى اكتشاف الوطن والشيوعية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن **ديجول** يقاطعه بالمرة رغبة منه فى اعطاء الكاتب الفرصة فى التعبير عن نفسه وعن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد ان تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظرهما واتفقا فى الراي بدآ يفكران معا فى الوضوع الذى يشغلهما ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد امدت الجمهورية ويجب عليها ان تعيد بناء فرنسا » (٥٣) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الحلم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته فى يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مالرو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا فى اللامذكرات تعليقة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها بصفة خاصة منع كل حزب من ان يستغل الموقف لصالحه » (٥٤) ولقد كانت مهمة

---

(٤٩) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥٠) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥١) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٢) مالرو : اللامذكرا ت ص ١٢٥ .

(٥٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٤) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

شاقة ومسيرة فى نفس الوقت لانه وديجول كانا على وعى بهذا « التسابق بين الاحزاب على التضليل » (٥٥) وهو التسابق الذى سبب تحطيم الحلم الجميل الذى كانا يحلمان به وهو الوحدة الوطنية .

وفى ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديجول الحكم وهويتهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مالرو ترك الوزارة فى نفس الوقت وتبع الرجل ١٨ يونيو فى عزلته فقد كان محالا عليه ان يتصور الديجولية بدون بطلها شارل ديجول وقررالا يعود ابدا الى اضواء الحكم طالما ان الجنرال ديجول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتناول مصير فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديجوليين لم يفقدوا الامل ابدا ، ورفضوا البقاء فى عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذى وضعوه نصب اعينهم هو اعادة الجنرال ديجول الى الحكم . وحتى يتهيأ هذا الرجوع يجب عليهم ان يتحدوا فى « حركة رائدة يجب ان تكون مختلفة عن التنظيمات الاخرى الموجودة وتكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليها ان تحاول تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذى يراود مالرو ايضا والعمل على تحقيق ذلك نشأت حركة تجميع الشعب الفرنسى فى يوم ٦ ابريل ١٩٤٦ وعين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن العملاقان مالرو وديجول متفقين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التى يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول مالرو ان يطبق المعادلة التى عطاها « لجارسيا » فى رواية الامل وهى « لاتوجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شيء مادى بشيء مادى آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى (...) وليس بمقارنة تنظيم برغبة او حلم تغيير شامل » (٥٧)

وكان مالرو يتمنى ان يكون التجمع باعثا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حذره ديجول حينما تقابلا لاول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لاتدع الامر يلتبس عليك فان فرنسا لاتريد ثورة بعد الآن فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هدف مالرو ان يكون التجمع « حركة ثورية » تستولى على الحكم حتى لو اضطرت الى استخدام القوة والعنف وان تاتى بسياسة اجتماعية . وعن ذلك تقول جانين موسوز « كان مالرو يكرس التجمع ليستولى فجاة على الحكم وان يحرر فرنسا المكبلة بالقيود » (٥٩)

---

(٥٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٣٦ .

(٥٦) J. Mossuz op.cit., p. 64

(٥٧) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٥٨) مالرو : اللامذكرات ص ١٤١ .

(٥٩) J. Mossuz, op.cit. p. 67

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف، اولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتي يكون الاتحاد السوفيتي مسئولا عنها ، وفي هذه الحالة يهب الديجوليون الذين في الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . اما الامكانية الثانية فتكون بخلق موقف ثوري يهيء السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسي جاء مخيبا لآمال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجيا . اما اسباب انفصاله عنه وزوال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائيا عن حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع في تصوره ان يرفع القيم التي يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديجولي كريم وبرجال ديجوليين في خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديجول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات في صفوف المناضلين ضد الفاشية الذين حاربوا في مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون في نظره شعبا باكمله (٦٠) .

هذا التجمع بعد ان غمرته اغلبية من حزب اليمين اصبح هو نفسه تجمعا لليمين . وسبب آخر لنفور مالرو ولخيبة امله وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجميعهم حول ديجول . وفي عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسي في الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته في قطع كل الصلات بتنظيم لا يرجو منه شيئا .

وفي عام ١٩٥٣ حل ديجول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب ماير اه وهكذا انتهى عمر تجمع الشعب الفرنسي . وعندما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات فانه لم يخف مرارته قال «منذ ان بدأ فيه التجمع يتصرف كحزب مشابه للاحزاب الاخرى فقد كل معنى له في نظري » (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو في نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التي قام بها لانجاحه تستحق منا كثيرا من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتبا على حد قول جالين موسوز « الوسيط الامثل بين الجنرال ديجول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التي يقوم بها، وهي الكفاح لنشر الديجولية وفي نفس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهرية تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهما التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجا ومجاهرة بالعقيدة . ولكن للاسف لم تدم هذه المجلة واختفت نهائيا عام ١٩٥٣ .

---

(٦٠) Mossuz (J.) op.cit., p. 89

(٦١) جاء في جريدة الحدث « L'Evenement » عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

(٦٢) Mossuz (J.) op.cit., p. 74

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد اراد ان يرتبط بالديجولية فى مظاهرها « التاريخية » والعظيمة وكان تجمع الشعب الفرنسى يهمه بوجه خاص لانه يبدو كتعبير وقتى للديجولية « (٦٣) كما يجب على الديجولية ان تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من اجل ذلك كان على التجمع ان يسلك طرقا مختلفة عن طرق واساليب الاحزاب الاخرى لتميز بانها مجردة تماما من الخسة والدناءة . ولكى يعمل على ايجاد اتصال مباشر بين الأمة باسرها والرجل الذى سوف يمثلها بدا اندريه مالرو حملات « السلام العام » التى كان يهدف من ورائها الى اثبات متانة وقوة الروابط التى تجمع بين الجنرال ديجول والشعب الفرنسى .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسى فى اداء المهمة المحددة له طبقا لاحلام وآمال كل من الجنرال ديجول وصحبه من الديجوليين ، وبدا اندريه مالرو يكرس وقته كله لكتابة اعماله الفنية العظيمة التي كان قد بدا العمل فيها عام ١٩٣٥ ، واستمر كذلك حتى عاد ديجول الى الحكم فى مايو ١٩٥٨ فاسرع مالرو بالحضور اليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بانى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا فى اللامذكرات لقاءه مع الجنرال ديجول فى باريس فى فندق لابروز . ويشرح عودة ديجول الى الحكم فيقول « لم تفارقه ابدا العزلة الشديدة التى تركها ليبدا المفاوضات ، وكذلك لتولى مصير فرنسا الذى كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرا اى تغير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفى هذه الايام التى كان يعتبر فيها الاشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتى كان فيها اكثر من يهاجمونه هم الشيوعيون والتى كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الاحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو الا فى اعادة بناء الدولة » . (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة فى حكومة ديجول حتى عام ١٩٦٩ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الامانة والاخلاص النادرين والحق ان اخلاصه كان تاما فلم يحاول ابدا خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من انه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولابد ان سكوته فى بعض الاحيان وكذلك فى بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك اصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تسلك « سياسة التاريخ » والتى تمثل فى نظره قيمة اكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

---

(٦٣) Mossuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٤) جاء فى جريدة التجمع . Le Ressemblement عدد ٥٣ ، السبت ٢٤ ابريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٤٩ .

(٦٦) Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٧) جاء فى جريدة التجمع Ressemblement ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما في وسعه جاهدا لهدم الادعاءات التي يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بانه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديجول ليس فاشيا والدليل على ذلك انني معه ، ولدي اربع عشرة اصابة في سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد ادرك مالرو ببعد نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاط بين الفاشية والديجولية يعود في المقام الاول الى عدائهما للشيوعية ، ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان لكلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعية ولكنهما يحاربانه لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية اما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

فعندما تكون الديجولية هي الحاكمة والسائدة فان ذلك يبشر ببدء عصر جديد هو عصر الامل ، ولسوف تولد فرنسا من جديد ولسوف تعود الى صورتها الحقيقية . ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما اوضح مالرو ان يتعاون الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدأوا بناء وطنهم من جديد وفقا لاساليب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو في الوزارة بجوار الجنرال ديجول بصفته وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديجول في الاستفتاء بعد احداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث في المرة الاولى تبعه وزيره وصديقه الحميم في عزلته دون اي تفكير او تردد .

وهكذا ينتهي فصل من حياة ديجول الحافلة ويسدل الستار على تدخله في تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التي لن تنسى . ويشرح ديجول بنفسه الدور الذي لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان بيني وبين فرنسا عقد (...) لقد كان عقدا دون ما سند من حق وراثي وبدون استفتاء وبدون اي شيء على الاطلاق ، لقد كتب علي ان آخذ على عاتقي الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع عن مصيرها ، ولقد استجبت الى ندائها الصامت والأمر الذي لا يحتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند (...) . لقد تزوج ديجول من فرنسا قبل زواجه من ايفون فاندرو » . (٧١)

ربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسي لهذا الاتفاق القوي الذي لم يشهد اي صدع ولم يمر بفترات فتور والذي جمع بين الرجلين العظيمين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذي بدأ منذ مقابلتهما الاولى في عام ١٩٤٥ . وتعتقد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت اشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعران بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفر موهبة التنبؤ لديهما ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤي . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

---

(٦٨) محاضرة القاها مالرو في ساوباولو ، يوم ٢٦ اغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ اغسطس ١٩٥٩ .

(٦٩) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ١٩ ـ ١٨ .

(٧٠) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ١٩ .

(٧١) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ٢٠ .

(٧٢) Mossuz (j.) op.cit., p. 55

عادى بالعظمة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذهالعظمة وبفضل ذلك كانا متشابهين » (٧٢) وتنسب « بييردى بواديفر » أسباب هذا التوافقوالانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « عزلة متشابهة وشغف متشابه بالافعال التي تتسمبالعظمة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الارادة وقوة الاحتقار . (٧٣)

• • •

على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بان العزلة المشتركة هى التي قربت بين الرجلين . فمن جهة كان شارل ديجول يقف وحيدا فى عالمالتاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو « بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد ان يضمهمالى عالم التاريخ هذا » (٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتىعندما كان فى وسط الزحام وهو يناضل مع الاخرين ، وحول هذا المعنى تقول جانين موسوز« ان انضمامه الى هذه المعارك كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحة كان الهدف من اقحامنفسه فى قضية اجتماعية هو ان يتحدى الموت وينكره ويتغلبعليه . وهكذا نظرا لعدم استطاعتهان يربط اهدافه بأهداف الاخرين **فقد ظل وحيدا** وسط الجماعات الاكثر التئاما ، والحشودالاشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التى جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرىمشتركة ايضا بينهما هى الحلم بالعظمة والرقى وهي صفة تعتبر من اشد عوامل تفاهمهما . ومصداقا لذلك نجد انمالرو كتب فى اللامذكرات « الذىيعنى (...) فى اىرجلعظيم هىالوسائل التى توضح عظمتهوطبيعة هذه العظمة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصية الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخر نفس الموقف الاخلاقى تجاه الاحداث التي دافع عنهابقوة . وحول ذلك تقول جانين موسوز ان « كلا منهما قد جعل من الارادة التى بمفردها تساعد على الفعل مبدا اساسيا » . (٧٧)

لقد وجد كل من ديجول ومالرو عندالآخر تجسيدا للآمال والاحلام التي كان ينشدها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فتقول « لقدقابل اندريه مالرو رجلا (تقصد ديجول) على الرغم من انه كتب فانه قد نجح فى فعله واوصلهالى النهاية المرجوة (....) ومن ناحية اخرى فقد قابل ديجول رجلافعال استطاع ان يجعل مناعماله الروائية عالما مطابقا لعالم القرن العشرين » .(٧٨)

---

(٧٢) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7

(٧٤) Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٥) Ibid, Loc. Cit.

(٧٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٠ .

(٧٧) Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٨) Ibid, p. 56

لقد بدا ديجول بالنسبة لمالرو منذ اول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « اما بالنسبة لمالرو فقد اكتشف رجلا عظيما » . (٧٩)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقدعزا نقاد آخرون قاموا ببحث اسباب التفاهم التام بين مالرو وديجول الذى كان مثارا للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية او الستالينية .

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءا مما كتبه مورياك فى جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) فى الخامسة والعشرين من عمره ممثلا لحزب بولنجيه بمدينة نانسى كان دوره يتلخص فى ان يقوم باتباع حصان اسود ورجل ذى لحية شقراء يرتدى الزى العسكرى ، اما مالرو وهو فى عنفوان الشباب فنجده يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسى فحسب بل ايضا على منع تحقيق اطماع ستالين فى اوروبا .

فى الواقع ان كفاح هذا الرجل الذى يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط باى سن او زمان كان كفاحا موجها قبل كل شىء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغى ان اقول ما افكر فيه صراحة ؟انني اعتقد ان اندريه مالرو كان يتميز بشىء من الكبرياء لدرجة انه يعتبر ديجول ورقة تعضد لعبته » (٨٠)

هذا ورأى نقاد آخرون فى المعاونة بين فانسان برجيه (Vincent Berger) وآنغر باشا فى رواية « شجر الجوز فى اللالتنبرج » تجسيدا مسبقا لما سوف يكون عليه التعاون بين مالرو وديجول بعد ذلك .

فنجد برجيه يقول فى رواية **شجر الجوز فى الالتنبرج** « انه من الصعب علينا الآن نظرا لقوات الوقت ان تؤثر على الاحداث لذا لا يمكن الا استخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا ان يكون آنغر باشا » . (٨١)

ويعلق جايتان بيكون على ذلك قائلا « علينا ان نستبدل اسم آنغر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مالرو بالامس » . (٨٢)

اما بيير دى بوادفر فيقول ان مالرو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجيه » آنغر باشا ، وذلك لكى ينتزع من ايدى افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة فى الجمهورية الرابعة فرنسا التى كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

---

(٧٩) Ibid, loc. cit.

(٨٠) Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques,- p. 14

(٨١) مالرو ، شجر الجوز فى اللالتنبرج ص ١٤٦ .

(٨٢) Cite par Gaillard (p.) Les critiques.....p. 109

(٨٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 20

وبالنسبة لجورج مونان فمن رايه ان مالرو قد وجد فى ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التى كان يحلم بها لكى يلعب الدور الذى قد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذى اعطى الى بركن فى رواية **الامل** تلك الصرخة الصادرة من شخصية انسان ذى طموح بسكالى : « اريد ان اترك اثرا على هذه الخريطة » والذى يمكنه ان يفهم شخصية الرجل العسكرى الذى كانت كلمته الاخيرة فى مؤلفة **حد السيف** تعد مدحا وتعظيما لاصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سببا للحياة سوى ان يتركوا آثار بصماتهم على الاحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكرى التام بين الرجلين باساطير القرون الوسطى الشهيرة وبالصداقة التى تربط الامير بشاعره والسيد بفارسه . وسوف تتغلب الصداقة والتفاهم المتبادل بين ديجول ومالرو على جميع العقبات ، وسوف تواجه الفشل وخيبة الامل والمصاعب بشتى انواعها ، ولسوف يظل مالرو وفيا على الدوام لديجول ، وكان الاخير واثقا كل الثقة انه اذا تخلى عنه الناس اجمعين فسوف يبقى مالرو على الدوام بجانبه ولن يتخلى عنه ابدا .

لقد قرن مالرو وديجول مصيرهما معا ، وذلك لانهما ارادا ان يجسدا مصير فرنسا ، وفى اعتقادى ان السبب الحقيقى للصداقة والتفاهم والترابط بينهما يكمن فى هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بمدزيارته الطويلة لديجول فى كولمبى فى ديسمبر ١٩٦٩ « ايها الليل اهبط ببطء تحوطك زوبعة الثلوج . هذه هى نهاية زمن هذا الرجل وزمنى . نهاية زمن مسيرة غاندى نحو المحيط ليجمع الملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)

اذا خطر لنا ان نحاول اكتشاف الجنرال ديجول فى اعمال مالرو لوجدنا انه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد ان الكاتب حاول فى كل مرة ان يحدد ملامح القائد وتعبيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال ديجول من خلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الاولى خلال اللقاء الاول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو » فى عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التى سجلها الكاتب فى اللامذكرات عام ١٩٤٨ . اما المرة الثالثة فقد وقعت فى ديسمبر ١٩٦٩ . ونلحق ان النقاد قد اعطوا اهمية كبيرة لصورة ديجول فى اعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاسا لصورة الجنرال فى مخيلة الكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التى سوف يبدوبها ديجول فى كتابات مالرو ولم يخيب الظن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل اى تجاوز » . (٨٦)

وفى الفترة التى امتدت من لقاءهما الاول فى عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وتعطى لنا نموذجا للجنرال ديجول فى صورة حية ومعبرة وجذابة فى نفس الوقت .

---

(٨٤) Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques......p. 109

(٨٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١٤٩ .

(٨٦) Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

قبل اللقاء الاول بين الرجلين لم يكن ديجول في نظر مالرو الا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، وفجأة يتجسد بطل الاسطورة أمامه فاراد مالرو لاول وهلة ان يثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ في ذاكرتي بصورة محددة عن وجهه فحوالي عام ١٩٤٣ اراني رفاليل (Ravanel) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبراشوت ولم تكن نعرف أن الجنرال ديجول كان طويل القامة لهذه الدرجة (....) فحتى عام ١٩٤٣ لم تكن نعرف وجه الرجل الذي نحارب تحت قيادته »(٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغب شيء عن نظره وبعد مفاجأة اللحظات الاولى حاول مالرو ان يكتشف الشيء الذي يميز وجه الجنرال فكتب « لم اكتشفه ولكني اكتشفت الشيء الذي يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الفم في الحقيقة أصغر والشارب أكثر سوادا ونجد ان الذي اثر بشدة في نفس مالرو هو « النظرة النفاذة المركزة » . (٨٨) ثم تزداد الصورة اكتمالا باضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك في المقابلة الثانية التي تمت في عام ١٩٥٨ فنجد ان مالرو يعود بذاكرته الى ديجول الذي قابله في المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التي طرات على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شاربه الذي ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى الذقن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) لقد ترك الزمن بصماته على ملامح القائد هذه الملامح التي زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة (...) . كانت كلماته وتعليقاته تنم عن الذوق واحيانا عن روح الدعابة وعندئذ كانت العين تسفر والملمح وتستبدل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين الفيل بابار »(٩٠)

ثم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال ديجول نتيجة المقابلة التي تمت في ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « ان عناء الايام الاخيرة من الحكم قد اختفى (...) كانت قامته الطويلة التي انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الحجرة الصغيرة التي كانت تدفئها النار المشتعلة في المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لأدق التفاصيل ولم يفته شيء ونجده يضيف « لقد اكتشفت وانا اشد على يده الى اى حد كانت يدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرتين ودقيقتين » (٩٢) وقد جعله هذا الاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونج اذ حسب قوله كانت « ايدى ماو المحترقة من الماء المغلى تبدو كانها ايدى شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الاول في عام ١٩٤٥ الذي سجله مالرو في **اللامذكرات** وحتى اللقاء الاخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح ديجول وصورته تفرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

---

(٨٧) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٨٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٥ .

(٨٩) مالرو ، اللامذكرات ص ١٤٢ .

(٩٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٥٠ .

(٩١) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٢) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٣) مالرو ، شجر الزان ، ١٧ .

هذا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن اراد ان يعرفه لنا كما عرفه هو واحبه فنجده يكشف لنا عن جوانب شخصية ديجول من خلال اقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذى يبدو اكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال ديجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبه لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد ان طباعة واخلاقه هى الاخرى سوف تتطور من لقاء الى آخر أو على الاصح من حديث لآخر .

نجد فى عام ١٩٤٥ ان شخصية ديجول فرضت نفسها على مالرو بسبب ما اسماه « شكل صمته » (٩٤) ففى اثناء هذا اللقاء لم يتكلم ديجول بل كان يوجه الاسئلة ولكن ليس بالاسلوب الفاتر العابر الذى يميز الاستجوابات باسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « انه يجب دقة الفكر ويمكن ان نتكلم بخصوص ديجول عن نوع من البعد الداخلي لم اجده فيما بعد الا عند ماوتسى تونج» (٩٥) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكانه تساؤل موجه الى محدثه . وقد ثبت فى ذهن مالرو منذ اللقاء الاول ذكرى هذا البعد الداخلى فكتب عنه يقول « هذا البعد القريب كان يبدو وكانه ليس فقط بينه وبين الشخص الذى يتحدث اليه ولكن بين قوله وطبيعته هو ايضا » (٩٦)

لم تكن اقوال ديجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما اسماه مالرو بالحضور المركز وهو مالم يجده الا عند « الشخصيات الدينية العظيمة (...) ولهذا السبب فكرت فى المتصوفين عندما تحدث (ديجول) عن الثورة » (٩٧) كان ديجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه « الوزن الذى تعطيه المسئولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا » (٩٨) .

ان كل هذه التعليقات التى دونها مالرو بعد اللقاء الاول لا تكشف شيئا عن ذاتية ديجول ، فهى لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الاسطورى .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال المعيشة لمدة طويلة بجوار القائد ان « يتعود على بعض السياق الفكرى وعلاقة ديجول نفسه بالشخصية الرمزية التى يسميها ديجول فى مذكراته او بالاصح التى كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل ابدا (٩٩) لقد حرص ديجول على ان يخفى حياته الشخصية ، وعمل على ان يظل دائما الجنرال ديجول الرجل الاسطورة وذلك حتى بالنسبة لاقرب المقربين اليه من زملائه واعوانه ومساعديه ، فلم يكن باستطاعة المحيطين به ان يدعوا ابدا انهم يعرفون «الرجل الخاص» الذى يمكنه أن يتحدث عن موضوعات شخصية ، اذ لم يكن يترك ابدا شخصيته الاسطورية اى الجنرال ديجول . وعن ذلك الامر يقول مالرو فى اللامذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما عدا افراد اسرته كصورة مهذبة لشخصيته الاسطورية (١٠٠) ولقد عمدت

---

(٩٤) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٥) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٧) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٥ .
(٩٩) مالرو اللامذكرات ص ١٥٠ .
(١٠٠) مالرو اللامذكرات ص ١٥١ .

مذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا ديجول فقط ، والسبب فى ذلك فى راى مالرو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التى شكلت شارل اما القدر فهو الذى شكل ديجول (١٠١) . فشارل اذا انسان عادى صنعته الحياة بحلوها ومرها كأى انسان آخر ، اما ديجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الاسطورى الذى اعده القدر وشكله ليتحمل المسئولية الضخمة مسئولية تغيير مصير فرنسا وانقاذها .

لقد لاحظ مالرو اثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ ان ديجول يمتاز بالروح العسكرية التى تتبعها فكرته عن الفعل . وفى رايه ان تكوينه العسكرى قد اثر على فكره والدليل على هذا انه ينظر الى الحكومة « كاداة نضال فى سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخرا يتميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعته فى صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله عن الوقت الذى صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك ان حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما فى تشكيل شخصيته كقائد اسطورى .

لم يلتقى الرجلان وجها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم فى التاريخ لا يمكن ان ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والقدوة والمثل الذى يحتذى ، وظل على رايه هذا طوال حياته ، ويحاول مالرو فى هذه المرة الثالثة والاخيرة ان يسجل هذا اللقاء ايضا فى عمل أدبي لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « ان هذه الصفحات تكشف اكثر من اى اعترافات عن ديجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحه كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مالرو ذلك شخصيا وذلك فى مقدمة كتابه « ان كل ما يقوله الجنرال ديجول هنا يكشف من شخصيته واحيانا عن نواح سرية » (١٠٥) لقد اراد مالرو هنا ان يصور لنا لأول مرة ديجول الرجل وليس ديجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد اراد كما صرح فيما بعد « ان يعطى صورة من الجنرال ديجول داخل التاريخ وخارجه ... لم اهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التى رواها لنا مالرو اكثر الفة ، فقد كشف فيها ديجول جانبا اكبر من طبيعته الذاتية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض الذكريات العائلية ، ورغم كل ما ذكره ديجول نجد أن مالرو يستخلص فى نهاية الأمر ان من المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع ديجول فيقول « لقد كان يعبر عن مصير فرنسا وكان لا يزال يعبر عن هذا المصير حتى عندما كان يعلن عن انفصاله عن هذا المصير . ان الالفة مع ديجول

---

(١٠١) مالرو اللامذكرات ص ١٥٢ .

(١٠٢) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥

(١٠٣) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥ .

(١٠٤) Grosjean (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

لا تعنى جواز الحديث عن شخصه لان ذلك يعتبرموضـوعا محرما على العكس من الحديث عن فرنسـا (...) او الموت » (١٠٧) .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوةالجنرال ديجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقـوة الجنرال ديجوليأتى من اعماله وقت الحرب والمقاومة وهـو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تـسجيلهذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال ديجول قدوة ومثلا للبطل القوميالذى يجب ان يحتذى ، فهو وحده الذى استطاع ان يواجه العدو بجراة وشجاعة دون خـوف اوموارية ، وهو الذى استطاع على حد قول مالرو ان يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ او مراوغةمنذ اليوم الاول » (١٠٨) .

لقد احس مالرو بحساسيته وشفافيته منذاللقاء الاول بينهما عام ١٩٤٥ انه قد اكتشـف اخيرا الشخصية الحقيقية التى كان دائما يحلمبلقاءها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كـان ديجول يمثل وقتئذ اسـطورة الوحدة الوطنيةلمعظم الفرنسـيين ، وكان بالنسـبة لمالرو يمثل شيئا اكبر ، وفى ذلك تقول جانين موسـوز منديجول « كان يمثل اسـطورة ولكن لديه أيضـا سـمات الابطـال الذين فتنوا مالرو طـوالحياته » (١٠٩) .

لقد رفض ديجول الاحتلال والعدوان الالمانىمن اليوم الاول وهب بشجاعة منقطعة النظير للدفاع عن وطنه الحبيب فرنسا الذى كان يئنمن ضربات العدو المجرم. لم يقبل ديجـول ان تموت فرنسـا ابدا فكيف تموت وهى غنيـةبرجالها من حوله . منذ الايام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون الا تموتفرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيلالذى كان يعد حلما فى ذلك الوقت غامر ديجول بكل شيء وضحى بالنفس والنفيس فى سـبيلوطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هى شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج ديجول منفرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصيرها .

لقد تجسد امام مالرو اثناء اللقاء الاول ماذكره بوضوح فى اللامذكرات حول ديجول فوصفه بانه « الرجل الذى اراد ان يتحمل مسـئوليةمصير فرنسا وهو رجل تـسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المصير الذى استطاعان يكتشفه واراد ان يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بسـهولة ويسر انمصير فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذى التقى

---

(١٠٧) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تابين ص ٢٦ .

(١٠٩) Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٥ .

به ق اول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هذا اللقاء بحق لقاءً تاريخيا انعكست آثاره على الصداقة التى ربطت بينهما بعد ذلك .

ثم تمضى الايام والسنون مليئة بالمحن والخطوب ، ها قد مضى ما يربو على العشرين عاما على اللقاء الاول وبدء الصداقة بينهما فنجد مالرو يتساءل عما يمثله ديجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضا ، ثم يجيب ان ديجول كان يمثل بالنسبة للفرنسيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رايته « احد الرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، اما بالنسبة لشعوب العالم الثالث التى تكافح الاستعمار وتتطلع الى الاستقلال فقد جسد ديجول الاستقلال (...) لقد اعاد فرنسا الى صورتها التى احبتها فى الماضى دول كثيرة (١١١) لقد بدا ديجول بالنسبة لمالرو كتحقيق للأمانى التى كان يحلم بها كل الفرنسيين، فهو بطل من أبطال التاريخ كما ان « مجده مرتبط بالمشاعر التى جمعها » (١١٢) .

يتضح لنا من اعمال مالرو القيمة ان ديجول كان واعيا تماما لنفسه ولقيمة عمله فنجد انه يقول لمالرو « لم يكن ما اقوله هو المهم بل كان الامل الذى احمله معى هو المهم لقد امدت وجود فرنسا لأنى امدت امل العالم فى فرنسا » (١١٣) ومن هذا المنطلق فقد سمى ديجول الجزء الأول من مذكراته « مذكرات الأمل » .

لقد كان شارل ديجول يمثل دور المنقذ بالنسبة لفرنسا الذى حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقذين مسئولية اتباعهم . ولقد بدا هذا الرجل وكانه رائد لحركة دينية فقد اعاد بناء فرنسا ابتداء من العقيدة ، وفى ذلك يقول مالرو « ان اى عقيدة تشتمل على ارشاد ربانى فى سبيل المسيح او فى سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، ان ايمانه بفرنسا لم يكن كافيا ليصبح الجنرال ديجول ولكن بدونه لكان منتصرا دخيلا على المنتصرين الحقيقيين ، او مهزوما تميز بشىء من البسالة » (١١٤) .

ان رجل ١٨ يونيو يبدو فى نظر اندريه مالرو مثالا للمفكر صانع الاحداث الذى استطاع ان يفكر ثم يحقق عملا عظيما ، وقد تطابقت افعاله مع افكاره ونجد ان « الرجل ذو الشخصية » الذى يتحدث عنه ديجول فى كتابه « حد السيف » هو نفسه الذى سيصبح قائدا لفرنسا الحرة بعد ذلك .

ان اعجاب مالرو بديجول كان لا حد له ، كان ديجول يمثل اعظم شىء بالنسبة له ولفرنسا فقد جاء فيه فى مؤلفه « شجر الزان الذى يقطع » انه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » (١١٥) وهو يجد مكانه فى صفوف اعظم رجال العالم ولقد كرر مالرو عدة مرات مكانة ديجول بين الرجال العظماء فى العالم فيقول مرة « كان الجنرال ديجول الرجل الوحيد الذى يمكنه

---

(١١١) مالرو ، شجر الزان ، ... ص ٤٠ .
(١١٢) مالرو ، شجر الزان ... ص ٤٠ .
(١١٣) مالرو ، شجر الزان ص ١٢٢ .
(١١٤) مالرو ، شجر الزان ص ٣١ .
(١١٥) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

ان ياخذ مكانا بعد غاندي وماوتسي تونج وآخرين فهو وحده الذي يمثل الاسطورة القومية » (١١٦) وهذا الشعور نحو ديجول هو ما احس به مالرو منذ البداية . ففي عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب في جريدة التجمع « منذ ثماني سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الاصوات التي ادعت انها اصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التي تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) واخيرا نجد في اللامذكرات بعد لقاءهما الأول ما احس به مالرو واعجب به وشده برباط لا ينفصم الى ديجول فيقول « **لقد كان مطابقا لاسطورته** » (١١٨) .

ان الشيء الذي كان يضايق دائما العديدين قراء اندريه مالرو الذين كانوا في وقت ما من اشد المعجبين بادبه وباعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسي R.P.F. ثم اشتراكه في حكومة الجنرال ديجول التي كانت بعيدة في نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه ايمانويل مونييه Emmanuel Mounier في مجلة الفكر عام ١٩٤٨ من هذا الموضوع فقال « حقا اذا كان مالرو كما يؤكد في كل مناسبة وكما تدل قيمة اعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فان موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد في فرنسا وقتئذ ان مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا في سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلى عن الافكار التي جعلته يشترك في كفاح المناضلين بالصين واسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بانه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وانه انضم الى « الحزب المضاد » وكان البعض قاسيا ومتطرفا في حكمه على مالرو الى حد ادانته بالاتجاه في طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والاثر الغريب الذي زاد من قوة اتهامهم له هو أن اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط ان يدحض هذه الافتراءات والشبهات التي حامت حوله ، ولم يحاول ابدا ان يبرىء نفسه او يدافع عنها وهو ما نراه غريبا في رأينا .

• • •

بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بان التطور الايديولوجي عند الكاتب يمكن ان يتصف بالاتصال وليس بالقطيعة كما ادعى البعض من اعداءه . وذلك لأن الاتجاهين اللذين سلكهما في التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على اوجه لتشابه لا يمكن تجاهلهما وانكارهما ، فاذا ماقمنا مثلا بمقارنة مبادىء الشباب بمبادىء فترة النضج الفكري نجد ان هناك اشياء كثيرة تدل على الاخلاص الفكري لمبادئه فعندما اصبح اندريه مالرو المتحدث (الشاعر) باسم تجمع الشعب الفرنسي ونظمه ، وعندما انضم كلية للديجولية لا يصح ان نقول انه قد قطع اتصاله بمثالية شبابه . ونجد ان اليساريين الذين كانوا في فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتعاونه مع الجنرال ديجول . وبعود سبب هذا الفهم الخاطىء الى الصورة غير الصحيحة التي كانت ماخوذة عنه واعتباره رجلا ثوريا في البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن في راينا ان اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل ابدا في طريق الماركسية المظلم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض افراده خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

---

(١١٦) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

(١١٧) جريدة التجمع Le Ressemblement عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

(١١٨) مالرو ، اللامذكرات ص ١٣٥ .

(١١٩) Cite par Moossuz (j.) op.cit., p. 264

لم يكن مالرو ابدا خائنا لعهد قطعه على نفسه تجاه الشيوعيين كما انه لم يحنث ابدا بهذا العهد وعندما صار ديجوليا لم يتخل عن آماله وامانيه التي عبر عنها في اعماله « قدر الانسان » و « الامل » . وفي رأيي ان جايتان بيكون كان محقا في قوله عن هذا الموضوع « في حالة مالرو تبدو لي القطيعة مع الشيوعية وكأنها توصل الى الوحدة والمخاطرة وليس للسهل (...) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين في الوقت الذي كان فيه من الصعب على المرء ان ينضم اليهم ، ولقد تركهم في الوقت الذي كان فيه من السهل على المرء ان ينضم اليهم » (١٢٠) .

ان محاولة مالرو للشيوعية لم تكن في يوم من الأيام صدى أو انعكاسا لليمين الكلاسيكي فلقد انفصل هو نفسه من تجمع الشعب الفرنسي عندما اصبحت تسيطر عليه اغلبية من اليمين . كما يمكن القول أن محاربته للشيوعية لا تشبه محاربة « القوة الثالثة » لها ولا يمكن ابدا تلخيصها في مجرد ادانة الحزب الشيوعي الفرنسي . ويرجع السبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية الى انها لم تعد تعمل على تحرير الانسان كما كانت تدعي ، فقطع صلته بها اي انه قطع صلته بايدلوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه في نفس الوقت لم يتخل ابدا عن مبادئه الاساسية وظل محافظا عليها ومتمسكا بها .

وهكذا يبدو لنا أن افكاره في مرحلة الشباب لا تتناقض مع افكاره في مرحلة نضجه بل تكملها ومن ذلك تقول جانين موسوز « من وجهة نظر مالرو تبدو الديجولية في صورتها التي يشعر بها ويدافع عنها وكأنها تحقق ثلاثة مطالب هي الحرية والاخاء والسلطة (...) فالديجولية هي وحدها التي تسمح باقامة الحرية الحقيقية (...) وتعني الديجولية الاخاء ايضا (...) الاخاء بين المواطنين المتحدين والمتجمعين في صورة شعب واحد . واخيرا فالديجولية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة في المكانة الاولى على مسرح الاحداث ، وان السلطة التي تعطى لرجل هي الوحيدة التي يمكن ان تكفل حرية الافراد ، وهي الوحيدة التي يمكن ان تقدم المثل الاعلى الذي يجب أن تعمل من اجله كل الطاقات » (١٢١) اذا فقد بدت له الديجولية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظ على الاخاء بين أفراد الشعب الفرنسي ، وقد بدا ديجول لمالرو كالرجل الوحيد القادر على « اعادة بناء فرنسا » اذا فلم تكن الديجولية الا مسيرة الاخاء التي تجمع رجالا احرارا يقودهم قائد الى تحقيق هدف عظيم . اما في مرحلة كفاحة ضد الاستعمار والتي اثارت جدلا كبيرا فقد كان هدفه في الهند الصينية وفي كفاحة ضد الفاشية في فرنسا والمانيا وروسيا هو دائما خدمة قضية الحرية ، ولم يكن هدفه ابدا الدفاع عن العقائد المتطرفة التي كانت تسعى بكل قواها للسيطرة على العالم . اذ لم يعتنق مالرو ويتبنى الايدلوجية الماركسية وحول ذلك تقول جانين موسوز « لقد كان التزامه محددا بقيمة لمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدة الشيوعية التي كان ينتمي اليها بعض المناضلين » . (١٢٢) وعندما سافر الى برلين مع اندرية جيد André Gide بصفتهما مندوبين عن الحزب الشيوعي الفرنسي للدفاع عن ديمتروف لم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الانسان . وكذلك عندما سافر الى موسكو بعد سفره الى برلين ببضعة أشهر مدعوا من قبل مؤتمر الكتاب السوفييت لم تكن الكلمات التي القاها في هذه المناسبة تتضمن مديحا للنظام القائم في الاتحاد السوفييتي ، بل كانت تتضمن مطالبة عنيدة مصرة بالحرية .

---

(١٢٠) PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques........p. 110

(١٢١) Mossuz (j.) op.cit., pp. 244-245

(١٢٢) Ibid, p. 246

سوف تبقى الحرية دائما بالنسبة لمالروحها معبرا ونبيلا لا يمكن ان يمحى باى حال من الاحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدباء وهذا النوع من الحرية غير موجود فى الاتحاد السوفييتى . فالفن مثلا خاضع للنظام الستالينى وعندما يضطر الفنانون ان يصمتوا على مضض أو يخضعوا للقوانين القاتلة خوفا من الهلاك تجد ان مالرو يثور باسم الحرية .

وهكذا نرى لزاما علينا الا نشوه او نتجاهل الدافع الانسانى والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المميز لالتزامه السياسى ، وسوف يجد هذا الالتزام ضالته المنشودة فى الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جانين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٣) ويبدو وكأنه وجد أخيرا « نجمه الثابت » الذى كان يبحث عنه وهو الجنرال ديجول . وبناء على ذلك فاذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن ان ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف فى خط سير فكره السياسى ، فقد كانت الديجولية كما اتضح لنا تلبية لمطالب مالرو الأساسية والمستمرة وهى الحرية والاخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا ان نستخلص ان التزام اندريه مالرو السياسى بالديجولية لم يكن دليلا على الاخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا ايضا ان نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مالرو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر او سنوات طارئة فى حياته بل اعتنق والتزم الديجولية كنهاية لمطافه الفكرى والسياسى ، وعندما وجد فيها بغيته نجد انه تحمل بشجاعة

مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا فى الحكم الديجولى . ولكى يجعل هذا الحكم الحبيب الى نفسه فعالا وحتى تجعل الديجولية من المطالب الاساسية الثلاثة الحرية والاخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزاما على مالرو ان يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مالرو يناضل على الدوام فى جميع مراحل حياته من اجل قضية نبيلة كانت لها أهمية اساسية فى نظره وهى قضية الانسان . ونجد هذا واضحا فى التصريح الذى أدلى به فى عام ١٩٤٦ حيث قال « ان المسألة التى تطرح نفسها علينا الآن هى معرفة ما اذا كان الانسان قد مات أم لا على هذه الارض القديمة اوروبا . . . ان الانسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الاجابة على ما اراد ان يفعل وليس فقط مايريد ان يفعل بل ايضا على ما يعتقد انها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول ان مسيرة مالرو الفكرية والسياسية لم تكن الا محاولة منه للاجابة على هذا السؤال .

• • •

اخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبلغ من ان نسوق للقارئ عبارة لجانين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من ان تحول مالرو من الشيوعية للديجولية ، لم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فتقول « ان الديجولية التى انضم اليها القوية مالرو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتغير الا وهو ايجاد الانسان الحر فى عالم الاخاء . لقد اتخذت محاولات مالرو صورا مختلفة وبدت احيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى ارادة الاكتشاف عنده » (١٢٥) .

---

(١٢٣) Mossuz (j.) op.cit., p. 273

(١٢٤) Ibid, p. 286

(١٢٥) Mossuz (j.) op.cit., p. 287

قائمة باسماء المراجع التي ورد ذكرها في البحث

I. Oeuvres de MALRAUK : — اولا ـ اعمال مالرو

1. **Les Conquérants,** Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
2. **La Condition Humaine,** Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)
3. **L'Espoir,** Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
4. **La lutte avect l'Ange,** I-Les Noyers de l'Altenburg, Editions du Haut Pays 1943
5. **Antimémoires,** Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
6. **Les Chênes qu'on abat,** Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.
7. **Oraisons Funébres,** Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

II. Etudes consacrées à Malarux : — ثانيا ـ ابحاث عن مالرو

1. Biosdeffre (Pierre de), André MALRAUX, Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XXèmesiècle)
2. Gaillard (Pol) André MALRAUX, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
3. Id. ; **l'Espoir de Malraux,** Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)
4. Id. **Les critiques de notre temps et Malraux,** Paris, Garnier, 1970, 191 pages, Cette ouvrage comprend des articles de :
   —Berl (Emmanuel) : **L'Intellectuel et La Révolution.**
   —MAURIAC (Francois) **Le Romantisme au pouvoir.**
   —Picon (Gaetan) **La Rupture avec le Communisme.**
   —Bor (Claude) **Le Marxisme de Malraux.**
   —Stéphane (Roger) **Les silences de Malraux.**
   —Trotsky (Léon) **La Révolution Etranglée.**
5. —Harris (G.T.), **André Malraux, L'Ethique comme fonction de l'Esthétique,** Paris, Minard, 1972, 153 pages.
6. —Mossuz (Janine) **André Malaurax et le Gaullisme, Paris,** Armand Colin, 1970 313 p.
7. —Picon (Gaetan) **Malraux par lui-même,** Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages
8. —Id. **André Malraux,** Paris, Gallinard, 1945, 127 pages.

چوزين جودت عثمان

مالرو، سنجور وحضارة الانسان

اندريه مالرو ، وليوبولد سيدار سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التى تربط بين هذين الاسمين ، وما مدى اوجه الشبه او الاختلاف بين اديبين يتمتعان بمكانة خاصة فى تاريخ الفكر المعاصر .

فالى اى حد تصل المقارنة بين اندريه مالرو وليوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على النقيض فى اول وهلة . فقد يبدو من العجيب ان نتحدث عن نقاط الالتقاء او حتى مجرد التشابه بين مؤلف « **القدر الانســـانى** » (١) اى مالرو وبين مؤلف « **اغانى الظلال** » (٢) اي سنجور .

ذلك ان مالرو كاتب فرنسى بمعنى انه اوروبى ، اما ليوبولد سنجور فهو شاعر افريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما اكثر من عنصر ، ممايجعل المقارنة بينهما هامة ومثمرة ، الأمر الذى سنتناوله فى بحثنا هذا .

(١) La Condition Humaine
(٢) Chants d'Ombre

لم تتح للكثير من الناس فى التاريخ ـ تلك الفرصة التى يتحدث عنها الشاعر الفرنسى « شارل بودلير » الا وهي : « ان يعيش المرء حياة يقترن فيها العمل بالخيال » .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل فى حياة وانتاج مالرو ، كما اقترنا فى حياة وانتاج سنجور **وهناك اكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكـرى ايديولوجى** (Ideologique) **ولقاء فنى استيتيكى** (Esthetique) **واخيرا لقاء اخلاقي روحي** (Ethique) .

١ ـ **الالتقاء الذهنى الفكرى :** الذى يرتكز على الايمان المطلق بافريقيا الغد ، والاعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديجول .

٢ ـ **الالتقاء الفنى الاستيتيكى :** الذى يقوم على مفهوم معين للفن ، الا وهو اصدق وسيلة لتحقيق الذات للنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفنى عند مالرو اساسا هى : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هى : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتى من ان كل عمل فنى هو خلود للانسانية ووسيلة مقدسة لقهر عقبات القدر وانطلاق الانسان .

٣ ـ **الالتقاء الروحى الاخلاقى :** الذى يتلخص فى موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للانسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الارتباط الاخوى ، والانتماء الى الجماعة التى تعيش فيها ، والاعتقاد فى ضرورة مزج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهى الحضارة الانسانوية (٣) . فالحضارة فى المجتمع المعاصر لا يمكن أن تكون الا حضارة قائمة على مزج الحضارات المختلفة للانسان عبر العصور المختلفة وعبر الاجناس والاديان والقارات ، مما يؤدى بالضرورة الى ايجاد موقف اخلاقى معين يسلكه الانسان اينما كان تجاه اخيه الانسان فى اى مكان وزمان .

• • •

١ ـ **الالتقاء الايديولوجى :**

« ان المـرء ليس ما يخفى وانما المرء مـا يفعل » .

تلك العبارة وردت على لسان « فانسات برجيه » (Vincent Betger) بطل قصة مالرو **« اشجار الجوز فى الالتنبيرج »** (٤) ويقصد مالرو بهذه العبارة ، اى بلفظة « الفعل » : اقدام المرء

---

(٣) كلمة الانسانوية Humanisme توضح وتميز معنى اعتبار الانسان ركنا رئيسيا فى الفلسفة وهى ـ تختلف عن كلمة الانسانية (Humainite) التى استعملها معظم المترجمين ونحن متفقون مع الدكتور محمد غلاب استاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه عن علاقة الاسلام بالثقافة والانسانوية فى عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الاسلام » (دار الشعب) .

(٤) Les Noyers de l'Altenburg

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مالرو هو الذى يحدد الانسان تماما ويميزه عن غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مالرو الذى مارسه فعلا فى حياته كما مارسه فى انتاجه .

ان حياة مالرو معروفة للجميع ، كما تعرف ايضا نشاطه السياسى وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الـذى لعبه هذا الكاتب الديجولى فى المقاومة الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية .

واذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبل الاربعينات رأينا : مالرو شابا فتيا اى فى الثالثة والعشرين من عمره ، يكثر من رحلاته الى الشرق الاقصى وينظم حـركات تضامنية تحررية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « انام الفتية » فبلاد الانام هذه ـ وهى جزء من الهند الصينية ـ كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مالرو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به فى اعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته ان تلك الحياة ما هى الا استجابة لاحداث توالت عليه . كما ان انتاجه الفنى مـا هـو الا تلبية لنداءات ومحاولة اجابة عن تساؤلات فى فترة تتميز بكثرة الاحداث الفنية والسياسية التى اشترك فيها بالعمل وبطريقة ايجابية . فحياة مالرو كما يعلم الكثير منا ـ تعتبر مسيرة من تاريخ سياسى الى تاريخ الابداع الفنى ، والانتاجه الفنى ما هو الا لقاء الانسان بالقدر . بمعنى ان كل ما كتبه الفرنسى مالرو هـو تعبير حقيقى وفعلى نتج عن موقفه وفعله تجاه الاحداث التى طرحها عليه القدر . واعمال مالرو الادبية تحليل شغوف للمصـــير البشرى الذى طالما راود فكره فكتب منه الكثير ، ولا نكون مغالين لو قلنا انه كتبه .

ايمكن ان ننسى انـه مـؤلف « القـــدر الانـــانى » .

ودور مالرو الـذى لعبه بجانب الوطنيين الاسبان فى المقاومة الاسبانية يظهر لنا بجلاء فى بعض اعماله الادبية خاصة روايته « **الامل** » (٥) .

واخيرا لا يقل نشاط مالرو فى المجال الثقافى والفنى البحث عن دورة فى المجال النضالى .

فاعمال مالرو الفنية تكاد تكون لا حصر لها . ونذكر منها اهمها : ـ

ـ اللامذكرات : (٦) .

ـ الحبل والفيران : (٧) .

---

(٥) L'Espoir

(٦) Les Antimemoires

(٧) La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tele déObsidienne Lazare

ـ الذى يتجزا الى : ـ

ـ زوار ماريق .

ـ اشجار الزان التى تقطعها .

ـ راس السبج البللورية .

ـ عــازر .

ـ مرثيــات (٨) .

ـ اغراء الغرب (٩) .

ـ عطارد (ساتورن او بحث عن الرسامجويــا) (١٠) .

ـ اصوات الصمت (١١)

ـ المتحف الخيالى (ويشمل عدة اعمال فىالفنون التشكيلية) (١٢)

ـ تحول الآلهه (١٣)ويشـمل : مابعد الطبيعة

ـ اللاواقعيــة (١٤) .

ـ اللازمــنى (١٥) .

وفضلا من كل هذه الأعمال فهناك نشاطملحوظ ومستمر لمالرو فى المجال الثقافى نفسه ، فما اكثر ما كتبه من ابحاث ومقالات ومحاضراتعن مفهوم الثقافة ودلالتها ودورهـا فى حضارة القرن العشرين ، ومايمكن ان تقوم به من دورخطير فى تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ **فالانسان فى مفهوم مالرو انسان** شامل متكامل ومزيج منمختلف حضارات البشر .

وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر القارة السوداءليوبولد سنجور ، **ومفهومه عن الثقافة والانسان .**

وليوبولد سيدار سنجور وان كان غنيا عنالتعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر اولا وقبل ان يكون سياسيا ناجحا وزعيما مناضلا . فرئيسجمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

---

(٨) Oraisons funebres

(٩) La Teutation de l'occident

(١٠) Saturne (Essai sur Goya)

(١١) Les Voix du silence

(١٢) Le Music Imaginaire

(١٣) La Mitamorphose de Dieux

(١٤) L'Fuiel

(١٥) L'Intemporel

(١٦) ولد ليوبولد سيدار سنجور يوم ٩ اكتوبر منعام ١٩٠٦ فى قرية « جوال » على بعد حوالى مائة كيلو متر من جنوب العاصمة السنغالية داكار . وبعد ان حصل علىشهادة الاجريجاسيون من باريس بدا حركة نضال من اجل استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسى واستقلال دول افريقياكما ناضل من اجل مكانة الرجل الاسود فى العالم المعاصر وخلق هو ورفيق نضاله وفكره الشاعر المارتينيكي ايمـى سيزير ـ مفهوم « الزنوجية Negritude » كما اشترك سنجور اثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومةالفرنسية ضد الغزو النازى .

تحرير بلاده واستقلالها الذى نالـه عـام ١٩٦١ وانما كرس كل جهوده فى تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث (Negre Nouveau) الذىهو اساسا عضو هـام فى المجتمع المعاصر فهـو يشغل مكانة لها اهميتها فى الانسانية الحديثـة حيث الانسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السـوداء .

وبعبارة ادق فالانسـان الجديد فى مفهوم سنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذى يضعف وتتلاشى فيه قيم ومعان حضارية بدات تضمحل تحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثـة تطعيمه بدم الرجل الاسود ،دم القارة الفتية الذي سيحيي البشرية بقيمه وتراثه الحضارى الاصيل .

يجوز لنا ان نقول عن مالرو كما نقول عن سنجور أن كليهما « شاعر » مناضل وفنان مؤمن بالانسـان كما سنرى فى بحثنا هذا . فلا عجب فى أن نرى مالرو يكتب اول ماكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكعيبى »(١٧) ، ولا عجب ايضا ان نرى الشاعر الأسود يعمل بالمقاومة ويناضل طول حياته من اجـل استقلال الشعوب السـوداء فكل مافعل وماكتب محوره هو تكامل الحضارات والأجناس واحياءامجاد وتراث الجنس الأسود عن طريق استرداد الرجل الأسود لمكانته الحقيقية فى المجتمع المعاصر. كل هذا يظهر ويتلخص فى شعر سنجور فى فكرة العودة الى الوطن الأم ــ (افريقيا) .

ولكن الذى يقرن أعمال سنجور باعمـال مالرو عاملان : ــ

اولهما : نظريـة تكامل الحضارات ومزج الأجناس لخلق الأنسان من جديد .

وثانيهما : ايمانهما برسـالة الفن كعنصر اساسي يرتكز عليه المجتمع .

فان سنجور عندما يتحـدث عن تجربته الشخصية يتغنى ايضا بكل آمال وطموح وآلام ابناء جنسـه ، وبالتالي فهو يعبر بصدق من تجربة حقيقية تعرض لها : الا وهي بحث الانسان عن ذاته وعن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيم الحضارية الاصيلة ، وهذا فعلا ــ كما سوف نرى ــ مايصبو اليه مالرو من خلال تجاربـه فى الفن والسياسـة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسالته الحضارية القيمة كعنصر اساسي يرتكز عليه مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيم الثقافية العريقة التى تخلق الأنسان ، بمعنى ان الانسان هو الذى يسيطر على العالم ولا يخضع لسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة فى المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الأليمة على مالرو وعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بمجتمع السلام والبناء والقيم الحضارية بدلا من مجتمعات الخراب والدمـار واستغلال الشعوب بعضها البعض نتيجة لهذه الايديولوجيات المزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة، ودكتاتورية تتحكم فى مصير البشرية جمعاء وتذيقهم المهانـة والذل فتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الملامح

---

(١٧) Des origines de la poesie cubiste

الانسانية . ويؤكد مؤلف « اللامذكرات » هـذه الحقيقة فى احدى مقالاته وذلك عندما يطرح بجدية هذا السؤال : « ماهو الفن » ؟

فان السؤال الثاني يأتي على الفور الا وهو : « ماهو الانسان » ؟

فمفهوم الفن اذن عنـد مالرو هو تعريف للانسان ، ودلالة على كيانه البشرى الذى يصنع القدر ويتمرد عليه حينما يخالف معاييره ومقاييسه وطموحه لتحقيق ذاته .

الفن اذن ليس خضوعا للقدر ولكن بفضله يتغلب الانسان على القدر وعلى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقا لطموحه وآماله ، وبذلك يصبح هذا الفن السلاح المقدس الذى يغزو به الانسان العالم وان لم يستطع الغزو الفعلى المادى الملموس فعلى الاقل يتحرر من الاغلال والقيود والسيطرة ايا كانت ، وينطلق انطلاقة الحرية معبرا عن ذاته فى اعمق اعماقها ؛ وماعمل سنجور الشعرى الا صرخة انطلاق .

• • •

لقد كانت اول مقابلة بين مالرو وسنجور فى بداية عام ١٩٦٦ وفى مدينة داكار بالسنغال وقد ترك هذا اللقاء فى نفس مالرو انطباعا عن شخصية سنجور وعن افريقيا عامة ، اوضحه مالرو نفسه فى مذكراته حيث يقول فى احداهما : (١٨) .

« داكار مارس سنة ١٩٦٦ .

قدم الرئيس ليبولد سنجور ، رئيس جمهورية السنغال فى داكار الم مجموعة من النحت الافريقي الموجود فى افريقيا ، وهي تتكون من ستمائة قطعة .

وهناك ايضا قالب القناع الشهير الذى يظهر الفن الافريقي لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولفنانين كثيرين غيرهم . وقد اقيم المعرض فى المتحف الجديد المصنوع من الزجاج والصلب الذى اتم الرئيس بناءه مؤخرا .

ولقد ذهبت امس الى المعرض لانني اعرف بالخبرة انه لايمكن رؤية شيء اثناء الافتتاح ولا اعتقد انني شعرت يوما الى هذا الحد بمدى تحول الآلهة حتى عندما كنت اعمل فى المتحف الخيالى للنحت ؛ ان متحفنا هذا للانسان وماهو الا معرض لعلم الاجناس وفيه تقص الآلهه لبعضها البعض قصة الوهيتهم وعلى بعد بضعة كيلو مترات من هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهي تتميز بالاكواخ المخروطية الشكل .

---

(١٨) زوار عابرين Hotes de passage

(١٩) رسام فرنسي ١٨٨٠ ــ ١٩٥٤ (Deraiu) .

(٢٠) رسام فرنسى ١٨٧٦ ــ ١٩٥٨ (Vlaminck) .

ولاتصبح الالهة ابدا تماثيل بهذه الدرجةالاخاذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا عن ذلك يكونون عادة من الاجداد ، ان للغرب قدسيةوللصين موتاها اما افريقيا فلها اصنامها ؛ وقد اشتركت منذ بضع سنوات فى احتفالات تحريرالسنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديجول التحرر لبلاد افريقيا الاستوائية القديمةمن السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية افريقيا الوسطى ،الكنغو ، وجابون ، وقد كانت افريقيا الاستوائية هي افريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف كونراد ـ وهي ايضا الادغال ترصد للمواسم . وفى تشاد ... فى فور لامى عند رحيل ليكلارك كان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم اصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ،وعندما اردنا الرئيس تومبالباى وأنا الذهاب من قصره الى عربته الكاديلاك وطولها ٢٠ مترا ، كان علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا اجسادهم باللون الازرق ، وفى الميدان الكبير كان ـ هناك عشرة آلاف من المنتمين الى القبائل تهزهم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية ـ ماأعجب هذا التناقض بين افريقيا الماضى وافريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ماقبل التاريخ وافريقيا الابتهالية التي رايتهامن الطائرة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام فى وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالامس كانت كلمة تشاد تعني بعض الوظائف المتناثرة فى عزلة الصحراء البعيدة ، اما الآن فتشاد تعنى كل هذه الجموع التى لا ادرى من اين اتت . ويبدو لى هنا فى افريقيا الظاهرة نفسها التى شاهدتها فى آسيا من قبل فمن اى سافانابرزت هذه الجموع التى منذ الآن وصاعدا تبدو كأنها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباى ان يقيم دولة من هؤلاء الراقصين ، المطلية اجسامهم باللون الازرق، وحاملى الاقنعة والفرسان الكارولنجيين(٢١) أسلام افريقيا السوداءووثنيتها وعلى امتداد الطريق من داكار الى برازافيل ترتفع المبانى الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تعلو الرقص العريق وتعد الامم الصاخبة بقيام الدولة ...

... كان رفاقى يرقبون انزال علم فرنسا ورفع علم تشاد بغضب مالوف لم اشاركهم فيه . فقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة ١٩٢٥ بدافع من كراهيتى للاستعمار الذى عرفته فى الهند الصينية .

احد المحافظين الفرنسيين الذين حكمواتشاد فى الآونة الأخيرة ويدعى مارسيل دوكوبيت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « اندرية جيد »لزيارة تشاد . وتكفينى هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع ان تعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى ؛»ويرجع

---

(٢١) الكارولنجيين : الجيل الثانى لملوك فرنسا الذى يستمد اسمه من شارلمان وقد حكموا من ٧٥١ ـ ٩٨٧ .

لنا الفضل نحن الديجوليين فى ان كل هذه الاعلام القومية ترفرف على سماء افريقيا فقد نفذنا ماوعد به عبثا خصومنا منذ أمد طويل ، واذا كان اسلافنا قد انبهروا بالامبراطوريات فقد انبهرت أنا بالمغامرة التى قادتنا الى الميادين الافريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون المطلية اجسادهم ، قادتنا ايضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدى الرجال السود بعضهم البعض أمام المتفرجات المنبهرات فى زيهن القومى كما يحدث فى قرطاجنة (٢٢) . .

فكما رأينا بادىء ذى بدء هناك لقاء اندريه مالرو بافريقيا السوداء فمالرو تعلم ان يكتشف افريقيا من خلال زياراته لها .

« فبين الزيارة البروتوكولية للرئيس سنجور وبين افتتاح متحف الفنون الزنجية بداكار، ذهبت الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ امد بعيد ، ربما بسبب تغنى سنجور بهذه المنطقة التى تعرف بمنطقة الجزر » (٢٣) .

• • •

وفعلا هناك قصائد عديدة للشاعر الاسود تغنى فيها بجنوب السنغال اى الكازامانس . تلك المنطقة الشبه استوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة، وخاصة غابات ـ النخيل الذى هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المقتطفات من ديوان « حبشيات » وعنوان القصيدة « رسائل الى الاميرة ـ الماركيزة دانييل دى بيتفيل » (٢٤) :

« وصلتنى رسائلك يا أميرتى ، فى قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الأجداد القدامى . . . » .

ولكننا لانستطيع ان نتحدث عما كتبه سنجور عن افريقيا ، لان كل ماكتبه سنجور هو افريقيا ، فهى الامل والحلم والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومه والانوثة والحب فى مؤلفات شاعر افريقيا الأسود .

ويستطرد مالرو حديثه قائلا عن القارة الشابة العريقة : ـ

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمناظرها الخلابة : جزيرة جوريه التى توحى بأجمل اللوحات الفنية ، وتوحى بشهامة الماركيز دى بوفلير (٢٥) ومغامراته العاطفية العديدة ، والنساء اى سيدات المجتمع « السنيار » (٢٦) بملابسهن

---

(٢٢) زوار عابرين : Hotes de passage

(٢٣) زوار عابرين

(٢٤) والدة زوجة الرئيس سنجور .

(٢٥) الماركيز دى بوفلير كان فارسا فى القرن السابع عشر عين حاكما بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام داكار فى المحيط الاطلسى وهى مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى اوروبا وامريكا .

(٢٦) السنيار : كلمة تأتى من اللغة البرتغالية بمعنى سيدة من طبقة عالية .

الراهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية المنعش كان يهنف على ليل افريقيا .... » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا في قصائد سنجور الا وهي « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : ـ

« جـوال » :

انني مازلت اذكر ....

مازلت اذكر السيدات السينار في ظلال الشرفات الخضراء ، السينار ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطيء ... » (٢٨).

وعندما يتأمل مالرو من بعيد منظر جزيرة جورية هذه التي تطل على شواطيء داكار فهو يتذكر بالاخرى كل ماكتبه سنجور عن تلك المنطقة، فنافذة الشاعر في مكتب قصره بداكار تطل على نفس المنظر ، وكم من مرة نظر الشاعر واستلهم اجمل ماكتب من تلك المناظر الأخاذة ...

ويحقق مالرو النظر لعله يعيش ثانية هذا العهد الذي انطوى مع قرون مضت والذي طالما تحدث عنه سنجور واثر على مالرو حتى اصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خلال ما كتبه .

وترد على خاطره صور السيدات الجميلات بأطرافهن الناعمة التي تتألق تحت ظلال الخضرة الوارفة والورود الحمراء ، بملابسهن الهفهافة الرقيقة ... ولكنه لايسرح بخياله فقط وانما يعايش ايضا من خلال اعمال سنجور واقع السنغال الحالي، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال عن الشاطيء والغابة والبئر والقرية والتحضر والتأخر (اذا جاز لنا هذا التعبير بمعنى المنظر التلقيدى للبلاد) فيعجب مالرو بالطقوس والعادات ـ والتقاليد في نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذي لم يعد له سوى دور رومانى ، ومن ملوك القبائل الذين يجتازون كل انواع التحديات حتى يفوزوا عن جدارة بمناصبهم ... فمثلا يضرب حتى الموت ، فان نجح في الصمود يصبح ملكا ، اى ان هناك قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام مازالت حية وقوية في ادغال القارة السوداء تسترعي انتباه مالرو بل تثير اعجابه وتقديره .

• • •

وقصة لقاء سنجور ومالرو ترجع الى امدبعيد ، ولكن الالتقاء هو اعمق ، وطالما وجد في فكر وعمل كل من الكاتبين . فما اكثر لقاءات سنجور بمالرو الفعلية ولعل اهمها هو اولها ، حضور اندريه مالرو لافريقيا السوداء من اجل افتتاح اول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيم في داكار عاصمة السنغال في سنة ١٩٦٦ بمناسبة اعياد استقلال السنغال .

---

(٢٧) الرأس الاخضر : رأس من الارض ممتدة في المحيط الاطلسى في منطقة داكار .

(٢٨) من اغاني الظلال .

ويجب ان نتوقف لحظة عند هذه العبارة الاخيرة اى استقلال السنغال .

فقد يتساءل القارىء ، وماعلاقة هذا بذلك ؟اى ماعلاقة استقلال السنغال باندريه مالرو ؟

الواقع ان هناك علاقة وثيقة بين الثقافة ورجل النضال اندرية مالرو فى عهد شارل ديجول وبين مولد دولة ناشئة فى افريقيا السوداء السنغال فربطت نفس المبادىء بين قارتين متناقضتين فى الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك الا وهى اوروبا وافريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثير من اجل بلاده : شارل ديجول وعلاقة مالرو بالجنرال شارل ديجول لاتخفى على احد ؛ والدور الذى لعبه مالرو سواء فى الكفاح مع ديجول فى احياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، اوكوزير لديجول فى المجال الثقافى ، فكان اندرية مالرو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضارات وتقوية الصداقة والاخوة بين مختلف الاجناس والشعوب .

فما من احد لايعلم الكثير عن وطنية الجنرال ديجول ومافعله من اجل احياء فرنسا الممزقة المهزومة فى مستهل الحرب العالمية الثانية ضد الالمان ؛ ومامن احد يمكنه ان يتجاهل الدور البطولى الذى قام به ديجول فى صنع فرنسا الحديثة ، ومامن احد من قراء مالرو يمكنه ان ينسى ما فعله مالرو ، وكاتب الامل واشجار الجوز بالالتنبرج فى هذه الحرب الشعواء التى طالما مزقت وهددت كيان اوروبا وتسببت فى قيام حركات النضال من اجل استرداد الحرية على الصعيد السياسي فكانت حرب المقاومة ، كما كانت كانت سببا ايضا فى قيام حركة فكر واسعة الابعاد عنها نشأت فلسفة العبث مثلا على ايدي البير كامو واندرية مالرو وآخرين .

وعلى ذكر العبث ، فمن العبث فعلا ان تتجاهل فرنسا فى الثلاثينات ومابعدها حقوق الشعوب السوداء فى الحرية والاستقلال فى تقدير سنجور .

ففرنسا بلد الحرية التى طالما كافحت من اجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك على حد تعبير ديجول ومالرو نفسه حتمية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التي تحمل مشعل الحرية ان تترك لبلاد افريقيا السوداء حق تقرير المصير ؛ ولذا ايضا وعلى يد شارل ديجول كان اللقاء التاريخي بين سنجور وديجول الذي اثمر عن استقلال السنغال .

اما اعجاب الرئيس الشاعر سنجور بديجول فيمكن ان نلخصها من خلال رؤية لشخصية ديجول نفسه والذى أطلق عليه الشاعر الاسود اسم « الجيلوار » اى الفارس الهمام باحدى اللغات السائدة فى السنغال وهى الولوف .

وترجع قصة سنجور مع ديجول الى عهد الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور كجندى فى الجيش الثاني للفرق الاجنبية التي كانت تحت اللواء الفرنسى ضد الالمان ، واصبح الشاعر اسير حرب فى معسكر مدينة اميان بفرنسا لمدة ثلاث سنوات تقريبا ذاق خلالها الوانا من العذاب هو وامثاله من الرجال السود الذين على حد تعبير سنجور نفسه « قدموا انفسهم قربانا لكى تعيش

فرنسا » . وكان هذا الموقف ينجم عن اعجاب سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فبينما رفضت قوات ساحل العاج ان تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجنودها ودماء ابنائها الشهداء الذين يصفهم سنجور في ديوانه « القرابين السود الذى ظهر فى عام ١٩٤٨ فى قصيدته المعنونه : » Assassinats على هذا النحو : ـ

« هاهم ممددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثه .

هؤلاء ، أشجار الحور المشوقه .

تماثيل الآلهة السوداء ملتفين بغلاف براق من الذهب .
هؤلاء شباب السنغال الاسرى الممددون تحت تراب ارض فرنسا ...... »

كتبت هذه القصيدة فى معتقل رقم ٢٢٠ اثناء الحرب العالمية الثانية حيث أسر سنجور مع رفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان فى الازمات والشدائد يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكل يقف وقفة واحدة ويدا واحدة فى مواجهة الصعاب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا فى موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول فى قصيدته الشهيرة « الى الجيلوار » التى كتبها فى معتقل اميان فى عام ١٩٤٠ وهى استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنسا مقابل وعد منه لتحرير بعض دول افريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسى الشيء الذى تم فعلا فى حضور مالرو نفسه ! .
« جيلوار » ! (٢٩)

لقد انصتنا اليك ، واستمعنا اليك باذن قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا فى قلب ليل السجن الذى نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الغاب وكم انتفضنا حرارة واستجابة فى ذل السجن ومهانته ! .

اننا كصغار العصافير الذين سقطوا من عشهم ، اجساد محرومة من الأمل تتعرض للأذى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطوعة الأظافر ، جنود بغير سلاح رجال عراة .

وها نحن نتخبط ونتوه كالضرير الذى لا يجد الأيدى التى تساعده .

اشرف الاشراف قد ماتوا : لأنهم لم يقدروا على ابتلاع خبز العار فى الأسر .

---

(٢٩) كلمة الجيلوار : وهى باحدى اللغات اللوميقى السنغال تعنى الفارس المقدام الهمام الذى اشتهر فى حضارة افريقيا السوداء باصالته وشهامته فى الحرب وفى حماية المرأة والطفل والشيخ وهو الفارس المغوار الذى يتمثل به كل شاب فى القبيلة والعشيرة ويتمنى ان يصل الى مرتبته فى الشجاعة والكرم ونبل الاخلاق .

وها نحن واقعون فى الفخ ، فى قبضة بدوحشية نبدو فيها كالحشرات ، فالمجد للعربات المصفحة والدبابات وقنابل الطائرات ! .

لقد بحثنا عن مأوى ، عن سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن رفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع ان نتعرف على فرنسا .

وصرخنا لليل الافنا ، ولكن ما من صوت اجابنا . أسياد الكنيسة قد التزموا بالصمت واسياد الدول قد اشادوا بعظمة الضياع الحقير .

هل هذا هو وقت الزنوج ؟! اهذا وقت الرجال ؟! : لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى اوروبا ! .

جيلوار !

ان صوتك ينطق بالشرف والأمل والنضال ، وترفرف أجنحته فى اعماق صدورنا .

ان صوتك سيعلن لنا الجمهورية التى سوف نشيدها فى مدينة المستقبل فى اليوم الأزرق . فى مساواة الشعوب الشقيقة وعندئذ نرد عليك :

« نعم يا جيلوار ! ها نحن بجوارك ونحن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر أصدق تعبير عن اعجاب سنجور بديجول وعن موقفه كصديق وكأخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشى ، دنس ارض الوطن الحبيب .

فالصديق لا بد ان يسعف صديقه فى وقت الشدة . ولعل اصدق مثال على ذلك هذا البيت من شعر شوقى فى قصيدته « دمشق »

« كلنا فى الهم شرق » !

وهكذا سمع ديجول النداء ووفى بوعده وتحررت السنغال وعلى ايدى مالرو نفسه !

ولكن اعجاب مالرو لافريقيا لا يقف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شديد الاعجاب بتراثها الفنى السخى المعبر ، وبذا تصل الى نقطة اساسية تجمع بين سنجور ومالرو ، اى الالتقاء الاستيتيكى (الفنى) :

• • •

٢ ـ الالتقاء الاستيتيكى :

كثيرا ما يتعرض مالرو لامر يزعجه الى حد كبير ، فهو يرى ان الفن فى المجتمع المعاصر اصبح ذهنيا ، اى اننا عندما نرى فى اى متحف اى تحفة فنية نراها باعيننا فقط ونقيسها

بمقاييسها الجمالية التى اعتدناها واتخذناهامعايير لقوانين الجمال ، ولكن اين معناها الحقيقى ! اين جوهرها الذى يتضمن المعانى العميقة ، والفلسفة دينية كانت او روحانية التى من اجلها خلقت هذه التحفة ! .

ان الامر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائى او الفن فى اقصى الشرق والحضارات القديمة وافريقيا السوداء ، حيث ان الفن كما يشرحه سنجور ما هو الا تعبير عن ذات الانسان البدائى بغض النظر عن المعايير الجمالية والمقاييس الاستيتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفنى من خلال رؤيته هو للواقع ، فالفن عبادة وتعبير وليس اداة جمالية وانما اداة الوصول الى المقدسات وعالم الارواح والاتصال بالعالم العلوى . وعلى هذا الاساس فالعمل الفنى مثل القناع او التمثال او الاصنام او اى تيمة من هذا القبيل انما هو فى حد ذاته تعبير واتصال روحانى مع الآلهة والاسلاف والاجداد ومن ثم فصانع التيمة او القناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية او معايير استيتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معانى ورموزا معينة تعبر عن فلسفة محددة ومفاهيم معينة لاناس ينتمون الى قبيلة او عشيرة لها معتقداتها ومقدساتها ، وبالتالى فان هذا العمل الفنى يعبر عن مشاعرهم تجاه تلك المقدسات والمعتقدات ويجسد افكارهم واحاسيسهم .

والفن فى افريقيا السوداء كما يقول سنجور ملتزم ، بمعنى انه لا يوجد هناك فن جمالى بالمعنى المألوف . ولكن الفن له شكل وظيفى اى انه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من اجل غرض معين وكل انسان فى القرية فنان ، وان كانت هناك درجات مهارة تتفاوت فى الاداء . ولكن اى شخص فى القبيلة يستطيع ان يخلق قطعة فنية او تمثالا او قناعا او يقوم برقصته ، لان المقصود من اداء العمل الفنى هو الاتصال بالاجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويحققون الامنية المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر عن طريق العمل الفنى نفسه ، فالفن اذن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل اى اعتبار آخر . فالزنجى يلمس ويحس العالم المحيط به عن طريق حواسه التى يعبر عنها فى كل عمل فنى .

وهنا يتقابل فكر مالرو بموقف سنجور الذى ما زال يعيش فعلا ما تمناه مالرو ، اى اعادة الابعاد المقدسة والمعانى العميقة لكل عمل فنى .

وهذا هو سر الصداقة والاعجاب الذى كان يربط مالرو بالرسام العالمى بابلو بيكاسو Picasso الذى يعتبر ايضا صديقا للشاعر ليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور ببيكاسو وطيدة وقديمة نذكر عنها هذه القصيدة المهداة لبيكاسو من ديوان « اغانى الظلال » وعنوانها « قناع زنجى ـ الى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هى هادئة فوق طهارة الرمال .

كومبا تام (٢٠) نائمة تستر نخيلة خضراء شعرها الاحمر وجبينها النحاسى

الجفن مغلق والحاجب والمقلة الى الابد .

(٢٠) كومباتام : ربة الجمال عند بعض قبائل السنغال

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداء الرقيقة اين منها الآن ابتسامة الأنثى المتواطئة الحنون ؟ .

ورقة الخد ، ورقة الذقن ينشدان توافق الخط والرسم في متحف

يا لك من رأس نحاسية كاملة يصقلها الزمن ،

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولا التجاعيد ولا علامات للدموع أو القبلات .

يالك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تتفرج بحنان حتى لاتثير شهوتي .

انني اعبدك يا جمال بعين « احادية الوتر »

• • •

اكتشف بيكاسو الفنون الزنجية في حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى **تشابها الى حد كبير بين اسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجية** . فلا يعتبر بيكاسو شديد الاحساس باشكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جمجمة الموتى » « عنكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس » و « جواد الموت » ونستطيع ان نرى هاتين الأخيرتين في لوحة بيكاسو المشهورة « جرنيكا » Guernica .

وبذلك فان اعمال بيكاسو تنادي عن المغارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدسة بادغال افريقيا التي تجذبنا بسبب مالا نعرفه عنها تماما مثل تماثيل الآلهة في مصر القديمة التي لم تعد بالنسبة الينا تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهة سومر التي لا نعتقد فيها الآن ، او آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الأقصى أو حتى القديسين الذين لم نعد ندعوهم ، او الأقنعة والاصنام التي لم تعد بالنسبة الينا ارواح الأجداد ، ان كل هذا الآن لا يحمل لنا المعاني نفسها التي كان يحملها لأولئك الذين ابتدعوه ، ولكن يكمن في كل عمل فني مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويسترعي اعجابنا .

وفن بيكاسو يتماشى بل يلتقي مع الفنون البدائية ، فبيكاسو يحيي تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه أساسا يحطم بفنه كل التقاليد ، ولا يعترف بان هناك شيئا يسمى استمرار اسلوب او مذهب . فيقول مالرو على لسان بيكاسو (٣١) :

« فليسقط الاسلوب ! هل كان لله اسلوب ؟ ان الله خلق القيثارة والكلب والقط والبوم واليمام ، مثلي . والفيل والحوت ، نعم ، ولكن الفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، اى خلق من العدم ، وها انا ايضا اخلق من العدم ، وخلق الله ايضا فن الرسم ، وانا ايضا » .

---

(٣١) « رأس السبج » ص ٢٥ Tete d'Obsidienne

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال فى الفنون الزنجية فان الخلق الفنى يأتى من أعمق أعماق اللاشعور ، وباطن الانسان بكل ما هو قريب منه اعتاد عليه والفه ، وبكل ما هو غريب يجهله الانسان ، ومن هنا يأتى الشعور بشىء مالا نعرفه ، او بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول ان تملأه بمعتقدات او تقاليد او مقاييس ولكن بقى هذا الفراغ الروحانى فى القرن العشرين بل تزايد . فبينما ناشد الفن الكلاسيكى سعادة الانسان فى الطبيعة والتوازن بين المرء والأشياء وجمال الكون ونظامه ، وبينما ناشد الفن المسيحى عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ، نرى الفن فى القرن العشرين يحث الانسان على التمرد على الاوضاع وتدمير المعتقدات الزائفة والتقاليد الخانقة ويدعوه الى التعبير الصادق لما يعرفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد بالحرب والدمار فى عالم دون معونة الله .

ولعل سر اجمل عمل فنى هو قابليته للتغيير ، بمعنى ان كل واحد يرى فيه شيئا يختلف عما يراه الاخر . وكل مذهب او مدرسة فنية تكتشف فيه ابعادا جديدة واسرارا جمالية او فلسفية اخرى ، قد تتعارض مع الاكتشافات السالفة ولكن يستمر العمل الفنى ويفرض نفسه فرضا على الزمن وعلى المفاهيم والنظريات المختلفة التى تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتالى فهو قائم بذاته مستقل عن الذى خلقه وعن الذين يشاهدونه عبر الاجيال والعصور .

ويضرب مالرو امثالا عديدة فى هذا الشأن نذكر منها الآتى : —

ان **الرسام العالمى** « رامبراندت » (٣٢) مثلا لم يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوخ » (٣٣) لم يعد يفهم بنفس الطريقة التى كان يفهم بها ويقيم فى **زمن دولا كروا (٣٤) اذ ان دولا كاروا** كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التى كان هو نفسه متأثرا بها ، اما فان جوخ فقد رأى فيه كل عناصر المدرسة التأثيرية التى ينتمي هو نفسه اليها .

ويعتقد مالرو ان ميزة الفن الحديث انه لا يحاكى الطبيعة ولا يسرد ولا يحكى مثل الفن الكلاسيكى او الرومانسى ، وانما هو يحطم الشكل المألوف ويعبر عن رؤيته الخاصة للعالم الخارجى ولاحاسيس الفنان شخصيا ، ومن هنا يلتقى بالفن البدائى ، فالفن الحديث حطم الشكل التقليدى وخلق لنفسه معايير شخصية للابداع الفنى ، مثلما هو الحال فى فن بيكاسو مثلا . وكما هو مبين فى نفس اللوحة التى رسمها الفنان الأسبانى الكلاسيكى Velasquez « فيلا سكويز » وبعدها رسمها بيكاسو والمسماه « **المنين** » Les Menines (٣٥) .

ويتضح اختلاف الاداء فى اسلوب الرسم فى معالجة نفس الموضوع .

---

(٣٢) Rembrandt

(٣٣) Vau Gogh

(٣٤) Delanoix

(٣٥) المنين : هكذا تسمى كل سيدة تصاحب اميرات اسبانيا كوصيفات الشرف او مربيات . Les Menines



٦٢١

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان



ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر لبيكاسو يوما ما أن تهتز مشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Baoule ، كما شاء القدر أيضا لابوليتير أن يتغنى بأسنام الخشب الزنجية كي يغير الغرب نظرته الفن ويوافق بعد الفي عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية انني ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقي بتاريخ تطور الفن ، ولكني اعترف أن فننا الزنجي هذا انما أتات منه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى من قدومه ، حضارات لها ميزة خاصة في اكتشاف كل ما هو وراء الطبيعة من الطبيعة ، وكم تكون افريقيا منطلقة في التعبير الفني بالنسبة لمدرسة بيزنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استبدلوا بمنطق الرؤية منطق اللمس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لافريقيا السوداء في ايجاد فن معبر قبل أن يكون خاضعا لأي معيار جمالي آخر ، وهذا الفن شديد الحرية في تعبيره اذ أنه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجي وعلى حسب منطقه وفلسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا اشادة خاصة ولا احجام ولا خطوط ولكن رموزها معاييرها ومفاهيمها ودلالتها المختلفة عند كل رجل زنجي عندما يرى هذا العمل .

والمدرسة التكعيبية والسريالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل ادركتا أيضا أن أهم سمة للرسم الحديث على غرار الفن الافريقي يكون التعبير والانفعال ولعل سر نجاح المدرسة السريالية بمختلف تشعباتها وباتساعاتها اللامعة يرجع أيضا الى هذا الاتجاه في الانفعال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتحرر المطلق من الخطوط والالوان والاحجام التقليدية .

وهكذا يدمر الفن الواقع تدميرا كي يعيد بناء العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الافريقي بالنسبة للفنون المعاصرة . فالفن منذ اكتشاف الغرب لفنون افريقيا السوداء في بداية القرن العشرين لم يعد اسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهبا ولكنه هو فن مجرد بلا أي تعريف آخر . ان الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجي لأنهم رأوا مثله في ما وراء الطبيعة ، أي كل الابعاد المقدسة والخفية التي تربط الواقع بما وراء الواقع ، أو ان شئت هذا الذي سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية التي لا نراه » . فكل الاشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) أصبحت طلبقة ليست حبيسة الأشكال التقليدية كما هو مبين في هذا التمثال الخشبي الذي نحته بيكاسو مثلا . وقد أسماه بيكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التي تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفني من أي معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وانما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائي وخاصة الزنجي .

---

(٣٦) باوليه : قبيلة من افريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بمهارتها في النحت وصنع الاقنعة الذهبية .

(٣٧) « زوار مارين » ص ٣١ .

(٣٨) رأس السيخ البلورية .

٦٢٣

مالرو ، سلجور وحضارة الانسان



من هنا يلتقى هذا الاتجاه الحديث فى الفن بخط المقدسات فيبدأ بينهما الحوار ، وهذا ما يحدث بالفعل فى الفن الزنجى . فالفن يأتى بمقدساته ايضا وهى كامنة فيه مستقلة به لانه يحمل الحقيقة الداخلية لكل انسان ، ولكن ميزة الفن الزنجى انه لا يؤدى الى العزلة بل يؤدى الى الاتصال بالآخرين فيتما يعبر تصوير الاشياء الطبيعية فى الفن الاوروبى فقط عن مقدرة الفنان فى الرسم فان تصوير الاشياء فى الشرق الاقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا ؟ لانه كما يوضح مالرو سواء كان فى الشرق الاقصى او فى افريقيا فالاشياء تعبر عن رؤية الفنان لها ومن احساسه بها ، بمعاييرها المقدسة له ، وبذلك يلقى بالمظهر الخارجى للاشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل ابعاده المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضح سنجور مرارا نفس الفكرة ، هناك عملية مشاركة وجدانية ومشاركة كلية بين خالق الشىء اى الفنان ، والشىء نفسه حتى انه يصبح هناك ايضا فى المرحلة التالية عملية سيطرة وتملك من قبل الآخر على الشىء ، فالفنان عندما ينحت التيمة او القناع انما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشىء ومن ثم يسيطر على عنصر من عناصر الطبيعة المحيطة به فيتغلب عليها ، ومن هنا ايضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر فى الفنون فى افريقيا السوداء وفى اقصى الشرق وعند قدماء المصريين .

فكما راينا فان مالرو شديد الاعجاب بكل فن بدائى لانه معبر ولانه يعيد الابعاد المقدسة لعملية الابداع الفنى . وربما هذا هو الذى شده نحو الفن الزنجى بالذات الذى غير مفهوم الفنون فى القرن العشرين . وراينا كم كانت نظرة سنجور تلتقى بآمال مالرو بالنسبة لمقدرة احياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول الى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالى اعادة تكوين العالم الخارجى على حسب اعمق احاسيس ورغبات الانسان . ومن ثم فهى عملية سيطرة الانسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، وراينا ايضا سر الفنون الزنجية واقتحامها للعالم الحديث . فالفن فى افريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعوالم الخفية ، يحمل معه قدرته الفريدة فى الدوام ، ويحمل معه ايضا ابعاده الدينية ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع او ينتقص من قيمته لانه مثله واثق بانه يحمل فى نفسه مصدر الخلود ، وان كان طبعا خاضعا الى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه فى عملية تغيير الواقع واعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق فى التعبير عما يبحث عنه الانسان فى اى مكان فى عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب اذا راينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب ايضا ان ترى عمل كراسي الملك العجوز للفنان « رووه » (٤٠) يشبه الى حد مذهل ملوك الداهومى فى افريقيا السوداء .

(٣٩) Benin

(٤٠) Rounult

والملاحظ بالنسبة لمالرو كما هو الحالبالنسبة لسنجور ان **هناك ايضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي ((Statique) التاملي والديناميكي (Dynamique) الحركي عندما يتاملان اى عمل فني .**

• • •

١ ـ النمط الديناميكي :

ان الشيء القريب والهام الذي يجمع بين مالرو وسنجور في هذا المجال هو انهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للاقدام على الفعل ، على الحدث في الحياة ، ويؤمنان بانه بفضل الفن يقبل المرء على الاقدام على الفعل (الحدث) في صنع التاريخ . فبالنسبة لمالرو راينا كيف لعب الفن دورا في حياته ورأينا كيف ذهب الى اقصى الشرق كي يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا في « الطريق الملكي » (٤١) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك (Claude Vannec) يغامر بحياته بحثا عن تحف فنية في الأدغال ، تلك التماثيل التي ترجع الى عهد بعيد في حضارة الخمير (Khmer) بالصين .

اما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل اسود لا يتخذ اى خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير او انفعال للزنجي انما هو اتخاذ موقف في الحياة من خلال الفن ، او بعبارة ادق كلما يحتاج المرء الى الفعل او الحدث عبر من هذا في عمل فني ، نحت او رقص او شعر .

وارتجال الشعر هو اكثر الفنون للرجل الاسود وهناك العديد من انواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر وحث الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والاقدام على الحرب ، والتشبه بالاجداد .

وكل هذا ينعكس في شعر سنجور نفسه الذي يترجم كل حدث الى شعر غنائي او حماسي ....

حقا يمكننا ان نقول ان الزنجي يغني حياته .... » (٤٢) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مالرو :

« هل تعلم يا صديقي ان فلاحينا في السنغال اخترعوا رقصة لخطة التنمية وان موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية اوفي النهاية استطيع ان اقول ان كل فن زنجي ليس الا شعرا » (٤٣) .

---

(١) La Voie Royale

(٤٢) زوار مارين ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٤٣) زوار مارين .

من هنا يمكننا ان نقول ان الفن الزنجى اساسا وقبل كل شىء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الاخرى لأنه اساسا وقبل كل شىء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية فى محاولة لسيطرة الانسان على الطبيعة وصهرها فى قالب يناسبه ويجعله يتوائم مع واقع حياته .

ان الموسيقى والرقص شيئان فى دم كل زنجى يولد بهما ويجريان فى عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو فى هذا الصدد على النحو التالى فيقول سنجور لمالرو :

« ان اندريه جيد يقول ان اغانيكم الشعبية بالنسبة لاغانينا تبدو فى غاية الفقر والبدائية ، واذكر ان القس المسكين الذى كان يعلمنا التراويح الدينية فى صبانا فى الكنيسة ، ياله من مسكين ! انه كان يتعذب ! لانى انا واصدقائى كنا بالفطرة نرقص ونثب ونلهو على ايقاع الأيدى وانغام الجاز ! . .

والآن بدأت اوروبا تكتشف اسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنجية الايقاعية مثل الطبول والتام تام الذى سبق كل آلة فى الوجود .

هل تعرف ما هو روح الموسيقى عندنا ؟ انه الايقاع بالضرب بالايدى اولا » ! .

ويكمل مالرو الحديث قائلا : ـ

« ان لديكم ايضا موسيقى غطت العالم باسره اعنى موسيقى « البلوز » فى الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لاجيال من الالم والعذاب للجنس الأسود .

ويجب علينا هنا ملاحظة ان كانت كل الفنون تتساوى طالما هى تعبر عن الغرض الذى من اجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الاطلاق مثل الرسم الذى لا يعرفه سوى الفن الحديث فى افريقيا مثلا ، اما الفنون التقليدية التى تعبر عن التراث الحقيقى لافريقيا السوداء فهى كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الاصنام والاقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص وللحرب وللاعياد والمواسم يلبس افراد القبيلة قناعا معينا ملائما للمناسبة ويشترك فى الاحتفال فيتخذ هذا الاحتفال شكلا دينيا يتقمص فيه الفرد بشخصية ومعالم القناع الذى يلبسه ، كى يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف او الكوارث الطبيعية او المرض او العقم او ما الى ذلك ، وبالطبع هناك اقنعه لارواح شريرة كما هناك اقنعة لارواح خيرة واقنعة لآلهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعاييره ويتخذ شكل القناع احجاما مختلفة . فمنها الذى لا يبلغ طوله الا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة امتار ، واحيانا يظهر القناع وحده ، واحيانا يركب القناع على جسد تمثال باكمله كما هو مبين فى هذه الاشكال فى فن قبيلة الدوجون (Dogon) فى وسط افريقيا السوداء .

٦٢٧

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان







فالقناع حاضر وموجود فى كل مناسبةتقليدية لانه يعتبر الاداة الرئيسية فى الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « اغاني الظلال » نذكر مطلع هذه القصيدة للشاعر الاسود : « يااقنعة يا اقنعه !

انت ايها القناع الاسود وانت ايها القناع الاحمر ، وانتم الاقنعة ذات اللون الابيض والاسود ايها الاقنعة فى الانحاء الاربعة التي تفتحها الروح تحيا اليكم فى السكون .

تحية اليكم فى السكون !

وتحية خاصة اليك ياجدى ايها القناع ذوراس الاسد » (٤٤) .

فقضل القناع اذن تأتي روح الجد وتنطق في علامات ودلالات معينة يكشف منها عراف القرية الساحر عن ارادة الجد باتخاذ موقف معين تجاه مناسبة معينة او حل نزاع او اشكال او ما يعادله ، فبفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرضون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك انواع عديدة من الاقنعة فمنها الذى يصور الاسد او الثور او التمساح ، اى حيوانات مقدسة لها ميزتها كطلسم فى القبيلة ، ومنها مايجسد شكل احد افراد الاسرى الموتى القدامى ، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال او الشر اوالخصوبة او الحصاد الخ ...



قناع « دوجون » يمثل نوعا من انواع الغزلان المقدسة



قناع لبعة من الكونغو خاصة بمراسيم الموت



قناع خشبي يمثل « ناميا لابة السيدات الحوامل في افريقيا السوداء »

وهنا يلتقى فكرا مالرو وسنجور حيث ان مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقى للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما رايناه فى افريقيا السوداء والذى افتقدناه فى الحضارة الحديثة ، اذ ان فى كل متحف نرى الأقنعة العديد من اقصى الشرق ومن ادغال افريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليست عاطفية ، او بعبارة ادق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال فى المكان الذى صنع به القناع ، وكثيرا ماتحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات فى **المتحف الخيالى** وفى **اصوات الصمت** فاشار الى المعنى الاساسى للقناع بالنسبة للذى يشاهده ، واشار الى المقاييس الجمالية التى يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور للـبه من هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات اخرى مثل حضارة الشرق الاقصى ، حيث ان الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وانفعالية مع الفنان ونحته ، او بعبارة ادق وماخلق . فلا يوجد فى افريقيا فن جيد وفن ردىء ، وانما هو الفن بمعناه المقدس المطلق ، اى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشىء يحدث فى حضارة سومر القديمة وفى الشرق الاقصى ، فهى عملية الخلق بعينه ، على غرار الخالق سبحانه وتعالى وماخلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه وينبثق منه هذا المظهر المقدس وهذا العمق الدينى الذى يجعله يوحى للانسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والابعاد التى ترتقى بالانسان الى اسمى واعلى معانى الرؤية الجمالية ، فان كانت الملامح تختلف تماما والمقاييس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والاستيتيكية عامة فالتحفة الفنية فى هذه الحالة تخلق مناخا واحدا ، وينبعث منها احساس واحد مثلما نستطيع ان نتاكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التى تبعد كل البعد فى هذا الشكل الموضح ادناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق الخصبة فى المراة كالبطن والثدى .

راينا كيف ان النحت يعبر فى مظهره السائد فى افريقيا السوداء اى ان نحت القناع ونحت التماثيل له فلسفته وله اهمية بالغة فى حياة القبيلة .

ورأينا ان لكل مناسبة فنها الذى هو لغتها ووسيلتها للتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والطهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى أن الشاعر الأسود يقول فى هذا الصدد بيت شعر صار خالدا :

« انا رجال الرقص ، الذين لاتثبت خطاهم الا اذا ضربوا الارض ضربة قوية باقدامهم لتنطلق ! » (٤٤)

(٢) ـ التحف الستاتيكى التأملى : هناك شىء آخر وهو موقف الفنان نفسه من اى عمل فنى آخر ومدى تاثيره به ، وهو الوضع التاملى المتعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

---

(٤٤) من ديوان الفانى الظلال لصرخة « التضحيات لانت الوردة ... » .

بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة من فلسفة الفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن (٤٥) بالبعيد حيث يحدق ويتفحص مالرو كل تحفةفنية يراها أو يتمنى أن توجد بالمتحف الخيالي من نحت ورسم وقطع زجاجية وفسيفساء وصور فوتغرافية ... الى آخره ... ومن هنا ثمرة انتاج مالرو فى فلسفة الفن وايجاد العلاقات والصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة فى حضارة ما بين النهرين القديمة
(منطقة العراق الحالى)

(٥) La Psychologie de l'Art



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذى كثيرامايتأمل القطع الفنية فتوحي له بالتراث العريق والتفاخر مثلما نراه يشاهد القناع الذهبي الشهير« الباولية » حيث يتغنى الشاعر ق تعال طويل بالخطوط والرموز والايقاع لهذا القناع المشهور .

ويستطرد مالرو قائلا ان علاقتنا بالفن منذ اكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بحته ، فتتخذ الاتجاه الذهبي البحت اكثر فاكثر .

فمعلوماتنا اكثر من احساسنا الفني التلقائي ــ وبالتالى فالزائر الذى يقوم بزيارة لمتحف اللوفر مثلا يعلم تماما أنه عندما يشاهد رسومات جويا ، او مايكل انجلو فهو لايشاهد سوى تحفة فنية من اعمال هؤلاء العباقرة وانما وجدانيا وعاطفيا ، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال المبدع

الذى احس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذه التحفة مجرد صورة تعكس اول انطباع فقط للاحساس الحقيقي الذى حاول ان يعبر عنه الفنان والمشاعر العميقة التى هزته حينما خلق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الامثلة لمثل هذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الاحساس بالرهبة العظيمة والتقوى التي تملكت الفنان عندما قدم لنا « المسيح النقى » المعروض بمدينة بريتيوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع ان نلمس الى اى حد يمكن الفنان أن يعبر عن احساس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحساس الينا نحن الذين يشاهدون هذه التحف الفنية من خلال القرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالاعجاب ونشترك سويا فى دنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة اعجاب لاتكفى وانما نستطيع ان نقول اننا نشارك وجدانيا وعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



ان مالرو شديد الاحساس بالرسم وبالنحت . اما سنجور فهو شديد الاحساس بالموسيقى وبالنحت . ولكن الذى يجمع بين الاثنين هو الربط بين الاحاسيس والانطباعات التي تنتج من رؤية منظر معين في الطبيعة فيترجم كل هذا الى ابداع فني بمعالجة فنية ترتكز على تأثير كل منهما لفن من الفنون او لاكثر من فن ، فالحياة عامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع ان نأتي بمثل لما نقوله من رواية « الامل » لمالرو عندما نرى أن أحد الابطال وهو لوبيس (Lopez) النحات لايرى الواقع الا من خلال فنه ، حتى انه عندما يصف رجل الكنيسة يسترعى الاشباه فيه انه مهمل المنظر ، لحيته بيضاء قبيح المنظر ولكن « يتمتع بيدين يستحقان الرسم » .

والحرب بالنسبة لنفس « لوبز » تعنى فرصة المرء لكي يسخر الفن في خدمة النضال الوطني فيقول :ـ

« لقد نغطي الجدران العارية الرسامين باصدقائي وهيا لوسم ولوسم ، ان الذين يمرون امام هذه الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لايمكن ان يخلق في جماهيري عندما لانجد شيئا نقوله للجماهير . ولكننا يمكن ان نناضل سويا ونفعل حياة سويا نضع اسسها معا، وفي هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سويا » .

اما موقف سنجور من الفن فما علينا الا ان نتذكر أن كل مظاهر الحياة بالنسبة للشاعر الأسود هي فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لايتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى ان طبول التام تام تعتبرها القبائل لغة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الادغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما يتحدث سنجور عن الموسيقى والرقص الزنجي او يتأمل ايا من الأعمال الفنية ، زنجية كانت او من حضارة البحر الابيض المتوسط العريقة التي طالما تفاخر بها سنجور على اساس ان هذه المنطقة منبع الحضارات والفنية، نستطيع ان ندرك الى اي مدى تتقارب افكاره مع افكار مالرو ، فالتحفة الفنية تلعب دورا هاما عند هذين الكاتبين حيث نجدهم يتأملون طبيعتها ومعدنها ومدى صلتها بالفنون الأخرى او بتراث آخر .

ومن لم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تأملية هامة ، فيتأثران به ويتفعلان معه ويوحي لهما بعلاقات بعيدة ومثمرة بين مختلف الشعوب، ومن هنا تأتي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التي تؤدي بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

ان الفن في مفهوم سنجور ومالرو طليق ليس حبيسا او مرتبطا بمنهج سياسي او اى انتماء آخر غير انتمائه لقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن ان يخدم فكرة او مذهبا او فيما برجوازية او اشتراكية او شيوعية او ما الى ذلك .

وطالما ان الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينقذ على ايدي مؤمنة بقيمه بل مؤمنة بقدسيته ويحتكره الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فانه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يستحق اعجابنا وتقديرنا

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصرى القديم وفن الصين وسومر والفن الزنجي ، لاننا نستطيع ان نرى ان الابداع الفني يلتصق فيه كما راينا من قبل باسمى معانى العبادة فى الدين ، بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات فى محاولة لاكتشاف اسرار الكون .

فما الفن المسيحى فى تقدير مالرو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان فى وسط الكون ، اما اذا اخضع الفن الى عوامل اخرى مات واضمحل وفقد معانيه .

• • •

هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت اتجاهه الديني المعبر واتخذ الشكل الاكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي تخليد لويس الرابع عشر مثلا . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت قلم مالرو حتى يصل الى الفن المسخر فى خدمة البروليتاريا ، الملتزم بمبادىء الاشتراكية المتطرفة او الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط الالتزام الذى يجب ان يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الانتاج المتزايد بالجملة والرغبة فى الارضاء لرغبة العميل الذى يشترى الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الابداع الفنى وبين الانتاج الفني الضخم الذى يرضخ الفن بسببه لمقتضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراه فى اوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث السريالى فعاد بالفن الى اصالته فاصبح لايرضخ لشخص معين ولا لنظام معين ولا ينافق ولا يتملق العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة الذواقة ، وانما يعبر اصدق تعبير عن مأساة الانسان الحديث وباسلوب يبعد كل البعد عن الاساليب المتبعة فى الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن اصالته ويتصل مباشرة بكل فن بدائى تلقائى زنجي كان او غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سوى رؤية الفنان البحتة . ويستطرد مالرو فى شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا اقول ان براك (Braque) (٤٦) يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا نتدارك تلك السمات المميزة للفن فى حد ذاته فانه باسلوبه التحررى اعاد لبصرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افتقدناه . وكذلك الحال بالنسبة لبيكاسو كما راينا .

ان زمن الفن لايطابق زمن الاحياء . فالموت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لايفنى عبر الدهر والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو ان الفنان بصفته رجلا يفنى ولكن بصفته فنانا لايرحل ابدا عن هذه الدنيا لان عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والاجناس ، فمايكل

---

(٤٦) براك رسام فرنسى سريالى معاصر .

« انجلو » و « روفائيل و « وبودلير » و « بيكاسو » و « مالرو » نفسه وغيرهم ان كانوا رحلوا من هذه الدنيا فبفضل اعمالهم يعيشون ويخاطبون البشر، وهذه هي اهم واسمى رسالة للفن ، اى ايجاد الحوار على اعلى مستوى ، وهو المستوى الوجداني والعاطفي في الانسان مع نفسه اولا ومع الآخرين ثانيا .

وكما يقول الشاعر شارل بودلير :

« ان الروائح ، والالوان والاصوات تتقابل » على اساس ان كلا من حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخرى ، وتجعله اكثر حساسية لنوع معين من مظاهر الطبيعة ، فبالنسبة لمالرو اقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والانفعالات التي تعود به الى الوراء في حياته هو او في حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف في ذاكرته بنفس القوى والتعمق ، ولشدة حساسيته بفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الاشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس او اضاءة جانبية يشغل مكانا هاما في تحديد المنظر في كل رؤية ، ويؤثر كل التاثير على البطل بحيث انه يتخذ القرار او يقدم على الحدث تحت تاثير مشهد انعكاس الضوء على الاشياء المجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الاشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به في واقعها ، فمثلا في رواية « الطريق الملكي » (٤٧) تعكس الشمس نوعا من الضوء الباهت على شاطىء جزيرة سومطره فتبدو المياه عكرة وتبدو اشجار النخيل من بعيد كانها سور رهيب من الوحوش المفترسة السوداء ، فيملأ النفوس كآبة ورهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذي يلعب دوره في تكوين الاحداث ، وهكذا نرى ان الضوء هو طريقة المعالجة الفنية الاساسية في ابداع اندريه مالرو الروائي .

ويأتي النحت في المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الاحساس بحركة الأيدي بهيئة الجسد ، كما يشده دائما احساس عميق بشكل الاشياء . أما بالنسبة لشاعر « اغاني الطلال » فاحساسه بالضوء لا يعتبر اهم معالجة من الابداع الفني ولكن هو الاحساس بدفء الضوء ، اى بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الألوان ، الوان طبيعة السنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقترنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورود التى تتالق مع بريق الشمس على ارض افريقيا، فيأتي الاحساس بالنبات قبل مظهره واساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت اي بين الجفاف والحصاد .

فالرسم لا يسترعى انتباه سنجور في المقام الاول وانما الذي يستند عليه في معالجته الفنية هو اولا الايقاع ونعنى بالايقاع ايقاع الطبيعة في الدرجة الاولى مثلا كالايقاع الثنائي لليل والنهار ،

والجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائرى ،ايقاع الفلك الذى تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع الملمس والشكل واللون بجانب الايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هى المقومات الاساسية لكل فن زنجي وكل زنجى يعيش العالم الخارجي بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحواسه لابمنطقه ولا بعقله » .

واخيراً فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالثبات ، وحب الاشجار التى تربط الانسان بالبيئة وتوصله باجيال مضت وبواقع مشحون بالأحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل او الشاعر مع الاحداث .

ونجد نفس الشىء فى معظم روايات مالرو : ـ

واكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة، وبين منظر الاشجار التى توحى اليهم بأحاسيس معينة . وفى كل الحالات فهم لايمكنهم ان يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط فى قصة « القدر الانساني » : حيث نرى ان جيزور (Gisors) والد البطل كيو Kyo بعد وفاة ابنه لايستطيع ان يتحمل الالم ، ولكن الشىء الوحيد الذي يساعده على الصمود امام مآسى الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالغرق فى متاهات الأفيون الذى يتناوله ولكى ينسى جروحه وفشله فى الحياة . ومنظر الطبيعة هو مايمكن ان يراه من خلف النافذة من اشجار النوير التي تنشد انشودة الربيع بالرغم من ان كل شىء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد ان هناك تشابها فى كل افكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الانسان بالمكان الذى يعيش فيه ، فالطبيعة تلتصق به ولايمكن ان يبتعد عنها او يتجاهل وجودها .

وفضلا عن هذا الارتباط فهناك ايضا ارتباط وثيق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الاخرى التى تترجم فى معظم الاحيان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .

• • •

وطريقة مالرو والمسلك الطبيعى الذى يسلكه فى قصصه هو تجميع للاحساس العام فى احساس معين مركز يتجسد فى لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر فى المشهد المذكور تماما .

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالاخر بحيث يشكل بناءا متكاملا ويجيب كل عنصر منه على الاخر . فهو يختار الاشخاص والابطال ـ فى عملية الخلق الادبي تبعا لتطور الاحداث وطبقا لما يعطى له الواقع من مناظر ومشاهد ، ولكن الشىء الذى يهمنا هو ان كل بطل يعايش العالم . عند مالرو كما كان سنجور ـ فى الشعر من خلال احاسيسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التى تجعله مثل الفهد او النمر او الاسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو اساسا بهذه القدرة الفائقةعلى خلق الجو المناسب للبطل وايجاد هذه الاحاسيس والانفعالات التى تعطى المناخ المطلوبلمتابعة القصة ومعايشة الأحداث من وجهة نظر البطل او الشخصية التى يسلط عليها الضوء .

اما سنجور : ايمكن ان ينسى انه ابنالادغال ؟ وانه لايصف الشيء الا من خلال احاسيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكونهذا هو الربط الحقيقى بين الانسان والطبيعة ، فالاشجار مثلا هى الصلة الوثيقة التى تربط بينالانسان وبين البيئة التى يعيش فيها ، ففيها يرى الماضى بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والمستقبلبشائره .

فعندما يقف الكولونيل بيرجيه (Berger)(٤٨) الذى هو مالرو نفسه ويتأمل ، يحس ان كل شيء تحت الاشجار « من بذور ، وخشب، وجلد ، او قش » فرائحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجيه وتتغلغل الى اعماقه ، وحفيفاوراق الشجر بجمله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الخضرة الخصبة الخلابة ، فيأتىايضا بهدير من اجيال مضت ،آتية من اعماق الظلام الحالك » . وربما هذا يعني قدرة الاشجارعلى الاستمرار فى الحياة من الجذع حتى القمة ، تحمل معانيا كثيرة بين اوراقها وفروعها . واولهذه المعانى الصلابة وثانيها الجمال ، وثالثها الصبر والجلد .

وهكذا نرى ان شجرة الجوز المتشعبة كمابدو لاتحمل ثقل الدنيا وانما « تترعرع » وتزدهر فى حياة لاتنقطع .

وهناك ايضا ذلك المنظر الذى يراودفكرمالرو فيظهر لنا مرتينالاولى : **فى اللامذكرات**، والثانية : **فى الامل** ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناضجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا الى امكانية تطور ، او نهضة ، فهذا المنظريقترن بوجود القس على منبره بالكنيسة وهو يردد فى صلاته : ــ

« وانى الموت لكل شيء ، وانى مولد كل شيء وانى سكون الاشياء الخفية ... »

واثناء هذه التراتيل كان البطل بيرجيهيفكر فى حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة فى منطقة الالزاس ، وكان يبدو له وكانهحلقة اناس احياء ملتفين حول جسد يحترق ببطء يمنح الحياة ...

ويستمر دائما فى مخيلة مالرو ــ او بعبارةادق ابطال روايات مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينةتتعلق باحداث تحدد موقفا انسانيا ، وهكذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والانسان ،بل كل عناصر الطبيعة بالانسان .

فمثلا ان صرخة الغراب تأتي من اعماقالهند حيث يسرح الكاتب بخياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الاشجار المقدسة التيتلتف من حولها الرجال مثل عنقود الفاكهة الذى

---

(٤٨) Les Noyers de l'Altenburg

سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف قارئ بتاريس لتخيل هذا المنظر المألوف لديه ، وتارة يعود به الخيال الى سوردج الالتانبورج بالالزاس حيث تبدأ للحياة أول البراعم من فوق الجوز الميت منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى أن هناك عند الانسان هـذه الرغبة فى الدوام وفى الاستمرار وقهر الزمـن وتحـدى الطبيعة . ويـرمز الى ذلـك منظـر اشجار الجوز بالالتانبرج واشجار التفاح ايضا فى رواية الامل وحتى منظر الرجال الملتفين حول حلقة النار ببناريس فى الهند تدل ايضا فى هـذه الحركة الدائرة التى تكون هـي ، وفى الـوقـت نفسـه تتغير فى كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائرى ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذى يطوق الاشجار ، كل هـذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتغيـير بصفة مستمرة ولكنها فى جوهرها كما هي ، وهذا هوسر الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا فى مشهد آخر مـن نفس رواية أشجار الجوز بالالتانبرج حيث نرى أحد الابطال « موليبرج (Mollberg) يتحدث بحماس بالغ مع الآخرين بينما يسترعى انتباه بيرجيه فجأة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جذوع أشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة امام مبنى البلديـة المدينة بالالزاس ولكن هذه الحركة ايضا الم يكن يفعلها ايضا رجـال القرون الوسطى فى الغابة المقدسة بينما كانت النافورة فى وسط المدينة بمياهها تنعش المساء !

وهذه الجذوع ، والخطابون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هـذا الشعـور باللا مبالاة الذى يحمله الانـسـان تجاه مرور الزمن .

نفس الحركة انما تتكرر منذ قرون مضت واجيال سلفت وستتكرر فى المستقبل .

وهكذا تصبـح القرون الوسطـى حاضرا مستمرا وتنتقل تذكرة الدوام البشرى من الجذوع الى الاشجار المليئة بالحيـاة ، اشجار الجـوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالالتنابرج فيصفها الكاتب على النحو التالي : ـ

« أن كثافة الاشجار العريقة تنبثق مـن كتلتها المتلئة ، ولكن هناك احساس بجهودها المستديمة لاستخراج فروعها باوراقها الخضراء من هذا الخشب المعوج القديم ، الثقيل الذى يبدو وكانه يغرس غرسا فى باطن الارض ويثبت فيها لايخرج منها هكذا يعطى الاحساس بالارادة القوية اولا ، وبالتغيير المستمر ثانيا ، فيجسـد شجر الجوز لفنان بيرجيه الرغبة الاساسيـة لبلوغ الابديـة .

ونفس الشيء يتكرر فى رواية الامل ، فى مشهد اثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فيرد على خاطره ان ثمرات التفاح لم تجن بعد ، ولكنها وقعت وتلتف مـن حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يـذوب شيئا فشيئا مع التجبل . وكانت شجرة التفاح فقط هى التى تنبض بالحياة فى وسـط الحصى والحجارة التى تكسو الجبل ، فالنبات وحـده ينبض بالحياة التى طالما تجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجى للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائري للطبيعة وبالأحرى المدار الدائري للنبات الذي يرتبط بالانسان ارتباطا وثيقا، بل يبدو هذا أوضح وأهم في شعر سنجور حيث الانسان الاسود تقترن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعة ــ وترتبط ارتباطا وثيقا بحلول الفصول أولا وقبل كل شيء .

فدائرة الفصول هي التي تتحكم في حياة الأفريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث رأى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصا انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز الى معان كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذي يرفض ان يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » (اذا جاز هذا التعبير) الذي يعيشونه في افريقيا .

وعلى اية حال فما هو ابيض في اوروبا يكون اسودا في افريقيا ، والعكس ، بمعنى ان فترة الجفاف في أوروبا ، اى جفاف البرد القارس توازى فترة الخصوبة في افريقيا السوداء ، وبالعكس فترة جفاف الأمطار في افريقيا توازى فترة الخصوبة اى الربيع والصيف في أوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير الى اختلاف الفصول وقدومها في معادها الدائري .

ولذا نراه يحس بقدوم الربيع بمجرد شمه لرائحة الخضار : خضار الاوراق والنجيل من قبل ان تورق الأشجار او تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى مالا يسمع ويرى الاخرون من الأوروبين .

فقدوم الربيع مثلا يأتي له وهو في أوروبا على هيئة همهمة النسيم القادم بشمال القارة السوداء الدافئة فيعيش باحاسيسه دفء افريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطى أوروبا ، ولا نبالغ عندما نؤكد ان كل حياة ومشاغل واحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرة للفصول الاربعة .

فكل مناسبة هامة او حدث او احساس مرتبط بموسم الحصاد او موسم الجفاف او موسم الرياح حتى انه عندما يحدد ميعادا يصل به الى انه لاينظر الى المفكرة الأوروبية المألوفة المكتوبة في جيبه او على مكتبة ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

واحساس سنجور بالنبات يكاد يكون محور كل ماكتب وتحدث عنه لانه يقرن دائما النبات بالمرأة بتربة افريقيا عامة في فكرة الخصوبة والانجاب والتفتح ، فالبذور تنبت وتترعرع وتثمر وتحصد ، والارض تثمر وتستغل فتزرع وتعرق بطنها ، اى تربتها الخصبة بعمل الرجل الذى يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماما مثلما يقترن الرجل بأنثاه في فكرة الحب والانجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة في النبات عامة ولكنها تتضح أكثر في الاشجار . فكل شجرة تلخص معانيا كثيرة وتوحي بفلسفة الحياة بعينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلا عن انه يمثل أيضا الظلال والحياة في المناطق الصحراوية الشاسعة في ارض السنغال .

فالأشجار اولا تعنى التفاف الجماعة مـن تحتها فى النظام القبلي للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون أسفلها للتشاور فى أمورهم فى رطوبة المساء وسكونه ، ومن هنا يأتي الأرتباط بين الأنسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذى يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التى يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتي المكانة الخاصة التي تلعبها الشجرة فى حياة أفريقيا السوداء ، حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضـا تعنى الجمـال : بقامتها الفارعة المشوقة كالنخيل والحور ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنت والزان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار الباوباب المعروفة فى افريقيا السوداء والتى هي دلالة مميزة للمناطق الأستوائية والمدارية فى القارة السوداء .

والشجرة أيضا تعنى الخضرة أى الحياة لتلك المناطق الموحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلا لها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وشراسة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا تحصل منها على الثمار ، فتطعم وترطب وتروى ، فبالاضافة الى قيمتها الجمالية فهى ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا ـ وهذا هو الاهم ـ فالشجرة توحي بفلسفة فى الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسي « بول فاليرى » . (Paul Valery)

« الصـبر .. الصـبر
الصـبر فى الأفـق الأزرق

فكل ذرة مـن السـكون
فرصة تفتح زهرة ونضج فاكهة ... »

فالنبات أيا كان يوحي بالصبر الأزلى طالما عرفه الأنسان : فهو يزرع ، ثم يروى ويتتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هى الحكمة الكبرى فى حياة البشرية وهى حكمة النبات الذى يمثل دقة الطبيعة فى مدارها الدائرى الـذى لا يخلف الميعاد .

وحكمة النبات تتجلى أيضا فى اسـتقرار الحياة ، منذ الجذور الممتدة فى باطن الارض وحتى القمة الشامخة التى تشق زرقة السماء .

وسنجور كشاعر ، يتتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الاوراق ، وكل نوع يوحى اليه بإحساس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تفيض بالأنوثة وكذلك أشجار المانجو ، والجمال المشوق يتمثل فى النخيل السنغالي وفى شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظـر الاشـجار علـى احاسيس الشاعر نفسه ، فاذا كان تعيسا فيحس بأشجار الباوباب الضخمة تتلوى من الألم ، واذا كان ـ يرتجف من البرد فى أوروبا فيرى الأشجار ترتجف بردا ، أما اذا كان سعيداً منتعشا فان الأشجار تضحك معه .

وهكذا نرى انه بينما يشد مالرو منظر معين في الطبيعة كما رأينا في مشهد الاشجار فالاحساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور في ذهن سنجور في حاسة الشم واقتران اللون الأخضر والاحمر والاصفر اى الوان مظاهر الطبيعة في السنغال نفسها ، وهنا نقف لحظة لنتأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو وملكته الفنية النابعة من بيئته الأصيلة بمعنى ان كل فنان يخلق لنفسه في عمله الذى يقدمه لنا مناخا معينا يستوحى منه الالهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والآن لنتناول دور الفن في فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند سنجور موقف اخلاقى يؤدى الى سلوك الانسان المعاصر تجاه اخيه .

• • •

٣ – الالتقاء الاخلاقى (Ethique)

وهنالك يأتي على الفن ان يقول :

« اننى لم اجىء كى اعطى لكم الجزء الالهى الذى اتمتع به ولكنى جئت كى يسترد الانسان مكانته الصحيحة في الكون وبصوت خافت اهمس له بعظمته » .

ان الفن الحديث يسمح لنا أن نرى كل الاشكال في العالم المحيط بنا بحرية تامة لاتخضع لاى اعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذى ينبع منه ويترعرع فيه عبر تراثه الثقافى .

فالفن في مفهوم مالرو هو اللاقدرية لانه المجال الوحيد لاختيار الانسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف اخلاقى ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل انسان ، اى رفض القدرية والمحتوم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذى نستسلم له لان الفن يعتبر تجربة وانطلاق من كل مايجول في النفس البشرية ، عن كل ماهو كامن ومكتوب وموقف الانسان من القدر فان فكرة الانسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الانسان احياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو **«سيكولوجية الفن»**(٤٩) محاولة لابراز اعظم مظاهر الانسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة اسئلة في هذا الشان ولعل اهمها السؤال الآتي : « كيف يمكن للمرء ان يتفق مع العالم الخارجي » سؤال حير البشرية من قبل ، اما اليوم فنزيد عليه سؤالا آخر كيف يمكن للمرء ان يتفق مع نفسه » ؟ على مدى التاريخ نرى ان الانسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذى يتخطاه دائما ، فاذا كان المرء اليوم يعتقدان لاشيء يتخطاه ، وان الالهه لم تعد اى شيء سوى اثبات لمقدرته الفائقة في الابداع فكان لزاما عليه اذن ان يجد في نفسه ، ولنفسه فقط ، هذا التوافق بينه وبين نفسه .

(٤٩) La Psychologie de l'Art

فان آلهة المتحف الخيالي في مخيلة مالروهو « الممكن » (Le Possible) واهم ما يتسم به هذا المتحف هو الكفاح من اجل الحياة ، النضال ضد الموت وتقصد هنا مع مالرو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل انسان يرحل من الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذي يلاحق البشرية فيقضي على كل سماتها الانسانية ، ولكن الامر الذي يعنيه مالرو هو ذلك الشعور بالانفعال الاساسي الذي ينتاب المرء امام الحياة ، بادئا في اول الامر بحيانه الذاتية امام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من الا يوجد شيء » ؟ ذلك هو السؤال الذي حير مالرو امام الحضارات القديمة التي تلاشت عبر العصور ، او بعبارة ادق انقرض الذين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم اثر سوى هذا التراث الفني يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا من انه يحيي لنا هذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية في تقديرانديه مالرو هي ليست توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت الينا كل حضارة بتراثها الانساني وكل ثقافة بمعالمها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراثها الانساني وعواطفنا ووجداننا باعمق معانيها السامية الجمالية والروحانية .

يعتقد اندريه مالرو الذي يرفض معونة الاديان وخاصة المسيحية ان عظمة الانسان ومجده هي في ان يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون اي استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك انه يمكن ان يقيم عظمته اي معونة اخرى غير تلك التي تنبع من نفسه .

ويصيح في وجه الصحفيين :

ان الانسانية لاتعني ان نقف ونقول :

« ان الذي فعلته لايمكن لاي حيوان في العالم ان يفعله » .

لا ، بل ان الانسانية هي ان ارفض ما يمكن في نفسي من حيوانية وان اقول اني اصبحت انسانا بدون عون الآلهة :

ولكن مازالت المشكلة الاساسية غير محلولة بالنسبة له الا وهي « من هو الانسان وماجوهره » ؟ وهل هناك اي دلالة او مفهوم يمكن ان نرسي اونقيم عليه تعريفا للانسان ؟ وكل انتاج اندرية مالرو الفني والادبي بل وكل حياته ايضا وماحقق في مجال السياسة والثقافة ماهو الا محاولة ايجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح بشغف بل بقلق شديد من كاتب « **القدر الانساني** » .

هل مات الانسان حقا ، الم يبق منه مايشير الى معالم الانسانية ؟

ففي محاضرة ثقافية في قاعة السوربون يصيح فينا مالرو محاكيا نيتشه Nietzsche الفيلسوف الالماني الذي تحدى العالم في يوم ماحينما صرخ « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الانسان قد مات بدوره « الم يعد هناك انسان » ؟

وهذا التساؤل المحير في الواقع لايقتصر على اندريه مالرو ولكن كثيرا من الكتاب يتساءلون بنفس الطريقة ، والمقصود بهذا السؤال طبعا القيم الانسانية التي لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين التي خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل المآسي ، مثل الحرب واستعباد الآله للانسان الذي لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار في الحياة ككائن حر مدركا وواعيا .

وهنا يتأمل مالرو مصير القارة الاوروبية فيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها في قيمها مما يؤدي الى انشقاق قطيع بين الانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي عن هذا الانفصام .

ان القرن العشرين مبصوم ببصمة «القدرية» على النقيض من القرن الذي سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة يلفت بنا هذه القدرية الى حد يحتم علينا ان نسيطر عليها اما ان نستسلم لها فنموت» .

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحدهو « بروميثيوس » Promethee بطل اسطورة الاغريق الذي سرق سر النار من الآلهة فيرجع له الفضل في تقدم البشرية .

والمقصود هنا بروميثيوس **هو الانسان الماركسي** المعاصر الذي **يصنع التاريخ ويغير وجهة تنمية امكانياته المادية** والتكنولوجية فقط ، ولكن فيما بعد لم يعد مالرو **يقتنع لا بالمذهب الشيوعي ولا بالماركسية لانها لم** تشبع متطلبات اخرى روحانية في اعماق نفسه **، ولذا توجه الى نواح اخرى :** فبدا يعجب بالاساطير والتاريخ ، والثقافة والفن وبالتالي بدا يقترب من « ابولو » ـ (Apollou) اله البطل الاسطوري الاغريقي الآخر على النقيض من بروميثيوث ، ومن ثم فرجل ابولو هو الذي يثور على استعباد الآلهة والتكنولوجيا الحديثة ، وهكذا يصل المطاف باندريه مالرو في اهم مراحل فكره الى ودع حتمية التاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو اهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن ايا كان الانسان المعاصر ، بروميثيوث كان او ابولو فما من شك ان المنطلق واحد عندهما الا وهو تأليه الانسان ، هذه الفكرة التي وردت على لسان احد ابطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بان يكون الها » (٥٠).

ومن هنا جاء المدلول الجديد لمفهوم الانسانية الحديثة في عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب اينما كانت تكفي لتغطية الانسانية في النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة لذواقة الفن الذين يكتفون بتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الامر تغير واصبح يشمل مضمون كل البشرية في انحاء الكرة الأرضية على مختلف الاجناس والبلاد والأديان والقارات ، وبالتالي كلمة « حضارة » الآن يجب أن تعني شمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارة في العالم عبر عن الانسان في اي ركن من الدنيا .

---

(٥٠) القدر الانساني ص ٢٧١ : (La Condition Humaine)

ويتساءل الكولونيل « بيرجيه » (٥١) الذى هو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وانا اكتب سوى الانسان ؟ .... ان ابى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدات هذه الفكرة تسيطر عليه ، فكرة لغز الانسان التى تسيطر على اليوم والتى تجعلنى ربما ابدا فى فهمه ، وهناك شيئان جعلا فنسان بيرجيه (او ان شئت مالرو) يفهم البشرية ، أولهما ايجاد قيم انسانية (٥١) جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التى لخصها مالرو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى ان اجعل المرء يعى ويدرك مدى انسانية اليوم » ، **وثانيهما** ايجاد حوار الفن والانسان .

١ – البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصعد به دائما الى اسمى واعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه ان ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعسة لمصيره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال اقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحته تسمح له بالتغلب على القوى المضادة التي تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مالرو فى الفكر بانه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يعرضها كاتب الامل للانسان ؟

يسردها مالرو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته **الغزاة** : (٥٢)

« نعلن ان القيم هى : –

ليس اللاشعور بل الادراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الارادة – ليس شحن الرؤوس ولكن الحقيقة ....

واخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا تكمله بهذا السؤال : « الى اين » لاننا لا ندرك شيئا من هذا ، ولكن نتساءل من اين نبدا تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فامام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف اخلاقي جديد لنفسه اوالانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى او الانتحار بوسائل اخرى : الذهنى او الروحانى الذى يفرض على المرء ان يقبل مذلة مصيره فيخضع للقدرية او ان يهرب منه ليخلق لنفسه اللهو عنه بشتى الطرق ، ولكن مالرو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بركن » (Perkan) فى الطريق الملكى .

---

(٥١) اشجار الجوز بالالتنبورج ص ٢٩ .

(٥٢) Les Conquirants

وبعد كتابة ست قصص اى بعد اكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وباسلوب واقعى عن مشكلة الغرب وفى هذه المرة لم يكتف بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد ابرز مالرو فيما كتب « اصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه الانسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله اولا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى ادركته اخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة انه لا شيء، او يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الانسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى انه لم يكتف بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى اعماله الأولى بل اعطى ، او على الاقل ، عرض حلولا من خلال اعماله .

فالانسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند الاقدام على صنع الاحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى اى الابداع . فالفن وحده اذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الانسان الحديث لانسانيته .

وفى الابداع الفنى سبيل اعمق لاتصال الانسان باخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، فاذا كانت الثقافات والحضارات تنهار او تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث وتعبر عنه ، واخيرا وهو الاهم تثبت لنا فى استمرارية قدرة الانسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجي .

كيف يعيش الانسان فى عالم عابث به ، ليس له اى معنى ؟ بل يعيش الانسان كى يعطي لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به واهم رسالة للانسان المعاصر هى ان « يعطى معنى للامعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسي الشهير « مونية » (Emounier) .

ويبدا مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على العدمية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يدفعه الى الاقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تتبلور فكرة الانطلاق من العدم للوصول الى الانسانية التى هى الايمان بالقيم الايجابية للانسان فتترك وراءنا عالما باكمله من معتقدات وافكار وتصرفات وايدولوجيات ، ولنواجه امامنا مصيرنا عاريا مجردا من اى اعتبار آخر . والملاحظ هنا ان ترك تلك القيم الحضرية والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لابطال رواياته ، ان مالرو نفسه ترك اوروبا اى الغرب وذهب الى أقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الانسان قيمه وعالمه الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتأمل فى هدوء وفى اعجاب عوالم اخرى ، والملاحظ ايضا ان ابطاله على غراره هم يبحثون عن انفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون ايضا الى حضارة الشرق او البلاد الغريبة عليهم اينما كانت ، فلا سبيل اذن لخلق قيمهم لانفسهم بعد ان يواجهوا مصيرهم بشجاعة ويقظة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون انه لا مفر لهم سوى الاعتماد على انفسهم فقط كبشر .

ومن ثم اصبح لزاما على المرء ان ينظر لمصيره نظرة متفائلة بناءة من لحظات يأس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا ان مصيره يكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه ايضا ان يعتقد في دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) احد ابطال **القدر الانساني** فيقول :

« انكم لتعتقدون ان هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الاطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومالرو بفكره يؤكد هذه الحقيقة : **فهو لا يؤمن بدوام الانسانية في الحاضر** وفي المستقبل فحسب بل يؤكدها بالنسبة للماضي في كل حضارة قديمة وفي كل مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

وبكل احاسيسه وجوارحه يبحث مالرو مع ابطاله من هذا الشيء الذي يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذي قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الازمنة والاجناس حتى انقذ الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم ايجابية نابعة من الانسان نفسه ، ولا تستدعي اي شيء آخر سواه بقدراته وامكانياته لمجابهة واقع مصيره ، وهكذا تؤدي فلسفة العدم الى فلسفة الايمان بالانسان اي الانسانوية .

هناك بين كل الثقافات التي سبقتنا رابط وثيق فنحن نعلمنا الآن ان نرى باعيننا وباذهاننا وبكل مواطفنا ، وبفضل فكرة المتحف الخيالي لكل الفنون نستطيع ان نقارن ونقيم ونكتشف العلاقات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، « فتوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في رواية الطريق الملكي حيث يستسترد البطل كلود فانيك (Claude Vannec) حديثه في هذا الشأن قائلا :

« ان المتاحف بالنسبة لي انما هي اماكن حيث تصبح كل الاعمال الفنية الماضية اساطيرا تنام حياة تاريخية طويلة في انتظار ان يوقظها الفنان من جديد ويأتي بها الى الحياة الحقيقية ...... » .

فنكون كالمكفوفين اذ لا نرى امام هذا المشهد ما تحمله هذه الاعمال الفنية من قيم حضارية وانسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم باكمله تذوب خصائصه في خصائص كل البشر .

وهنا تنبع فكرة الاخوة والجماعة وتشمل اخوة المجتمعات باشملها ومحاولة التعمق في العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمي والى الحضارات المختلفة التي تجمع في معنى واحد هو تعبير المرء عن جوهره بفضل تعبيره الفني الصادق ، ولعل هذا الذي يسميه مالرو « الانسانوية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى ان الفنان ، والبطل والقديس يتغلبون « بفعلهم » على القدرية ، ومن لم يؤكدون انفسهم كبشر في المجتمع المعاصر .

وكلتا التجربتان لمالرو وسنجور تلتقيان في نفس المجال : المعايشة لأحداث الحياة ـ فالفن مثل الثورة كل منهما مجال شاسع أي حقل واسع النطاق الى أبعد الحدود . فهناك صورة تأتي من الفن وهناك صورة تأتي من الحياة ولكنهما تلتقيان وتلتصقان التصاقا وثيقا في مخيلة المؤلف .

ولنأخذ مثلا على ذلك في رواية الامل : ونذكر كيف ان « مانويل » (Manuel) أي البطل كان اثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صوره مالرو « كان ذات الجسد الممتد مثل الرسوم البارزة على المباني العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة السير الأزلية منذ بدات هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **اشجار الجوز بالالتنبرج** » هو الذي يعبر عن فرحة جموع المساجين والصحة وعلامات السعادة التي كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تماما هذا الشعور في رسومات بروى (٥٣) .

ويأتي هنا دور المتحف الخيالي كما كان يروق لمالرو ان يتخيله . فأي متحف في العالم هو من أكثر الأمكنة التي تعكس عظمة الانسان . فهو يفرض على المرء ان يتساءل عن معاني هذه التحف الفنية التي تعرض في المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء عن رسالة الفن نفسه .

والمتحف الخيالي الذي بدا في مخيلة مالرو بدا فعلا بجسده قبل وفاته عن طريق افتتاح متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والخزف .

والمتحف المثالي هو الذي يشمل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الاساسية الرد على المتطلبات الجمالية المختلفة الكامنة في اعماق البشر والتي تعبر عن تراث عريق في كل مراحل البشرية ، وهل هناك اجمل واسمى من تعارف الشعوب عن طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بونابرت في ايطاليا لم تستطع ان تحضر الى فرنسا سقفا فيه الفاتيكان الى اللوفر ـ بينما ان مجرد عرض الموناليزا (أي الجو كوندا) لليوناردو دافنشي في اللوفر مثلا جعلت حضارة النهضة الايطالية تزدهر وتترعرع في عقول الفرنسيين عبر الاجيال حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفني مثلا .

ونضيف هنا نحن مثلا آخر : ان ما تركه معرض توت عنخ آمون المتنقل في أوروبا وامريكا منذ سنوات قليلة من تأثير واعجاب وتقدير في نفوس كل الذين شاهدوه اكثر بمراحل من دوى أي انتصار عسكري ، أو حتى ما يعمله النشاط الاعلامي والسياسي على الصعيد الدولي من أجل معرفة مصر ، ومتابعة قضاياها .

---

(٥٣) بروجيل (بيير) (Purre Brueghel) رسام فلامنكي من القرن السادس عشر مشهور بالقائه للوحات الجمالية التي تعبر عن مشاهد قطيعة ورهيبة تختلط فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرا في العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها عن بعض وبالتالى فرسالة الفن هى اسمى معانى الرسالات ، وتأتى فى تقدير مالرو فى المرتبة الاولى قبل الديانات الســماوية وقبل الايدولوجيات السياسية ، لأنه أصدق تعبير حضارى عن العمق الانسانى فى البشرية .

ولذلك يتعين ان يكون الفن الحديث حلقة تربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كى يصـل الى المفهوم العصرى فى تكامل الحضــارة العالمية .

فنظرتنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب ان تكون نظرة احترام وتفتح واعجاب لان كل مايعبر بصـدق عن بيئته يستحق ان يعامل باحتـرام وتقدير وهذا هو الأهم ، يستحق أن نقف عنده فنأخذ منه ونعطى له فى حوار مثمر أخوى مثير انسانى .

ان كل ابداع فنى يكشف عن امكانية البشر فى تخطى العصـور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختفت او ماتت فان فنها لم يمت . فمثلا كما يقول مالرو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصرى القـديم او الفراعنة لكننـا نعلم الكثير ونتجاوب فعلا مع الفن الفرعونى القديم ، فنجد التماثيل المصرية فى متاحفنا بفرنسا » .

وهكذا نرى على حسب نظرية مالرو ان الفن يخلق لنفسه قيمه الاساسية بل قيمه المطلقة . ولعل اهم هـذه القيم هى كما ورد مـرارا على لسان مالرو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالفن يرفض العدم والعبث الـذى يهدد الانسان فى العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والأشياء فى عالم جمالى مســتقل ، متماسك ومميز .

وهكذا فان الفن ما هو الا بعث وهو الشيء الوحيد الذى يمنح للانسـان فى هذه الدنيا فالقدر يكسر ، والزمن يغير ، أما نحن البشر فبفضل الفن فنختار وندوم فنحيي انفسـنا من جديد خلال اعمالنا الفنية . . . .

ان الثقافة فى تقدير مالرو فى أوسع نطاق لهاهى تراث فكـرى فنى وخلقى ويصــفها مالرو كالآتى :ـ

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالمية تبدأ فى الظهور لنا فى شكل مغامرة تماما كعلم الفيزياء الذى هو مغامرة لغزو العالم الحديث . فلنذكر أن علم الفلك عاش قرونا باكملها بينما قيل فى قليل من الوقت أن الارض لا تدور ، كذلك الحال بالنسبة للثقافة الحالية التى ولدت لنـا تساؤلات موجهة تنبع منها ارادة قوية فى ازدياد تدارك الانسان لمعنـى حياتـه علــى الارض » (٥٤) فالانســان هو اللغز الاساسي فى الكون .

---

(٥٤) 31 mai 1952congris de l' Oeuvre du XXsicile sur La Culture. (Paris)

مؤتمر حول الثقافة ٣١ مارس ١٩٥٢ (باريس).

ويمكننا ان نقول ان مالرو قطع اكثر من نصف الطريق بحثا عن الانسان ، اما سنجور فقابله في النصف الآخر الذي قطعه هو كي يلتقي بالوجه الآخر للانسان المعاصر اي الانسان الغربي فاكد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الاسود انه لا يمكن ان تقوم حضارة الا اذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصا تلك التي نعرفها بالحضارة الغربية والتي على شبه النقيض من الحضارة الافريقية ، ولكن هذا هو سير الكون نفسه الذي يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالابيض على النقيض من الاسود ولكن لا بد من وجودهما في الحياة سويا

والليل عكس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضادة لازمة لتكوين الكون في مداره وفي فلكه وفي حركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : ـ

« لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٥٥). (صدق الله العظيم) .

وهذا بالضبط ما يعتقد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث عن نظريته ، اي السكينة التي يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فالزنجي بطبيعته كالرجل الشرقي لا يعرف القلق والضياع في الدنيا لانه يتلاءم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذي خلق السموات والارض وكل ما عليها وان كان يحدد بالضبط اسم الله سبحانه وتعالى باسم « مونتو » الاعلى ومونتو يعرف عند الرجل الاسود بكونه اعظم رجل واكمل الرجال خلقا وشكلا ولهذا فهو يستحق العبادة وهو اقوى الكائنات فخلق كل شيء وكل شيء في مكانه ويؤدي وظيفته على خير وجه . فلا تمرد ولا الشقاق ولا قلق في حضارة الرجل الاسود حتى جاء اليوم المشئوم الذي سحق فيه الرجل الابيض كل شيء واقتحم البلاد واستغل اخاه الاسود اسوا استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث، فدنس المقدسات وحطم الحضارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوما ان ينجلي ولا بد من يقظة شعوب افريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فتبنى الحضارة الجديدة للانسان المعاصر هذا هو بعينه خط سير الشاعر الاسود حتى يلتقي فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

اذا كان اندريه مالرو قد رحل كثيرا بعيدا عن بلاده باحثا عن مفهوم جديد لحضارة الانسان المعاصر فان الجواب على بحثه يوجد بافريقيا حيث تعلم ان الفن يعبر عن الانسان ، حيث تعلم الانسان ان يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده في هذه الدنيا .

« لا يجب ان يبدا نحاتونا في نحت اقنعة حديثة على ذوق اوروبا ، انك على حق ! ولكن الشيء الذي يجب ان يكون هو ان يحس نحاتونا انهم في منتهى الانطلاق ، في مجال الفن العالمي

---

(٥٥) الآية ٤٠ من سورة يس .

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا ان قوة الانفعال والتاثر بالشيء (التى هى أصدق تعريف لكلمة افريقيا نفسها) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ، نقطة امتيازهم عن الآخرين فى مجال الفنون . ان الاقنعة سوف تموت يوما ولكن افريقيا سوف لا تخضع ابدا الى الفن الأوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك فى الطبيعة وفى كل بقعة بها وجود للانسان وسنتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

« فى ذات يوم انزعج سرطان البحر (٥٧) العجوز « كو كروفو » من زوال الحكمة فى العالم ، فلا احد يعير لها الاهتمام الكافى ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كو كروفو » ان تجمع كل الحكمة ويضعها فى حبة قرع كبيرة ثم يصعد بها الى اعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكى الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كوكروفو » من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده الضخم ولذا فالقى بحبة القرع من فوق الشجرة فانكسرت الحبة وتبعثرت فى ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة او اقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تعلل درجة حكمة الشعوب ورقيها واصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص فى امرين :-

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ، والايمان بالانتماء المطلق الى ارض الاجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكى يكمل الحكمة المطلقة التى هى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية اخرى .

فموقف سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين :-

الشق الاول : الانتماء الى الاصل العريق للانسان الاسود بكل مظاهر هذا الانتماء السامى ، الفنى والفلسفى .

الشق الثانى : هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر .
ورأينا ان كل ما كتبه سنجور هو افريقيا ، اى ان انتماؤه مطلقا على الصعيد السياسى ، والايديولوجى ، والوجدانى والفنى ...

وبوفاء مطلق استمر الشاعر الاسود على مدى اكثر من اربعين سنة فى نشر حججه ، غير مبال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر - فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة فى بلد متخلف وفى قارة فتية خضعت قرونا طويلة للاستعمار الأوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والامية ، والامر من هذا ذل الاستعمار ! كيف يكون استرداد

---

(٥٦) زوار مارين ص ٢٤ .

(٥٧) ويعرف بالفصحى باسم « السلطعون » .

الكرامة وتتم استعادة الحرية واحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل الا في الثقافة اولا ، فالثقافة سلاح الرجل الاسود ولكن اية ثقافة ؟ الثقافة التي تعتمد على تكامل وشمول الثقافات وبالتالي ايجاد الفرصة للرجل الاسود لاسترداد مكانته الصحيحة في المجتمع العالمي المعاصر الذي يطعمه الكثير ولكن ايضا يستفيد منه اكثر .

فلا يمكن لمجتمع ينادى بالعالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة ومجلس الامن وما الى غيره أن يتجاهل الغرب مثلا وجود العالم الثالث التي تعبر القارة الافريقية اهم عنصر فيه . هذه القارة التي حتما ستلعب دورا هاما في مسرح التاريخ القادم على الصعيد الحضاري كما تنبأ بهذا الدريه مالرو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديرا هائلا مدويا يأتي من اركان الارض سوى اوروبا ... » وفي نفس الوقت يعلن عن جنازة عالم قديم ترى هل ينبيء بقدوم افريقيا ... ؟

افكر في طائرتي عام ١٩٥٩ التي كنت اجوب بها فجرا مستنقعات التشاد التاسعة ؟ افكر في الجندي الاسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا يوم ١٤ يوليو بتوزيع اعلام اتحاد دول افريقية المستقلة ... افكر في الرئيس سنجور ــ وفي الزنوجيه التي كان يعلنها على الملا ...

... ان سنجور ايضا تنبأ بالدور الذي سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ في عام ٢٠٠٠ هل سيقف العالم الثالث امام الحضارة التي تغزو القمر والمريخ ثبثنا فشينا بها ؟

ان مالرو اذن مثل سنجور لا يمكن ان يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين الا وهي تكامل الحضارات ومزج الاجناس المختلفة التي فعلا تنادى بعضها البعض بسبب هذا التناقض.

ان عطاء الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وتفتحها ويوجد السكينه والسلام في سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التي طالما تغنى بها سنجور في شعره ، لم يعد من الممكن ما يعتقد سنجور انه حتى على الصعيد الداخلي لاى بلد أن تتجاهل بعض الحقائق الخاصة بالانسان المعاصر .

« ... ان ندرس الانسان في ماهيته فقط فلا نعود الى اصله وجنسه وتاريخه وبيئته وجغرافيته ، فهذا موقف خاطيء ومائع وغير واقعي ان كارل ماركس عرف الانسان على حسب نظرية العلم الحديث بانه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون في الطبيعة وبواسطتها في المجتمع المحيط به وبواسطته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه واخذ به دائما في انه يعيد الرجل الاسود على كل المستويات الى الجماعه الاساسية التي ينتمي اليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

---

(٥٨) اشجار الزان التي تقطعها .

(٥٩) Senghor : Pierre Teilhard de Chardin au la politique africaine p.25

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذى كان العدو الاول والذى اصبح اهم صديق . وبذلك تتحقق فى افريقيا نفسها اولاما ينادى به مالرو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » (L'Africanite) خليطا سعيدا موفقا بين الزنوجيه (Negritude) والعربية (Arabite) والخطوط التاليه هى تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من ان تعطى وتمنح دائما حتى ايامنا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من ارض افريقيا .

آن الاوان اذن ان تتمتع افريقيا الان بثروتها اولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزدهر فنونها العظيمة لتعرف للعالم اجمع انها اصدق تعبير للانسان فى البحث عن ذاته وعن وضعه فى العالم ، لم تأخذ من الحضارات الغربية مايلائمها وما يتوائم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولاتحاكى ولا تقلد تقليدا اعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار « الثقافة » ان ابشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الذهنى الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد . »

وكثيرا ما يحذر سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع فى هذا الفخ المريع الذى ينصبه لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت متفتحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتلطخ علينا لطخا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولاتراعى البيئة والظروف التى تعيش فيها ولذا ـ يصبح الرجل الاسود عبارة عن مجرد دميه هزيلة تقلد تقليدا اعمى كل ما يفعله الغربيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرهـا لا يتلاءم مع هذه الحضارة . ثم ان هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ فى الاعتبار فحتى اذا حدث ان قلد المرء شخصا آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحتقار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسى اصله لا أصل له على الاطلاق ؛ وبالطبع يصبح موضع سخرية واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا فى مجتمعه الاصلى ولا فى المجتمع الجديد الذى يحاول ان يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال فى افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصيا منها عندما تدارك الموقف فى صباه وحس بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالمية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه اسود وان موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تتلخص فى الآتى : ـ

ان سنجور شاعر اسود ورجل ثقافة فرنسى ...!

والثقافة هى شغل سنجور الشاغل فهو مؤمن تماما بأن الثقافة هى التى تصنع الشعوب ، وتكون الرجل ، وبالتالى يصنعها الانسان وانتصر بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الاخر ، وتذكر انه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ بأصالته » وطعمها بثقافة الفرنجة» وربما هذا الذى انقذه هو اولا الاعتزاز بأصالته

وثانيا تفتحه المطلق على كل حضارات العالم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هي انسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير في هذا الشأن .

ولقاء الانسان بالانسان يكون اولا مع ابناء الجنس نفسه ولكن يمكن لمعنى الاخوة ان يمتد فيشمل رفاق النضال في مأساة واحده وضد عدو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى في هذا الموقف من روايته « المصير الانساني » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسه للآخر ولكن يتم لقاء الاخوة في همسة او لمسة يد ، وهذا هو مانراه في قصيدة سنجور : البحر الابيض المتوسط : (٦١)

« واردد اسمك : ديالو !

ويدك تشد على يدي ، وافكارنا تتلاقى في نصف الليل ، ليلك ، ليل لغتينا الشقيقتين .

كنا في البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الاجناس الفاتحة وزرقته لم تر عيناي مثلها في المحيط وابتسامته على مليون شفة من الضوء الناصع . . .

. . . وكنا نتحدث عن افريقيا وكان النسيم الدافىء يأتي لنا برائحة الخلاية اكثر دفئا من روائح المرأة السوداء . . . .

كنا نتحدث عن الوطن الاسود في السواحل الجبال وكتفانا تتجاوران في اخوة ومحبة فكانت افريقيا تعيش هنا على مرمى الافق بوجهها الاسود المضيء . . . وكنت اردد اسمك : ديا للو .

وكنت تردد اسمي : سنجور »

ان فكرة الاخوة في افريقيا السوداء عريقة منذ الازل ، وهي مرتبطة بالتراث المعنوي والديني والروحاني ومفهوم الاخوة في الشرق الاوسط او بمعنى اصح في البلاد العربية توغل عن طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقيا السوداء وهذا المفهوم مرتبط بنظام الحياة البدوي القبلي ، فالانتماء الى القبيلة يقوي روابط العم والخال والقريب والنسيب . . . ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التعرف على شخص بمجرد ان يذكر انه ينتمي الى شخص آخر معروف لدينا ، فالتفاخر بالنسب والانتماء القبلي والارتباط الاسري والاحساس بالاخوة وكل معاني الرجولة والشهادة ، والسعي لنجدة الآخرين في وقت الشدة في كرم : كل ذلك يعتبر من العلامات المميزة للتراث الحضاري الافريقي وكثيرا ما تغنى شاعرنا سنجور بهذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصبا ورفيق الكفاح : الشاعر ايميه سزير (٦٢) يقول له في قصيدته الشهيرة : **خطاب الى شاعر :**

---

(٦٠) S : La Nigigritude est un humanisme

(٦١) S : Hostes Neries (Miditerrance)

(٦٢) اغاني الظلال : (S : Chants d'Ombre Letter a un poete).

« الى الاخ الحبيب والصديق ... تحية وسلام جاد واخوى ...

سانتظرك ـ .... »

ان معنى الاخوة يتخذ اقصاه عند سنجور حيث يشعر الشاعر بانتمائه الى ابناء دمه فى المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كل اصدقاء الاسر ايا كان لونهم او جنسهم او عقيدتهم .

فالتضامن الانسانى لمواجهة موقف صعب او محنة هو الذى يربط بين المرء واخيه ، وهو الذى يميز الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتد احساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم او نظام قامع غاشم : ولذا فيرى سنجور فى معنى الاخوة اعمق الابعاد فيقول عن رفاق الاسر :ـ

« مختلفى الملامح والهيئة والملبس والعادات واللغات ، ولكن فى عمق الا عن نفس انشودة الالم تحت الجفون المريضة .

فالكافر والكابيل والصومالى والموريتانى والفانى والفيتى والبامباره والبوبو ـ والماندياجو اخوة .

وليد الرماة وعامل المناجم والفلاح والحرفى والطالب والقناص وكل العاملين البيض فى النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستورى ، وعامل الميناء بليفربول واليهودى والمشرد من المانيا ودوبون ودوبوى وكل ابناء سان دونى » (٦٣) نفس الموقف الانسانى يتجلى ويتبلور فى اعمال مالرو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين (٦٤) فى السجن .

فعندما مات كيو على ايدى قوة الصينين عرف كاتوى معنى الياس والرعب فكان يتخيل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم ايضا ما بشاعة مصيره هو ايضا والزملاء الذين التقى بهم فى هذه الزنزانة الكئيبة السوداء الضيقة فبدا يشعر بالوحدة المريرة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد ان يفعل شيئا من اجل هؤلاء الذين يتقاسمون معه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئا ولكن يحس بوجودهم من انفاسهم المضطربة فقط . فكان يرجح انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة فى الزنزانة ولذلك قرر ان يتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسه من المصير المحترم الا وهو جريمة الزرنيخ التى كان يحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان يأتى الجنود

---

(٦٣) من ديوانه : القرابين السود : Hosties Nories

(٦٤) القدر الانسانى .

فينفذوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من ان يوقظ انتباه الحارس فهمس لسوان وهو الوحيد الذى كان يعرف اسمه قائلا هيا ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرعة الزرنيخ الخاصة بى فور ان تصل يدك الى جسدى كن حذرا فليس عندى الا لاثنين فقط » .

وهكذا ضحى كاتوى بنفسه فى سبيل انقاذ اثنين من التعذيب المهين والهلاك فقدم نفسه للهلاك بدلا منهما واعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايديولوجى وبين معايشة حياة الجماعة . ولذلك فما اكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع اى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الاخوة مطلقا وملموسا .

فبينما يرى « كيو » (Kyo) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامه نجد ان هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة لـ « كوتينج » وهو بطل آخر فى نفس القصة — الذلة والاستبعاد وبينما يرى الابطال الآخرون « بيبيه » و« هملريش » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » ان هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والتعصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب — السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالفرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتقار » (٦٥) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحائط فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء اخويا يأتى اليه من اى مكان ، ولذلك ايضا نستطيع ان نقول ان تلك الضربات انما ترمز الى ايمان مطلق بالاخوة البشرية .

وعندما يسمع فانسان بيرجيه (٦٦) رجال الاعداء يتحدثون فى الظلام فاصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه اصوات الالمان ، ولكن تعنى صوت البشر اجمعين .

« ولاول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع ابو الشعب الالمانى الشعب فقط ، وبما الرجال اى البشر » .

فالدم الذى يربط بين الذين يتحدثون والذين ينصتون ليس دم قومى وانما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتتلاشى امامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبت منه شعور القلق وشعور الاخوة معا ويلتقيان دون فصل بينهما بانطلاق الى ابعد الحدود يأتى من اعمق اعماق الدهر » .

---

(٦٥) La Temps du Mepris

(٦٦) اشجار الجوز بالالتنبرج : Les Noyers de l'Atenburg

وبهذه الطريقه يكشف لنا مالرو عن مفهوم الصداقه او الاخوة التى يلتقى فيها المرء باخيه فيشعر انه انسان امام لا انسانية القدر . ويتمثل ذلك فى هذه الروايه **(اشجار الجوز بالالتنبرح)** فى اطلاق الغازات السامة على العدو وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن، وهاهنا نجد الرمز القوى الذى يرمز الى صلابة الشعور بأخوية الانسان يتجسد لنا فى شماخة اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدية بذلك كل التحديات ولذلك نجد ان بطل الرواية ـ فى نفس اللحظة ـ يتذكر تلك الاشجار العريقه التى تحيط به ـ فى الريف ـ من كل مكان والتى تكتسب دائما صفة الابوة حيث انها لا يتحدد عمرها بالسنوات فهى نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وان كانت تحتفظ بلمسات الرفق عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تتحدى الدهر فى شموخها ومتانتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مالرو من ناحية ـ معلقا عن موقفه من الصداقة والأخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الوفاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المطلقة على مجرد موقف سياسى » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الأسود سنجور الذى يرى ان معنى الأخوة ليس فقط رباطا وثيقا باهله وابناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى انحاء العالم وذلك يبدو واضحا فى موقفه وعمله السياسى وخصوصا شعره حيث نجد اكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رأينا .

• • •

ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومالرو لتحقيق الذات واعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القدر والزمن والظلم ، والطغيان والعبوديه ، فالفن لغة الشعوب جمعاء ، لربط بين كل حضارات الكرة الارضيه ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمع ثقافه متحضر وانسانى .

وبالتالى نستطيع القول انه اذا كان عمل مالرو الفنى يسمى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » اى انه التعبير الوحيد عن حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقدر فى معظم ظروفها فان الشاعر الأسود هو الآخر يعتبر الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الأسود منذ الازل للتعبير عن ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعا وكما يقول سنجور دائما « يغنى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى افريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستديم لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير : ان الفن فى اعتقاد مؤلف المتحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى اى من الفنون التشكيلية : نحتا كان أم تصويرا ،

---

(٦٧) Le Musee Imaginaire

ام موسيقى فانما هو يوجد الحوار مع كل مايحيط به ، بل ان هذا الحوار يمتد الى الانسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفنى ، فان هذه التحفة تصبح تحفة لكل انسان فى كل مجتمع ، فهى تفسها فرضا ، أيا كانت المعايير والمقاييس التى تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملامح فكل منا يحمل فى أعمق أعماقه هذا النداء الشديد نحو الجمال الفنى ، نحو جمال الابداع بصرف النظر عن قيمه وعن حضارته ومن تكوينه الشخصى الذى قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض احيانا مع الحضارة التى ينبع منها ويتشبع بها الفنان الخلاق الذى منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة فى هذا الشان منها تحفا فنية من مجاهل افريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الاقصى ، وحضارة بيزنطه وامريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الاجيال والعصور والحضارات تعطى لنا تحفا لا يمكن البشر الاختلاف فى انها تحف ، والكل يجمع على قيمتها الجمالية الاستيتيكية وخصوصا الذين لا ينظرون اليها الا من الناحية الجمالية فقط مثل مالرو نفسه . فان العالم الذى تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا عن لغة مختلفة تماما عن لغتنا الفنية وعن التراث الذى خلقه لنا الاجداد ، ولكن هذه التحفة تتحدث الينا وتتكلم لغة جديدة هى نفس لغتنا لانها تتجه الى نفسنا العميقة التاملية ، وبالتالى تصل الى العمق البشرى فينا وتحرك فينا اسمى المشاعر اى الاحساس بالجمال امام روعة ما خلق الفنان والاحساس بالجمال وان كانت معاييره تختلف من حضارة الى اخرى .

بل فى خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث فى معايير الجمال عند الاغريق فمقاييس ربة الجمال نفسه فينوس تصبح الآن شبه مضحكة فى الحضارة الأوروبية الحديثة ـ الا ان هناك شيئا لا يختلف عليه وهو الاعتراف بمقدرة الفنان فى التعبير عن ما يجول فى نفسه وما يخطر فى مخيلته ، وهنا يأتى دور المتحف الخيالى الذى يجمع فى ذهن كل منا كل انواع التحف الفنية العالمية بحيث يجمع حضارة فنية مثالية متكاملة تشمل كل ما ينتجه الأحساس البشرى فى مختلف الازمان والقارات .

ان الانسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته فى العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وتراكم المادة وتوالى الكواكب ، وفى سجنه هذا ترجع عظمة الانسان الى انه يستطيع أن يستخرج من نفسه صورا تبلغ من قوتها انكارا للعدم واثباتا للوجود .... الانسان ! ملاح عظيم غامر بحياته تاركا قارة اوروبا القديمة متجها الى العالم باحثا عن اخيه .

اننا نعيش جميعا فى هذه السنوات الاخيرة عملية التطعيم او المزج هذه التى يتكلم عنها سنجور فمن منا لم يتاثر بالثقافات الغربية وبحضارة اوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربى والافريقى الذى يجرى فى عروقنا ، وبالتالى فنحن نحقق يوميا ما كان الأمل لمالرو وما هو الحقيقة لسنجور ، ولبى الشاعر الأسود نداء « بلد النبيذ الرطب والاغانى » (٦٨) كما يسمى فرنسا ، وسمع مؤلف **القدر الانسانى** دقات طبول التام تام فى اعمال افريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفنى خير سفير لكل انسان يود أن يبدأ الحوار ويرسى حجر الاساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارة الانسان .

---

(٦٨) من ديوان : اغاني الظلال : S : Chants d'Ombre

BIBLIOGRAPHIE

I—OEUVRES :

de **SENGHOR : Poèmes** (chants d'Ombre1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956 Nocturnes1961 - Poèmes Dicers - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

de **MALRAUX :**

...Des origines de la poésie Cubiste in La Connaissance lère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris è Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de l'Altenberg - Lausanne 1943.

...La Psychologie de l'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne,Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris -Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat... Lazare

La tête d'Obsidienne

—Oraisons funèbres - Gallimard 1975

—La Tentation de 1,Occident - Paris - Gallimard 1975.

—Saturne, essai sur Goya - Paris Galimard 1975

—Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.

—Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

—La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'irréel.

L'Intemporal

II — OUVRAGES CONSULTES :

—Piere de Boisdeffre : **André MALRAUX** (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955

—Pol Gaillard **Les Critiques de notre temps et Malraux** - Paris Garnier 1970
Malraux - Présence lit téraire 801 - Bordas 1970

—Gaetan Picon : **André Malraux** mf. - Gallimard 1945.
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955

—Pascal Sabourin : **La réflexion sur l'art d'André Malraux** : origines et évoluted. Klincksiek 1972.

—G.T. Harris : **André Malraux : l'Ethique comme fonction de l'Ethétique** - Letters Modernes - Situation 27 1972.

—Joseph Hoffmann : **L'Humanisme de Malraux** - Ad. Kilncksieck 1963.

سلوى محمد مطر

الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية في ١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد اندريه مالرو في الذهاب الى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولقد اكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ، اذ انه ذهب الى اسبانيا من تلقاء نفسه وقبل ان تقرر الدولية الشيوعية ارسال متطوعين للاشتراك في الصراع .

وكان الجنرال فرنكو FRANCO يسيطر في هذه الاثناء على جنوب البلاد ويشرع في الزحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالضباط الذين انضموا اليه .

ولقد تبين لمالرو – خلال بضعة ايام – انه من المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما اتضحت امكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق واعاقة زحف طوابير فرنكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشتريت تقريبا في أسواق « المخلفات » وبفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب « اسبانيا » ESPNA ، وهو السرب الذى سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة اشهر ، سرب « اندريه مالرو » .

واشترك مالرو فى ٦٥ مهمة جوية وحارب ضد طائرات موسيلينى الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو فى « مدلين » Medellin و « طليطلة » Tolede و « مدريد » Madrid و « جواد لخراه » Guadalajara واشترك اخيرا فى موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها احدى طائرات السرب ، غير ان مالرو تمكن من انقاذ المتبقين من الحادثة وارجاعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « اندريه مالرو » دورا هاما فى الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول انه بفضله قد تمكن الجمهوريون من اعاقة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وتثبيت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

وبعد ان انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود اكثر من ستة اشهر ، قام « مالرو » ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدورة اعلامية فى الولايات المتحدة حيث القى المحاضرات وجمع الاموال والمساعدات والتأييد لصالح الجمهوريين .

ان حرب اسبانيا التى اثارت كثيرا من العواطف والمشاعر ، اثرت ايضا على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلا ان التدمير الفاشى لمدينة « جرنيكا » Guernica قد الهم « بيكاسو » Picasso احدى لوحاته الشهيرة و « ارابال » Arabal احدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى احدى قصائده . وهى اعمال تحمل جميعا اسم المدينة الباسلة الصغيرة واثرت هذه الحرب كذلك فى « برنانوس » Bernanos الذى احنقه موقف الكنيسة الاسبانية فكتب « المقابر الكبرى تحت ضوء القمر » Les Grands Cimetieres sous la lune و « همنجواى » Hemingway الذى نشر بعد الحرب « لمن تدق نواقيس الموت » For whom the bell Tolls و « سارتر » Sartre **الجدار** de Mur **ومالرو ، بالاضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الامل »** L'ESPOIR .

• • •

وفى الفترة التى نشرت فيها رواية « **الامل** » كان مصير « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد اثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : اذ ان بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحربية لمناضل متطوع ، وبعضهم عده مؤلفا من مؤلفات « الدعاية الشيوعية » او نوعا من التقارير الصحفية الممتازة وليس من شك فى ان الاحداث التاريخية التى يرد ذكرها بدقة فى هذه الرواية تقربها من هذا الشكل الاخير من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو على « ايف سالج IVES SALGUES » الذى لاحظ ذلك بما يلى فى عام ١٩٤٨ :

« تقرير صحفى ، اجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك ايضا التفسير الفلسفى للاحداث اذ ان الحرب الاسبانية تعد بمثابة

الضربات الثلاث التى تعلن عن مأساة أوروبا : فهى حرب تجريبية بالنسبة للفاشست ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حرب الوهم الشاعرى بالنسبة للجمهوريين .. »

ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها من اجل الجميع ، ولا فرد من اجل ذاته ، ولم تتالق البطولة قط مثلما تالقت فى فوضاها التى تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلا سكيز ... (1)

تقرير عن الاحداث وتفسير فلسفى لها الان ، ويمكننا ان نضيف الى ذلك « المعنى الميتافيزيقى » الذى تتخذه هذه الاحداث بالنسبة للانسان . الا ان مالرو حينما يذكر لفظة تقرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفى بالمعنى المالوف ولكن التاكيد فقط على صحة الاحداث التاريخية التى يسردها فى روايته وهذا ليرد — بلا شك — على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفى هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال ماكتبه « اندريه روسو » فى جريدة « **الفيجارو** » :

« ان مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الا بتسخير قلمه لها ، وهذه هى نقطة ضعف رواية « الامل » التى تظهر للقارئ فى صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . فى هذه الرواية نرى كل الشعب الاسبانى وهو يدافع عن نفسه ضد مضطهديه ، اما اتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة من « البلهاء » المضللين . ولا نجد بجانب الجمهوريين الا ابطالا وشهداء ، اما من جهة الفاشيين فلا نجد الا مغاربة مرتزقة وايطاليين والمانا ...

وحينما شرع « فرنكو » فى ضرب مدريد من الجو فانه قصد الاحياء الفقيرة وتجنب الاحياء الغنية . الخ .. ايمكن القول باننى لا اريد فى هذا كله تمييز الحق من الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريخ الحرب الاسبانية وهو ايضا يفسد ثلاثة ارباع الرواية .. » (2)

وليس من شك فى ان السياق التاريخى يحتل مكانا هاما فى رواية « **الامل** » وهو امر مرده الى

---

(1) راجع : GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Plon, 1971, p. 237

والبوراكوس « Borrazhos » هم السكارى ، وتعد هذه اللوحة من اشهر لوحات فيلاس كيز Velas Quez فى متحف البرادو Prado بمدريد .

(2) ROUSSEAUX, Andret- Un anarchiste total in Le Figureo, ler Janvoier 1938

وهذه الدراسة عن مالرو قد عالجها الكاتب من جديد تحت عنوان :

ANDREM Malroux, ecrivain revolutionnaire in A. Rousseaux Litterature du XX sierle, t. II, ed Varietes, Montred, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك مقالة :

BRASILLACH, Robert- Lauserie Litteraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938

حيث قام « برازيلاك » بتوجيه نفس ملاحظات « روسو » ثم ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الامل » وهو يائس ، ويهديها الى زملائه فى « ترول » فى الوقت الذى سقطت فيه « ترول » .

الظروف التي كتبت فيها . ومع ذلك لم يقصد« مالرو » قط كتابة حوليات او تاريخ هذه « الحرب التي هزت العالم ... » (٣) ، الا اننا نلاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل عن ذكر بعض الاحداث التي وقعت في الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقي وصادق (٤) .

واما بالنسبة لغياب اي تعليق على« ايديولوجية » المعسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية في تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التي يثيرها في كتابه الا وهي انتصار الفعالية والتنظيم على« الحلم الفوضوي » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فرانكو » ما كان ليتحرج عن فعل ذلك وفقا لعاطفتهم الحقيقية وهي القومية .

« الامل » ليست اذن وثيقة ، بل عملا روائيا الفه الكاتب على ايقاع الاحداث التي دارت في اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، اي في خلال الاشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الوقائع التي يذكرها « مالرو » فهي : فشل الثورة في « مدريد » Madrid و « برشلونه » Barrcelone وسقوط طليطلة Tolede في يد القوات الفاشية ، القتال الذي حرر العاصمة ، سقوط « ماقا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريهويجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم في « جواد لخرا » Guadalajara . وهذه المجموعة من الاحداث التي تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الاول فهو ذو اسم معبر « الوهم الشاعري » L'illusion Lyrique وهو يعلن بوضوح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الامل » : التنظيم و « الابوكاليبس » او الحلم (٥) وصراعهما . فهل يستطيع حلم الاخوة الثوري ان يحقق النصر بمفرده ؟ وفي القسم الثاني « المنزناريس » Le Monzanares يتطور الصراع ويتغير

(٣) راجع مقالات : HUGES, E. Y. - The War that Roused the World
In Life, New York, 18 December 1961 and Ist of January 1962

(٤) راجع بالنسبة لهذا الموضوع :
WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la gurere d'Espagne. Porentruà (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث برهن « فيلهلم » على ان الحقيقة التاريخية للاحداث قد لقيت احترام « مالرو » الا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الامل » .

والغرض من هذه التناقضات ـ كجمع مثلا حادثتين في زمن واحد ـ هو تكثيف الموقف « المأسوي » لبطل الرواية .

ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تعالج اساسا الجانب « الفني » في الرواية مثل « وصف العمليات والاسلحة » ، « اللاحظات الجغرافية » و « الزمنية »... الخ .

(٥) كلمة معناها الاشتقاقي : « الوحي » وهي لكون : L'APOCALYPSE
عنوان الكتاب الاخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حنا الذي يشمل مجموعة الاحداث التي اوحيت اليه وخاصة عن نهاية العالم وحلول ملكوت الله . والكلمة تأخذ في رواية الامل معنى « الثورة » ، التي تعد الانسان بالحرية والكرامة والاخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والاخوة » ـ ولقد أبرز مالرو في كتابه : « اللامذكرات LES ANTIMEMOIRES » تفصيلة لكتاب القديس حنا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختيارا عشوائيا لان لها دلالة شبه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ ان البطولة وحدها لاتكفى حتى ولو تميزت بالفعالية ، واذ ان الدفعة الثورية لابد لها ـ لكى تنجح ـ من أن تنصب فى تنظيم . وفى القسم الثالث والاخير يتحد الحلم والتنظيم ليولدا الامل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبمان الكتاب يرتكز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت فى الطول الذى يميز الاقسام الثلاثة . فمن الطبيعى أن يكون « الوهم الشاعرى » اكثر الاجزاء طولا اذ انه يحوى موضوع التنظيم وموضوع الحلم وصراعهما ، والجزء الثانى متوسطا فهو الذى يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيرا لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التى لاتخرج عن نوع من التوازن المؤقت الذى يصعب الحفاظ عليه .

• • •

من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لمجمل العمل الروائي للكاتب ، تقوم رواية «الامل» منذ البداية على تمجيد القيمة التى تجلت فى عمله الروائى الاخر « زمن الاحتقار » Le Temps du Yepris ، الا أنه بينما يقبل البطل « كاسنر Kassner » الثورة برمتها ، نرى معظم المحاربين فى « الامل » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع المطامح الاولية التى املت عليهم تطوعهم . او بعبارة اخرى فان الوسائل التى يستخدمها التنظيم الثورى من أجل الوصول الى غاية محددة كثيرا ما تصطدم بالدفعة الاخوية التى حثت هؤلاء الابطال على الانضمام الى « القضية »؟

وانطلاقا من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء بالارتقاء بالسياسة والاخلاق ، والنظام والحرية وقضية الفعل الثورى : هل يسمح للانسان بتحقيق ذاته او الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقة التى كانت تصور لنا بعض الابطال الواضحى الفردية ـ خاصة بالنسبة لمفهومهم للحياة ـ فان «الامل» تقدم لنا جمعا من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك ان كل واحد منها يحمل هوية ، فهو اما فوضوى ، كاثوليكى ، شيوعى ، مثقف او مرتزق . . . ولا يهمنا الا بدوره الوظيفى فى الجماعة التى ينتمى اليها . ولكن بالرغم من كونهم فى الغالب « انعكاساجزئيا لشخصية جماعية مجردة »(٦) فانهم سرعان مايكشفون لنا عن شخصيتهم الفريدة المؤثرة . ومن بين هذه الشخصيات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويل MANUEL » اكثرها اهمية ، نظرا لبروزه دائما فى الصف الاول وتواجده من اول الرواية الى آخرها ، اما بقية المناضلين فانهم اما يقتلون واما يختفون مؤقتا من الساحة ليظهروا مؤخرا . كذلك يعد « مانويل »

---

(٦) هذا التعبير للوسيان جولدمان : GOLDMAN, Lucien

Pour une sociologie du roman, Paris, Gallimasd,'1965, p. 220

ولكنه يعبر ايضا عن وجهة نظر عديد من النقاد ، مثل لويس جيلليه

GILLET, Louist- L'Espoirtde in Les NouvelleI LitteraireI, 8 Janvier 1938

الذى يقول : انا لا اميز جيدا ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

اريد ان اعرف شيئا عن تاريخهم ، اريد ان اعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على مانيان او الميتيز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز فى التعريف ولايبقى لنا الا مجموعة من الخطب المجردة ، والاحاديث الباهتة ، الآتية من أقصى العالم » .

المناضل الوحيد الذي يتضح نهجه الثوري لماماق رواية « الامل » فنحن نعاصر فعلا تطوره التدريجي منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس» MONTPARNASSE اوربا عاطفيا مليئا بالحماس، الى ان صار ضابطا يقود فرقة من الجيش الجمهوري ثم شيوعيا ملتزما يسيطر على عواطفه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهي التطور الحتمي من « الوهم الشاعري » الى النظام كما توعز الينا بالمغزى الميتافيزيقي لهذا التحول .

• • •

اولا : « وحى الاخوة »

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها منفرقين . » **(الامل ص.٢٧٩/)** .

ان الاخوة الحقة تتدفق منذ الصفحات الاولى لرواية « الامل » وتجد لها وسائل تعبير عدة مثل المصافحات اليدوية وكلمات التحية التي يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الايدى التي تربت على الاكتاف والايدى المرفوعة بالتحية وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الاخوة . » (٧)

وفي مكان آخر من الرواية :

« كان النقابيون يتصافحون بالايدي ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كما لو كان كورسا مستمرا واخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعادة ، المتكررة او الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس في اخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بين الجموع وبين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الاحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

---

(٧) الامل ص.١٧/ L'ESPOIR, Paris, Gallimasd, 1967

(٨) موضوع الجموع الذى نراه في معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتسب كل معناه في رواية « الامل » . ويعقب على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد في كتب الفترة الثورية اكثر من التحام بين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل واسطورة الشعب » .

راجـع : PICON, Gaetan Malraux par lui -meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

(٩) رواية « الامل » ص.٢١/

وهي تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك اروع تعبير عن هذا الالتحام الذي نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك ان هذا الحماس الاخوي الذي يلهب احاسيس الجموع يعكس ايضا المواقف الفردية للابطال ، فلا الخلافات الفلسفية او السياسية التي توجد بين المحاربين بقادرة على كبت الشعور الذي يوحدهم ولا شيء يمكنه ان يقف امام وحدتهم التي يمليها المجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى ان الفوضوي « بويج » Buig الذي يكره دعاة المسيحية يتضح له حينما تجعله الظروف يحارب بجوار الضابط الكاثوليكي « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك في الفعل او النضال يلغي الكراهية ، ما دمنا اراهما : « اليوم وهما يحاربان معا في اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد ايضا عند المرتزقة ، وكثير منهم مثل الروسي « سيبرسكي » SIBRISKY طلبان يحارب شهرا باجر وشهرا بلا اجر « حتى لا نقتسم النقود ولا الاخوة » (١٠). اما الالماني « شراينر » SHREINER – الطيار القديم في سرب دبشتوفن – فانه بالرغم من تحطيمه طائرة اثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزقة والمتطوعين في اطار الابداع الخيالي ، فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الامومة بين النساء » (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التي توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها في الرواية، اذ بينما كانت الطائرة التي يقودها « مانيان » Magnin تحاول خلال مهمة في مايورك ان تتفادى الانوار الكاشفة والقذائف المعادية تبدو « صداقة السلاح لها كانها – تحمي جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب « انه لاول مرة منذ انطلاقهم بدأ هؤلاء الرجال يسرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما اجمل ايضا هذا الموقف الانساني : فلقد كلف « لوكلير » بتدمير طابور مدرع للفاشست ولكنه رجع الى قاعدته بذخيرته وحينما سأله قائده عن سبب ذلك بين انه فر هاربا وحينما حاول ان يبرر موقفه وبدا كالطفل العزيز متلعثما فان قائده « فارجاس » VARGAS لم يلمه « متألما لمحاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع علمه ان « لوكلير » لم يكن قط جبانا » (١٢)

وتتجلى هذه الصداقة التي تربط بين المحاربين في مشهد آخر بين « مانيان » Magnin و « اتينير » ATTIGNIES : اذ ان هذا الاخير ، الذي يخشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاشية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « مانيان » حينما يحاول ان يستنكر افكار ابيه ، يقول له مانيان :

---

(١٠) « الامل » ص ١٢٥/.

(١١) « الامل » ص ٦٨/. و٦٩

(١٢) الامل ص ٢٢٥/.

« الصداقة ليست في ان تكون مع اصدقائك حينما يكونون على حق، انها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ (١٣)

وفي موقف « مانويل » MAGNIN الذي لايحتقر الفارين من « طوليطلة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، انه يكاد يكرر امامهم قول « ماتيان » :

« ليس من الصعب ان تكون مع اصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » (١٤) ان صداقة السلاح ، كما يبدو لمناضلي « الامل » تتوثق عراها بسرعة وسهولة ، هكذا لايفترق « سيري » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ ان التقيا في الفرقة الدولية ويقول كوجان في هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطني صداقة برجل قط في مثل هذه السرعة » (١٥)

ولا شك ان النضال يوحي للجميع بهذا الشعور ، الامر الذي يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« انما تسمعه عبر النافذة ، باسيدماليان ، الماهو من وحي الاخوة ، وهو جد مؤثر واني لانهم ذلك : هذه الاخوة اعظم الاشياء تأثيرا على سطح هذه الارض واننا لا نراها الا نادرا » (١٦)

ولكن ما هو المعنى الحقيقي للاخوة ؟ انها اكثر من شعور جياش يتيح للانسان قهر وحدته ، انها قوة ترفع الانسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هي ليست ملجأ ضد الخزي ولكنها تتيح للابطال الذين يتناضلون مجتمعين ضد قوى الاذلال والاستعباد من بلوغ اسمى واكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين اضلاعهم ، والتي ماكانوا ليحسوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة اخرى ان الاخوة قوة تسمو بالبشر اكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم العجوز « باركا » BARCA في هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما اريد ان اقوله لك ، نقيض هذا ، اي الاذلال ـ كما يقول ـ ليس من العدالة في شيء . ان الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه في كتاباتهم السخيفة على جدر مكاتب البلدية : فنقيض المضايقة هو لا شك ، الاخوة » (١٧)

اذا كانت المضايقة هي الاخوة ، فان « كيو » KYO بطل رواية « القدر الانساني » La Condition Humaine يعلن الى « كوينج » KONING : « الكرامة نقيض المذلة » .

(١٣) الامل راجع قولة الان ان الصداقة التي لاتصمد امام اخطاء الصديق ليست بصداقة »
ALAIN, Props, Bibliothequen.r.f. de la pleiade, 1960, p.I.235

(١٤) « الامل » هذا القول يوضح مقالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هميرليخ » : « لا يجب ان نطالب الرفاق باكثر من طاقتهم »

LA CONDITION HUMAINE

(١٥) « الامل » ص ٢٨٥/٠

(١٦) « الامل » ص ٢٧٩/٠

(١٧) « الامل » ص ٨٩/٠

وهكذا نرى انه بتقريب هاتين الجملتين الاخريين يتحد معنى الاخوة مع معنى الكرامة وتصير الاخوة نفسها محل الكرامة . وهذه العلاقة بين الاخوة والكرامة يعبر عنها ايضا مؤرخ الفن « سكالى SCALI حينما يوضح « الفيار ALVEAR » ان الرجال اذا اتحدوا بامل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . ان هذا السرب في مجموعة لاعظم وانبل من كل فرد من افراده على حده » (١٨) .

وعلى هذه الشاكلة نرى الملازم « مورينو » MORENO الذى يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يحبسه الفاشست ويحكمون عليه بالاعدام . الا انه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « انك ، ايها الانسان ، لمثل رجل التزم بعهود فصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذى الحياة تتغير فجاة فتتغير الحقيقة التي تنتمي اليها » ، وفى الوقت نفسه الذى يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة يأتلف « مورينو » مع كل من يحيط به . وان هذا الائتلاف لقوى بمكان ان خذلان الماضى والموت لا وزن لهما في حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم أفطن اليه وانا اقدم ضابطا ماركسيا ، الا وهو الصداقة التي لا توجد الا في الجانب الاخر من الموت » . (١٩)

ولا يكتفى « مالرو » في « الامل » بتمجيد الاخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته في الوقت نفسه الذى سيطلعنا فيه على تطور فكرة الاخوة ، وتحت هذا المنظور ، يمكن القول ان هناك تطورا في فكرة الاخوة نفسها ، ففكرة الاخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة او طريق نجاة ، مثل ما كان الامر في روايته :

« القدر الانساني » La Condition Humaine

و « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris

بل ان الاخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الامر في حال نزول الطيارين الجرحى من الجبل :

استطاع فلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN احتيار خطوط العدو واعلام هيئة اركان حرب الجمهوريين عن وجود مطار فاشى ، الامر الذى يتيح لمانيان واعضاء سربه من تدمير مستودع وقود و ١٦ طائرة ، الا انه فى العودة تقوم طائرات المانية من طراز « هاينكلز » HEINKELS بمطاردتهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة ان استطاع « مانيان » MAGNIN وموروس MOROS العودة سالمين الى القاعدة اما طائرة « جارديه » GARDET فتتحطم بعد اصابتها ويقتل « سعدى العربى » SAIDI ويجرح كل من « تايفير » TAILLEFER و « ميرو » MIREAUX و « سكالى » SCALI و « بوجول »

---

(١٨) « الامل » ص . ٢٧٩/

(١٩) الامل ص . ٢١٦/

PUJOL وبشو « جارديه » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN أن يحدد بصعوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقتين المتطوعين لانقاذهم ..

وتم الانقاذ محاطاً بمظاهر رائعة حقا ؛ فلقد كان الفلاحون يسيرون في موكب خلف طابور الطيارين المصابين وهم ينتقلون من « فالديلينارس » VALDELINARES الى قرية « لينارس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذي عمق الالتحام ـ كما سبق أن اشرنا الى ذلك ـ بين الشعب الاسباني والمحاربين الاجانب . ان العطف الساذج الذي ابداه اهل الجبل نحو الطيارين والاحترام الديني الذي احاطوا به « النقالات » كانا من احدى هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، **فلنرجع الى النص :**

« كانت النساء وقد اثقلتها وطأة السنين تؤدي علامة الصليب عند رؤية الدم . لم رفع رجل يده نحو « جارديه » و « بوجول » ، واشار بعد ذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد في صمت وهي تشير الى الطائرة المحطمة والى الأجساد التي كان يظنها الفلاحون قد همدت » .

واوقف « مانيان » MAGNIN نقالة « جارديه » GARDET لحظة ليتأكد من أن صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الاخير بأنه يبصر .. يشعر « مانيان » برغبة في معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحرك وقد غاب نصف قرية « فالديلينارس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة « سكالي » SCALI مكان « مانيان » MAGNIN تقدمت امرأة عجوز مشدودة الراس في منديل أسود واعطت للجريح حساء في فنجان . كانت هذه المرأة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفنجانا يابانيا قد يكون اقيم ما عندها . وتخيل مانيان فجأة حافة الفنجان وهي تندس تحت ضمادات « جارديه » وقد رفعت لذلك . فقال للمرأة : يستحسن الا تعطي من حسائها الى من جرح في وجهه . واجابت هذه بوقار : ان هذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية » (٢٠) .

ووصل الموكب اخيرا الى « لينارس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجار الطرقات وامكانية تأثر الجرحى بسببها .. من جراء اهتزاز النقالات يسيرون وئيدا في خطى منتظمة ومتباطئة عند كل لفة ، وكان ايقاع السير من شدة ملاءمته للألم على طريق جد طويل كما لو كان يملأ هذا الأخدود العظيم ، حيث تصيح بأعاليه العصافير المتخلفة . بضربات متأنية على طبول في موكب جنائزي . ولكن لم يكن الموت هو الذي يتلاءم في هذه اللحظة مع الجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين السمر والنساء العاقبات الرؤوس في مناديل لا يعرف لها عصر تبدو مختالة كموكب نصر جليل اكثر من انخراطها في اعقاب جرحى » (٢١) .

---

(٢٠) الامل ص ٤٠٧/٠.

(٢١) الامل ص ٤١٠/٠.

وفى « ليناريس » وأمام وجه « جارديه »المشوه رفع الفلاحون أيديهم ـ تماما مثل فلاحى فاليناريس ـ فى صمت .

• • •

فى هذه اللحظات لا يسعنا الا ان نترك الكتاب جانبا حتى نتخيل بفكرنا هذا المشهد وقد نقله « مالرو » الى السينما ... ولنحاول اولا ان نقدم موجزا عن الفيلم الوحيد الذى انجزه مالرو وهو « الأمل » ليقدمه تحية الى الأخوة .

انجز هذا الفيلم فى برشلونه عام ١٩٣٨ ،(٢٢) اى فى خلال سنة بعد ظهور رواية « الامل » الا انه ليس تطويعا للرواية نفسها ولقد أطلق عليه« مالرو » تمييزا له من الرواية اسم « سيرا دى تروبل » SIEARA DE TERULE ولقد منعت عرضه فى عام ١٩٣٩ حكومة « دالاديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم الا ابان حكم ديجول عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية وللاستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية فى اول الحرب الأهلية نحو قرية ليناريس . ويحاول مناضلو القرية المجاورة « ترويل » ارسال ذخائر الى الفلاحين المهددين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل البدائية ... ويتقدم مزارع الى اللجنة المحلية ويقدم معلومات هامة عن الأراضي المعادية فيقوم القائد « ميتوز MUNOZ (المقابل لمانيان MAGNIN فى الرواية) بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليين فى تدمير القاعدة الفاشية ، وتتحطم طائرة عند العودة فيخرج سكان قرية من قرى الجبال لجمع المصابين ونقلهم الى الوادى .

واذا كنا نعجب الى اليوم لهذا الفيلم فلا يرجع هذا الى روعة تمثيل الممثلين ، اذا استثنينا « خوزيه لادو » JOSE LADO فى دور المزارع .. ولكن الى القيمة العالمية للفيلم . ان الحرب التى خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكر فى الفيلم والبواعث التى دفعت المناضلين الى حماية الوطن لا يشار اليها الا لماما، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه فى الفيلم على الأخوة التى تتولد فى الحرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

---

(٢٢) راجع بالنسبة للصعوبات التى لاقاها مالرو لتصوير هذا الفيلم اثناء الحرب

MARION, Denis Comment fut Tourni le film Espoir in Magazine Litteraire No. II, Octobre 1967

(٢٣) اذا فشل الالمان فى تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا فى تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو La Lutte avec l'Ange الذى لم يعاود كتابته .

(٢٤) اذا كان تمثيل الرئيسيين لم يكن متقنا فان دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات اسبان حقيقيون كان رائعا . ولقد قال اندريه جيد فى هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلم الان فخامة ونوعا من الوقار الوقار المأسوى . فليس به اى تنازل لذوق الجمهور او لما يسلى ويعجب . انه يتميز من خلال الاحاديث النادرة لابطال المأساة من خلال مواقفهم وتعبيرات وجوههم ومن خلال البساطة الجميلة للصور بهذا الشعور الكامن بكرامة الانسان ، وهذا الشعور يؤثر فينا بالقدر الذى يخص اناسا فقراء لا ينفصلون عن الارض التى يزرعونها ، فى داخل بنبالة موقفهم . انهم فلاحون متواضعون ولكن خطورة الحادث ترفعهم الى مرتبة الابطال ، والشهداء » .

راجع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, l'Aventure Humaine in Terre des Hommes, Ier December 1945

ونلاحظ ان الكاتب لم يستخدم في سيناريو الفيلم الا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهي الغارة التي قام بها الجمهوريون على مطار العدو الخفي والتي تبعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . ان المشهد المنقول الى السينما يقارب في قوته التأثيرية المشهد الروائي ويثبت تماما في مخيلتنا ، اذ انه بفضل اللونين الاسود والأبيض والتناقض اللوني بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القائمة من جهة اخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ امامنا طابع الأبدية :« وكان يبدو ان الموكب يفر من صمت الجبال القريب بصوت قباقيبه بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفي » (٢٥) .

الا انه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التي ترفع من شأن الرواية والتي يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظه الكاتب حينما كتب في « محاولة في سيكولوجيا السينما » : « يبدو ان الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهي القدرة على استكشاف سرائر الشخصية » (٢٦)

وانه ، بلا شك ، عن طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب في رواية « الأمل » ان يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لانه اذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدفعة الجياشة التي تغير من شخوصهم وتسمو بها ، فهي ايضا حركة سياسية لابد لها لكي تصل الى اهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمعنى هذا البطل او ذاك .

• • •

ثانيا : من الحماس الى النظام

« ان اي فعل لا يمكن ان ينجح الا باتفاق منفذيه ، وحينما تصدق عزيمتهم الى اقصى درجة فانهم لن يتفقوا الا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لأي تابع امكانية الحكم او المناقشة » . (آلان : اجايت ، ص ٥٦٢)

ان عالم الاجناس « جرسيا GARCIA » يعبر لأول مرة في رواية « الامل » عن ضرورة التنظيم العسكري . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب واخذ يناقش الاحداث الأخيرة مع « فارجاس VARGAS » و « مانيان MAGIN » انه يقول لقد احرز « الدوليون » نصرا عظيما في « ميديللين MEDELLIN » وخسر الجنرالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب .. ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان MAGNIN » يلقي على « بداخوز BUDAJOZ » اعلاما تحمل الوان الجمهورية استغل المغاربة فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع « جرسيا GARCIA » يؤيده « فارجاس VARGAS » ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد ان حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن ان تستمر الا اذا دخلت في اطار تنظيمي ، ويضيف موضحا :

---

(٢٥) الامل ص ٤١٢/٠

(٢٦) MALRAUX - Esquisse pour une psychologie du cinema, Paris Gallimard 1946, pas de pagination

« نحن نمثل الشعب ، اجل ، ولكن الثورة،لا ، بالرغم من اننا لا نتحدث الا من هذا . انني اسمى ثورة نتيجة تمرد تقوده كوادر (سياسية.فنية.وكل ما تريد) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكوادر التى حطمتها » .

باختصار ، يختم « جرسيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصاعدا ، لا يوجد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب،ولا توجد حرب من غير فن او تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان MAGNIN » قائلا بان« القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب يشكل جانبا ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بان« دفعة الاخوة » لا شك من اعظم الاشياء المؤثرة فى العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر الا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الاخوة يريد كل شيء وفى الحال ،ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل تدريجيا وبصعوبة . والخطر الماثل هو ان كل رجل يحمل فى قلبه رغبة او باعثا على الاخوة ، الا ان هذا الشعور يمكن مع مضى الوقت ومع استمرار النضال ان يكون مصدر هزيمة لسبب بسيط هو ان شعور الاخوة ، كشعور فى حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان ان له مستقبلا . ان وظيفتنا المتواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنظيم هذا الشعور » (٢٨) .

الاخلاق والسياسة ـ المثقفون والفعل

« اذا هاجم الثورة « مثقف » ثورى ،فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقياتها » . (الأمل ص ٣٣٤)

على شعور الاخوة اذا ان يتحول « والا قضى عليه بالفناء » ، اى عليه أن يتجسد فى قوانين التنظيم الثورى . وبما ان الثورة فعل ،« فالفعل لا يمكن تصوره الا فى اطار الفعل (٢٩)». وهكذا ففى اللحظة التى يقرر فيها الأبطال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون همهم الوحيد هو قيادة النضال بأكثر الوسائل فعالية . وبما انه « لا توجد خمسون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « ان تكون منتصرا » (٣٠)، فان الابطال عليهم ان يختاروا حتما اما التضحية بالفعالية فى سبيل المثل الاعلى واما بالمثل الأعلى فى سبيل الفعالية .

وفى بعض الاحوال ، يكون ، الاختيار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمثقفين لأنهم رجال يحسون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقيقة المجردة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط فى الثورة لانها ـ فى نظرهم ـ لا تعنى بالقيم « الأساسية » للانسان .

---

(٢٧) الامل ص ١٠٤/٠

(٢٨) الامل ص ١٠٧/٠

(٢٩) الامل ص ١٨٧/٠

(٣٠) الامل ص ٣٣٩/٠

(٣١) الامل ص ٣٣٥/٠

يعبر « الفيار » ALVEAR العجوز ، في المشهد الوحيد الذى كرس لـه ، على موقف المثقف ، اذ حينما يحاول « سكالى » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم الفيار » JAMES ALVEAR ان ينقذه من مدريد ، يرفض العجوز مفارقة كتبه فلقد عاش حياته كلها فى الفن ومن اجل الفن ولا يقبل لاية قوة ان تنتزعه من عالمه هذا. واذا حاول المغاربة او فيما بعد الجمهوريون قتله ، فانه لن يقاومهم « احتقارا » كما يؤكـد ذلـك لسكالى . ويقـول لمنقذه ايضـا : انهم سيجدوننى مثل الان فى مكتبتى ، و « هل من الصعب حقا ، يا سيد سكالى ، ان ننتظر الموت (الذى قد لا يأتى) ونحن نشرب فى هدوء ونقرأ اشعارا بديعة » ، ثم يتناول ديوانا لكيفيدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خالية التعقل ، هذه الخشية التى تتولد من تفاهات الحيـاة ، والتـى تغذيهـا الـروح بتقواهـا » (٣٢)

ان « الفيار » غريب عن الثورة بالقدر الذى يعتبرها تقوم هى ايضا على التعصب او على عقائد لا تقبل الجدال ، فهو يقول لسكالى : ما فائـدة عبودية اقتصادية اقل اذا اضطر الانسان لتحقيقها « الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ » (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل العجوز كما لو انها خلقت لتنزع اوهـام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، تلعب نفس الدور الذى كان يلعبه قديما العالم الآخر او الحياة الابدية .

« ان بداخل الانسان املا نقيما وعميقا ، امل الذى ادين ظلما ، او الذى لم يلق الا غبـاء وجحودا وجبنا فى هذه الحياة ... انه يود ان يعيد الكرة مرة اخرى ... (٣٤)

غير ان المناضلين سوف يلحظون ان عاجلا او آجلا ان اى حـل جماعى لا يعفى الانسـان من المجهود الخلقى ، فمن الضرورى ، كما يقول « الفيار » ان تكون علاقات الرجـال علاقات « انسانية » والا تكون محكومة بالموقف السياسى وان يكون الفرد « مسئولا امام نفسـه » (٣٥) ، وليس امام قضـية مهما كانت سـامية . ان « الفيار » يضـع قبـل الاحـزاب والتقنيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوما والذى يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الامل الوحيد الذى تعقده اسبانيا الجديدة على نضـالكم ، انت وجيم وكثيريـن آخرين هو ان يبقى ما حاولنا ان نعلمه للناس طوال سنين عديدة ..

ـ ماذا تعنى ؟ سأله سكالى .

فالتفت العجوز « الفيار » وقال بلهجة الحسـرة :

---

(٣٢) الامل ص ٢٧٦/٠
(٣٣) الامل ص ٢٧٧/٠
(٣٤) الامل ص ٢٧٨/٠
(٣٥) الامل ص ٢٧٨/٠

ــ قيمة الانسان .. » (٣٦)

الا أنه اذا كان « القيار » يريد الدفاع عن القيم « الأساسية » ضد متطلبات الفعل الثورى واذا كان لا يثق فى الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى أسباب ايديولوجية ، ان موقفه يتضح لنا فى آخر حديثه حينما يقطع « سكالى » كلام الاستاذ المسن ويسأله : « هل تعتقد أن « جيم » قد اخطأ فى اختيار النضال ؟ »

فيرد « القيار » : « ايه ! فلتكن الأرض فاشية ولا يفقد ابنى نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا أن موقف « القيار » تجاه الثورة انما يرجع الى ان واقع الفعل الثورى قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما أتت رصاصة على نظر ابنه فى احدى المعارك . انه يشبه شخصية « جيزور » Gisors فى « القدر الانسانى » La Condition Humaine أى أنه يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى أساءة الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما افهمنا ان « القيار » لم يعد يثق فى شيء او فى احد بعد ان فقد الأمل اذ حينما يخبره « سكالى » بان الأطباء يؤكدون امكانية شفاء ابنه ــ وجيم سوف يشفى فعلا ــ يصيح :

« انهم يكذبون على اى ضابط فى هذه الأونة !

مخافة أن يقال عنهم انهم فاشست لو قالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! » (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « القيار » على بال « سكالى » طويلا ، اذ ان الجانب الشمولى للفعل . الذى بدأت تؤكده تجربته الشخصية ، بدا له كما لو أنه يحقق تنبؤات الرجل العجوز ، ولقد أوضح عن خواطره امام « جرسيا » الذى قال له :

« لا اعرف أى كاتب قال : انا مسكون بالجثث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ اربعة شهور مسكونون جميعا بالجثث ، اى سكالى ، جميعا ، على طول الطريق الذى يقود من الأخلاق الى السياسة . اذ ان بين كل رجل يفعل وبين ظروف فعله صراعا دمويا ... وهناك حروب عادلة ــ مثل حربنا فى هذه الأونة ــ ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعدالة ولكن لا يوجد تنظيم عادل » . (٣٩)

وبعد أن فكر « جرسيا » فى حالة « أونامونو UNAMUNO الذى يرفض التطوع ويتذرع أمام الفريقين بالالزام الخلقى ، يقول : « اذا جاءنى مثقف ، أى رجل وظيفته التفكير ،

---

(٣٦) الامل ص ٢٨٠/٠

(٣٧) الامل ص ٢٧٩/٠

(٣٨) الامل ص ٢٨٠/٠

(٣٩) الامل ص ٣٣٩/٠

ليقول لي مثل « ميجل » : « أنا اترككم لأنكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا أخلاقيا ، يا صديقي العزيز ! » (٤٠)

« معارضة » أونامونو « اذا معارضة خلقية » (٤١) . ومثله يوضح طبيعة الصراع الذي يوجد بين المثل الأعلى الثوري وبين الوسائل المستخدمة لتحقيقه : وهي وسائل تستبعد تلقائيا المثقف من نطاق الفعل ، لأن المثقف بطبيعته ضد الثنائية :

« كل وسائل الفعل ثنائية لأن كل فعل ثنائي الطبيعة . وكل ثوري ثنائي وكذلك كل سياسي . » (٤٢)

وبعبارة أخرى ، ولكي نلخص وجهة نظر « جرسيا » نقول :

ان « اللاأخلاقية » بالنسبة لرجل ملتزم هي قبوله الظلم باسم العدالة ، أو تخليه عن العدالة مخافة قليل من الظلم أو لون آخر من الظلم ، وعلى الثوري الحق أن يخضع لمنطق الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذه الأحداث تتعارض مرحليا مع مطامحه العقائدية .

الكينونة والفعل ،

« اذا اردنا ان تكون الثورة اسلوبا للحياة من اجل ذاتها فانها تصير حتما طريقة للموت ». (الأمل ص ١٧٦)

ما فائدة الثورة اذن « حينما لا تصلح من حال الناس ؟ » يتساءل بقلق القائد الكاثوليكي « هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كل أسباني يتهيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرض فكرة « خلاصه » وخلاص أمثاله للضياع ، ولذلك فان ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات قدرة الثورة على حل المشاكل الفردية للمحاربين . اذ انه اكتشف ان الثورة « تجهل الآف التعهدات التي أخذتها على عاتقها » وانه ليس على الرجال أن ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر جرسيا GARCIA من جديد ، حيثما يعترف له « هيرنانديز » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم الثوري وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقية والمسائل السياسية :

« هيرنانديز » .. فكر فيما يجب أن يكون بدلا من التفكير فيما يمكن ان نفعله حتى ولو كان ما في مقدورنا أن نفعله ضئيلا . ان هذا الموضوع سم بلا دواء ـ كما يقول جويا ـ وهو موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكل انسان وموضوع لا أمل يرجى منه يا صديقي الطيب .

---

(٤٠) الأمل ص . /٢٢٨ .

(٤١) الأمل ص . /٢٢٧ .

(٤٢) الأمل ص . /٢٢٥ .

اذ ان الكمال الخلقى ونبالة النفس مسائل فردية لا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الا فكرة التضحية بذاتك » . (٤٣)

الا ان « هيرنانديز » لن يقبل قط من جانبه ، ان يفرق بين ما يجب ان « يكون » وبين ما يستطيع ان « يفعل » . ولذلك حينما يحاصر الجمهوريون منطقة « الكزار » ويطلب منه قائد فاشى توصيل بعض الخطابات الى زوجة « موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرنانديز » هذه المهمة عن طيب خاطر ، الأمر الذى يحير زملاءه .

غير انه يشرح لهم انه يفعل ذلك عن كرم انسانى لان زوجة « موسكاردو » مريضة .

وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يغمره الأسى حينما يرى الجنود يهربون أمام هجوم القوات المغربية، انه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته كقائد وسوف يحمى مؤخرته بواسطة مدفع رشاش :

« بدات مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بغير انتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام. اما « هيرنانديز » فما عاد يفكر فى شىء ، لقد اخذ يشد مدفعه على كتفه وكان فى تمام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرنانديز » بفضل حركته الفعالة ان ينسى مؤقتا ماساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤسر ، وفى السجن لا تساء معاملته لانه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذى يزيد من امتنانه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب ـ مثل زميل له ـ حينما يقاد الى منصة الاعدام ، انه « متعب لا يرى للحياة طعما .. أيجرى من جديد ... ومرة اخرى ... » . (٤٥) ان الموت فقط يمكنه ان يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الارض بشهوة ويقول : أيتها الأرض الميتة !لا يوجد ملل وسأم الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل ـ باسلوبه الخاص ـ « طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التى وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق الملكى » فى لحظة مغادرته للصين : الثورة ستتم او لن تتم ولكنه لن يكون احد روادها . الا انه مع ذلك ، فى لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو انه يصوب راى هذا الأخير : هل كان « كرما » حمله الخطابات العدو ؟ :

---

(٤٣) الامل ص ./١٨٧

(٤٤) الامل ص ./٢١٥

(٤٥) الامل ص ./٢٢١

(٤٦) الامل ص ./٢٢٤

« ما معنى هذا ؛ ما معنى نبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ . . . ان الشهامة هي ان تنتصر » (٤٧)

ان اعدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكاتب الجزء الأول من روايته لبالغ التعبير لانه يجسد نهاية «الوهم الشاعري». فهذا الصراع بين الاخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لذاتهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى اسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « **الكينونة والفعل** » عنوان يذكرنا بصيغة « جرسيا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء ما ، اما انتم المثاليون والفوضويون ، تريدون لاسباب مختلفة ، ان تكونوا شيئا ما . . . (٤٩) »

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضويين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضويين يريدون الفكاك من التزامات العمل المنظم الذي لا يأتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . فبالنسبة لهم ليست الثورة الا نضالا يسمح لهم بان يحققوا « كينونتهم » وبان يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالمهم هو التحمس ، هو هذه النشوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS ان يفسر الامور لصحفي الامريكي « شاد » SHADE ابان هدفه « **طليطلة** » :

« اذا كنا قد سحقنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، افهم ذلك) ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . انني لا احدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمني ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعي لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة او كنيسة او جيشا . اننا نريد ان نصنع رجالا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » . . . افكار يعبر عنها ايضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

---

(٤٧) الامل ص ./٢٢٤

(٤٨) نلاحظ ان هذا الصراع كان موجودا في رواية « الغزاة » اذ كان « جارين » يلوم « بورودين » على معاملته للرجال كأنهم « آلات » وعلى رغبته في « صنع ثوار كما يصنع فورد السيارات » !

(٤٩) الامل ص ./١٨٦ ـ نلاحظ ايضا انه ، منذ رواية « الغزاة » كان مالرو يقارب بين المثاليين (تشينج ـ داي) وبين الفوضويين (هونج) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما عقبة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الامل ص ./١٧٥ ، ١٧٦

(٥١) الامل ص ./١٧٨

منطقة « كاتالونيا » . لقد قام « بويج » اثناء تمرده برشونه » بدفع سيارة ضد مدافع العدو واستطاع ان ينجو من هذه العملية الجريئة ،وفي هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه عن باكونين ، كانت الثورة في نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا امل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثورات مثالية ، لذلك كانت كل مسالة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة وثبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففي محاولة اخرى مثل الاولى ضد الحواجز الفاشية لقى « بويج » مصرعه . . . وبذلك حقق ما يصبو اليه : ان يموت « باسمى طريقة ممكنة » بعد ان يعيش يوما « بكل احاسيسه » ولا شك أن هذا المطمح العظيم بالنسبة للفوضوى نوعا من « اللاقدر » ويقول « لو نيجوس » وهو يفكر في « بويج » على الارجح : « ان الرجال المصممين على الموت ، ينتهى بنا الامر بان نشعر بمرورهم » (٥٣)

ان ما يعنيه « لونيجوس » ــ **المتكلم باسم الفوضويين في الرواية** ــ بالاخص على الشيوعيين هو بالضبط « **خط** » العمل الذي يحدده الحزب ،والذي يمنعهم حينما تسنح **الفرصة من انجاز اعمال بطولية مثل عمل** « بويج » . وفي هذا يقول حكمة : « ان الذي يخشى **الموت** ليس ضميره مطمئنا » (٥٤) .

انه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين القيم التي يدافع عنها الجمهوريون ، **بينما هم** ، الفوضويون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيم منذ ثورة « الاستوريس » Les Asturies :

« ان يكون الانسان ثوريا ، بالنسبة لكم هو ان يكون خبيثا ، ولكن **بالنسبة لباكونين** وكروبوتكين لم يكن الامر كذلك بالمرة . انتم الاكم الحزب . الاكم النظام : **وبالنسبة للشخص الذي** لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة او واجب . انتم لم تعودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبعة اضرابات للتضامن فقط مع الاخرين وبدون اى هدف مادى » (٥٥) .

ويرد « براداس » PRADAS الشيوعي منددا على « النيجوس » LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الافضل ان تكون غير مخلصين على ان تكون عاجزين » فالفوضويون ، في رايه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم ان ينجحوا الثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم ، اما الشيوعيون فقد اثبتوا ، حسب قوله ، انهم الوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف في « بناء » الثورة ، ويقول ، مستندا الى حجج « جرسيا » GARCIA التى نعرفها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا تكون الجيش عمليا بسقائنا الحميدة وبعيوننا والجيش هو الذى سينقذ الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)

• • •

---

(٥٢) الامل ص ٦١/٠
(٥٣) الامل ص ١٧٦/٠
(٥٤) الامل ص ١٧٦/٠
(٥٥) الامل ص ١٧٧/٠
(٥٦) الامل ص ١٧٧/٠

يتضح من هذا ان الحزب الشيوعي هو احدى الوسائل التي يجدر استخدامها في الدفاع عن : قضية الجمهورية ، انه احدى الحقائق الواقعية التي تتبلور حولها الثنائية بين « الكينونة » و « الفعل » . الا انه يتبقى مع ذلك ان الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشبه كثيرا ما قامت ضده الثورة ، ومن ثم سوف يتجاوز الصراع حول مفهومي العمل الثوري الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هذا فالثورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل ان كرامة هؤلاء تظل معلقة حتى تتحقق الاهداف .

وهكذا نرى « مانيان MAGNIN » الواعي بدوره الرئاسي مضطرا الى اطاعة اوامر المنظمة وطرد « شراينر SCHREINER » الذي يشك في كونه مرشدا فاشيا . الا انه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية يعتب بمرارة على « اينريك ENRIQUE » احد زعماء الحزب ، لا انسانية اوامره ، ويعتقد ــ كما يعتقد « النجوس » ــ بأن الرجال لهم الاسبقية على الحزب (٥٧) .

غير انه في آخر الرواية سوف يحير جوابا امام « جرسيا GARCIA » حينما يذكر هذا الاخير ، اثناء تقريره لنتائج الاحداث ، جملة « لجيرنيكو GUERNICO » : « الشيوعيون لهم كل فضائل الفعل ــ وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونحن في هذه اللحظة نحتاج الى الفعل » (٥٨) .

ان « مانيان » لا يستطيع ان ينكر هذه البينة : « الفعل لا يمكن تصوره الا في اطار الفعل ... » . « فالفعل هو الفعل وليس العدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان MAGNIN » تجاه الثورة يذكرنا بموقف « روبيرت جوردان ROBERT JORDAN » في رواية « همنجواى » : « لمن تدق اجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS » فهو مثل هذا الاخير يترك فكره « معلقا » (٦٠) الى ان تنتهي الحرب ويمكن ان تنسب اليه ، ما يكتبه همنجواى عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات . وهنا في اسبانيا كان الشيوعيون يهيئون افضل نظام واعقله واسلمه لمتابعة الحرب ولقد قبل قيادتهم لمدة العمليات لانهم ، في قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذي يمكن احترام « برنامجه ونظامه » (٦١)

ان المخرج الوحيد الذي يتبقى اذا امام المحاربين هو تطويع انفسهم لضرورات الفعل وقبول اوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكري ... حتى ولو كان ذلك ايضا يناقض المبادىء

---

(٥٧) الامل ص ./١٢٨

(٥٨) الامل ص ./٢٧

(٥٩) الامل ص ./١٤٠

(٦٠) همنجواى ، في طبعة فرنسية :

E. Hemingway.Pour qui sonne le glas, ed. Heinmann 1968, p. 218

(٦١) همنجواى ، الطبعة المذكورة ، ص ./١٨٠

التى دفعتهم الى التطوع . وكما سيكتب « مالرو»بعد ذلك فى « اللامذكرات » Les Antimemoires انه منذ اللحظة التى يتبنى فيها المناضل قضية . فان هذا الاختيار يتضمن فى حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت المعركة مرتبطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انـه قـد لا يعـرف ان المعركة تتضمن تنظيما خاصا للفعل علـى الـذى اختار النضال ان يقبله فى نفس الوقت » . (٦٢)

المرور اذا من حالة الحماس الى النظام ،ومن العفوية الشعبية الى التنظيم التقنى يفرض نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الآن فى ان يكون الرجال شيئا ما ولكن ان يفعلوا شيئا ما ، حتى ولو كانت المأساة التي يشـارك فيهـا المحاربون تتصـل بمأسـاة اخـرى روحيـة .
وهكذا يتكون الجيش الجمهورى ، جيش الشعب الذى لم يكن موجودا فى البداية ، من خلال الالام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتيح للجمهورية الانتصار فى موقعـة « جـوادلخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جلل يصوب راى الذين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام.

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية فى داخل الاطار التنظيمى للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختيار الرجال ؟ علينا فى هذا الصدد ان نتتبع « مانويل » فى طريقه الثورى حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواعى بالفعل مع السعى الميتافيزيقى او الروحى للمناضل .

ثورية « مانويل » وايثار الفعالية .

« ان الشجاعة امر ينظم ، يحيا ويموت ،وعلينا ان نعنى بها كما نعنى بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة لشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL كشاب بوهيمى عين فى وظيفة مساعـد « لرامـوس RAMOS» سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، فى المقر المركزى للهاتف بالمحطـة الشماليـة فى مدريد . وكان « مانويل » قبل ان ينخرط فى جماعة الجمهوريين مهندسى صوت فى استوديو سينمائى اسبانى ، موسيقيا عالما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه فى بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضحة بجانب « راموس » و « باركا » BARCA ، ومثل جميع المحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشـاعريـة التى تتفتق بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همه وفكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشاعره الجياشة بالاخلاص هو تخليه للحرب عن « سيارته الصغيرة العزيزة » التي اشتراها ليذهب بها الى جبال السيرا حيث يمارس هواية التزلج على الجليد ، وبفقدانه هذه السيارة التي

(٦٢) اللامذكرات : A. MALRAUX - Les Antimemoires Paris, Gallimard, p. 1967 153

(٦٣) الامل ص ٢٨/٠.

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاة نحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هذا الليل الذي يجد به كل انسان ما يشغله على وجه هذه الارض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجه في السلك العسكري ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شعور الاخوة » وان ينظمه . . .

وهناك حادث في اول الرواية يوعز اليناب بهذا التحول في شخصيته : اذ بينما كان يشاهد منظر فلاح شاب وهو يخضب اصبعه بدم جندي مقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للفاشيين » تأثر جدا واعتبر هذا المشهد نقطة تحول في التزامه الثوري : « شيء ما تغير في داخلي ، ولبقية حياتي ، قال لراموس ، شعرت ، امام الشخص الذي يكتب على الجدار ، باننا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم ان بناء اسبانيا الجديدة لن يتم الا بتضحيات جسام من هذا المعسكر وذاك .

وكان ترقية العسكري سريعا ، اذ في خلال شهرين من بداية الحرب ، يضعه حزبه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكي « يمينز XIMENES » ليتعلم فن القيادة : وبدا « مانويل » الذي لم يكن منظما عن حب في الطاعة او رغبة في القيادة ولكن بالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفضل « النظام الفكري » الذي يتميز به . ان « يمينز » وكان مشددا حتى فيما يتصل بمسئولياته الخاصة ، قد بدا بتلقينه خط السير الضروري لزعيم الثوري وطبيعة العلاقات التي يجب ان تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكوين ضباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا امر طبيعي بالنسبة للانسان ، ولا افضل منه ولكن بشرط ان تفهمهم هذا : ان الضابط يجب ان يحب لطبيعة قيادته ـ حينما يكون دقيقا ، فعالا وممتازا ـ لا بسبب خصائص او مميزات شخصية . افهمني ، يا ولدي ، حينما اقول لك ان الضابط لا يجدر به قط ان يلجأ الى الجاذبية ! »

وفهم « مانويل » ، الذي كان يصغي باحترام ، ان « اعظم اقدار الانسان هو ان يحب من غير ان يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعان ما تبين له ان هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طغت عليه مشاغل القيادة الى ان صار « كولونيلا » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس ، ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو امر باعدام جنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وان كانت خيانتهما لم تثبت بشكل قاطع ، الا انه لم يعد يستطيع ان يفكر بطريقة اخرى .

---

(٦٤) الامل ص . ١٩/

(٦٥) الامل ص . ٨٢/

(٦٦) الامل ص . ١٥٢/

(٦٧) الامل ص . ١٤٧/

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكري وقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخبطا بين شعوري النفاق والاستنكار وغير قادر على القول او الفعل : فهو لم يكن يقدر ان الحكم بالاعدام يقود الناس الى الترجي والى الضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترجي ، وحينما يكشف له الضوء برهة عن وجه مجهول الى هذه اللحظة ، يبدأ يلمس فيه « الوجه الا يدى لمن يدفع دائما .... » ـ « اذن ، لم نعد ننطق حرفا من اجلنا » صاح الجندي(٦٨) . وتبين « مانويل » فجاءه انه طوال المشهد لم ينبس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار الى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد اعدم الرجلان و « مانويل » واثق من انه ادى واجبه ، الا ان ذكراهما وهما ملتفين حول ساقيه ما زالت تعاوده . انه لا يستطيع الرضوخ الى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويعترف « ليمينز » بقلقه :

« انني اتحمل مسئولية هذا الاعدام ، فلقدتم لانقاذ الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعني : لم يكن هناك حد تجاوزته من اجل فعالية اكبر وقيادة افضل الا وابعدني اكثر عن الرجال . انني اشعر بأن كل يوم اقل انسانية » (٧٠) .

ويحاول « يمينز » ان يواسيه وان يجد المبررات : « الانسان صغير جدا » لكى « يفعل ولا يفقد شيئا من الاخوة » ، ولكن هناك ـ لاشك ـ تعويض : « فان ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب .. » وكان « مانويل » يعتقد هذا الاعتقاد ، ولكن يتوجس احيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقربنا من الحزب لا يفيد شيئا اذا بعدنا عن الذين يعمل الحزب من اجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « يمينز » : ايه ! ماذا تريديا بني ؟ ان تحكم بالاعدام وتبقى هادئا .. ؟ انك تتعود حتى على هذا ... » (٧٢) .

ويتدخل الجنرال الروسي « هيربيج » HEINRICH لفض هذه المناقشات قائلا « لمانويل » :

« نحن نعمل على تغيير مصير الحرب . هل تعتقد انه يمكن تغيير الاشياء من غير ان تتغير انفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة في جيش البروليتاريا . ليس لك حق على نفسك... احساسك يمكنك ان تحتفظ به ، هذا امر آخر . ولكن لا بد ان تفقد نفسك مثل ما فقدت شعرك الطويل ونغمة صوتك » . (٧٣)

---

(٦٨) الامل ص ٢٣٢/٠

(٦٩) الامل ص ٢٣٢/٠

(٧٠) الامل ص ٢٤٧/٠

(٧١) الامل ص ٢٤٧/٠

(٧٢) الامل ص ٢٤٨/٠

(٧٣) الامل ص ٢٥٠/٠

وحينما يسأله « مانويل » عما يعنيه ، وهوالماركسي من « فقدان النفس » ، يوضح له « هينريخ » : « في كل حرب توجد خسائر .وليس فقط في ساحة القتال . . . والآن لا يجدر بشأن تشعر ابدا بالرحمة على رجل فقد » . (٧٤)

هذا التباعد التدريجي وهذه العزلة المتصاعدة عن الرجال يعبران ايضا عن طبيعة العلاقات التي كانت تميز حياة « مانويل »الخاصة ، فنحن نراه في بداية الرواية يعترف « ليمينير » بحبه العظيم (٧٥) لامراة تفصلها عنه تربيتها الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الامر الذي يؤثر عليه تأثيرا شديدا . . . وبعد بضعة أشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الفارين من « طليطلة » أتى الى الضابط العجوز وقال له :

« لقد ضاجعت في الاسبوع الماضي امرأة كنت قد احببتها سدى خلال سنوات عديدة ؛ وكنت اشعر برغبة في الذهاب . . . واني لآسف على ذلك ، ولكني اذا كنت اهجرها فلسبب : فنحن لا نستطيع ان نمارس القيادة الا لاداء خدمة والا . . » . (٧٦)

وهكذا يتخلى « مانويل » عن حبيبته لانها قد تشكل عقبة امام حرية فعله ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فعاليتهن في جانب معين من الحرب ، قد يؤثرن على عزيمة الرجال . (٧٧) « ان الحرب تولد العفة » ، كما يقول . (٧٨)وهذا يدفعنا الى مسالة هامشية ولكنها هامة : فلقد اتهم « مالرو » بعداوته للمرأة ، فالمرأة بالنسبة له وخاصة في أوائل رواياته مثل « الفـراة » Les Conquerants و « الطريق الملكي » La Voie Royale لا تمثل الا « القطب الاخر » في لذة الرجل . الا ان الكاتب يفسر هذا الموقف بانه يتحدث عن المراة « المحلية » وان ذلك تفرضه طبيعة البيئة التي تدور فيها الاحداث ،اما بالنسبة لعدم اهمية المكانة التي تحتلها النساء في مؤلفاته فان مالرو قد شرح ذلك «لبيير جالانت»ورد هذه الظاهرة الى نوع رواياته الذي يتطلب هذا اللون من البناء :

« في اللحظة التي تولج فيها ـ مثل همنجواي ـ قصة حب في نضال ثوري فاننا نهزأ بالناس، لانك اذا كنت في قصة حب لن تكون في نضال ثوري . واذكر « انه حينما قابل دانتون روبسبير في ردهات مجلس الثورة وقال له : « انت تخوننا يا روبسبير » ! افحمه هذا بقوله : « يا احمق ليس في مقدورنا ان نخون ونحن نمارس الحب . . . » . (٧٩)

وحينما نعاود قراءة بعض فقرات رواية « **لمن تدق اجراس الموت** » تتضح ملاحظة « مالرو » اكثر . اذ ان « روبيرت جوردان » الذي يغرم « بماريا » يعطينا احيانا الاحساس بان أوتيس

(٧٤) الامل ص ٣٥٠/.

(٧٥) الامل ص ١٥٥/.

(٧٦) الامل ص ٢٤٧/.

(٧٧) الامل ص ٨٢/.

(٧٨) الامل ص ٤٢٢/.

(٧٩) GALANTE, Pierre, op, cit., p.83,

يهمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا النحو يبدو لنا ، فى فصل الرواية المسمى «بالحب الارضى » وكانما الزمان معلق بالنسبة للحبيبين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد الا اللون الاحمر او البرتقالى . او ذهب الشمس المشوب بحمرة على عينيه المغمضتين ، وكان كل شيء بهذا اللون ، نعم كل شيء : الشمول ، التملك ، الرضا ، كانوا بهذا اللون وكان كل شيء يشع بهذا اللون . اما بالنسبة له ، فكان معبرا مظلما لا يؤدى الى مكان او الى شيء ، لا يؤدى الى شيء ، ومرة اخرى لا يؤدى الى شيء وهكذا بلا نهاية لا يؤدى ابدا الى شيء . متكئا بمرفقيه على الارض بلا هدف كان يطالع هذا المعبر المظلم اللانهائى وهو معلق طوال الوقت بعدم لا مخرج منه ، هذه المرة ومرة اخرى الى الا بد من اجل لاشيء ، الان ، آه ! لو لم نولد مرة اخرى من اجل لاشيء ، والان عبر كل ما نستطيع تحمله الى اعلى ثم الى اعلى ثم الى علو اكبر فالى لاشيء . فجاة « انبهار » ثم سعادة « علوية فاختفاء لكل ما كان مظلما وعدما ، اما الوقت فصار سكونا ابديا وكانا هما الاثنان هاهنا والزمان معلق يشعران بالارض تتحرك ثم تغوص تحتهما » .(٨٠)

• • •

واضح اذا ان هذه القطعة بمفردها تبلور ملاحظة الكاتب التى اشرنا اليها ، « فمالرو » على العكس من « همنجواى » ، ولكى يبرز الجوانب المأسوية للعمل يركز اهتمامه على العناصر الاساسية التى تكون عالم الحرب وهذا يتناسب تماما فى رواية « الامل » مع شخصية (مانويل) **فمن الطبيعى اذا ان البطل الذى ضحى بالقيم المباشرة فى سبيل القضية الثورية يبتعد عن المراة الحبيبة حتى لا تشغل باله عن عمله القيادى .**

ونلاحظ فى هذا الصدد حادثا آخر فى الرواية يدل على ان وجود المراة مضر ، بل وقاتل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جرنيكو » و « جرسيا » حوارا بين زوجة مناضل وزوجها تتردد فيه الزوجة عن مغادرة مدريد كما يطلب منها زوجها : « يقول انه على ان اغادر ، اخذت تندب حالها . يقول انه لا يستطيع ان يحارب اذا كنت هنا . . ولكنى لا استطيع العيش اذا علمت انه يحارب هنا . . . حتى ولو لم اعرف ماذا يدور . . » ويعلق « جرسيا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلهن سواء . اذا رحلت فسوف تتحمله فى كثير من الالم ولكنها ستتحمله ، واذا بقيت فسوف يقتل(٨١) »

على النقيض مما يدور فى روايات « الطريق الملكى » و « القدر الانسانى » او « زمن الاحتقار » ، يكاد يكون شعور الحب غير موجود فى رواية « الامل » او يمثل كعقبة فى طريق المجهود الثورى . . ، الامر الذى يقودنا الى ملاحظة التوازى الذى يوجد فى روايات « مالرو » بين الحياة الخاصة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، ففى هذا الكتاب الذى يمجد التنظيم العسكرى نرى البطل الذى كرس نفسه للنضال المنظم لا يجد فرصة للتفكير فى علاقات عاطفية من اى نوع كانت .

---

(٨٠) راجع همنجواى (الكتاب المذكور – ص ١٧٦/٠)

(٨١) الامل ص ٢٦٥/٠

واذا رجعنا الى « مانويل » وجدنا ان تحوله كان شاملا . وليس الامر فقط مجرد ميلاد زعيم، او نجاح خارق استثنائي ، اننا بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين البطل في روايات مالرو المكرسة للثورة الصينية وبين البطل الشيوعي في رواية « الامل » المكرسة للحرب الاسبانية . فبينما « جارين » GARINE في « الغزاة » و « كيو » KYO في « القدر الانساني (٨٢) » يعرضان الى النهاية الصراع يثور في دخيلتهما ، ينتهي « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان « مانويل » شيوعيا ، فانه لم يكن يتساءل عن سلامة اسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد ان تنتهي في نظره ، اما بتغيير افعاله (وهذا التغيير لم يكن واردا) ، واما برفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات في الرواية توحي الينا بالرغم ـ او فلنقل ـ بفضل حزمة في القيادة بان « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه في السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى، بعد حكمه بالاعدام على جنديين هاربين، في عيون رجاله الذين يستعرضهم الامودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهي تخترق تطوف كل التقاء ، تتسم بالغموض او اللامبالاة : كانت اخوية باسى ، مليئة بهذا الظلام (٨٤) » .

بل واكثر من الاخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقي بتلك النظرات ، الواحدة تلو الاخرى ، وهي تعقد معها تحالفا بالدم (٨٥) » .

يعد انتصار الجمهوريين في « جواد لخرا » يحس « مانويل » الذي قطع ـ اثناء المعركة ـ كل صلة بينه وبين المتعة الشخصية والذي اعلن « لجارتنر GARTNER انه لا يقدر الموسيقى » بان اهم ما يحتاج اليه في هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى . . . فبسماعه سيمفونية لبيتهوفن كان يكتسب اليقين ـ حتى ولو شك احيانا ـ بانه يحمل في طيات نفسه كل الامكانيات الانسانية سليمة وكاملة :

امكانيات الفن والرقة والحب ، ولا شك ان السلام سيبعثها يوما ما فالمستقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تزخر حوله بالتنبؤات، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الداثية التي لا يهزها « المدفع » ، بعض الاقدار العمياء . كان الكلب ـ الذئب ينصت ممددا كما تصوره

---

(٨٢) في رواية « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris كان البطل « كاستر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا انساني » . الا ان المسألة الخلقية ـ السياسية لم تكن مطروحة في هذه الرواية .

(٨٢) الامل ص ٣٤٨/.

(٨٤) الامل ص ٣٤٦/.

(٨٥) الامل ص ٣٤٦/.

بعض النقوش البارزة . فى يوم ما سياتى السلام وسيصبح « مانويل » انسانا جديدا ، مجهولا من ذاته كما كان يجهل مناضل اليوم الشخص الذى اشترى السيارة للتزلج على الجليد فى جبال السيرا .

ولا شك كان الامر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرقات او العازفين بعناد اغنيات الحنين الحزينة والذين حاربوا تحت اغطية الراس المدببة (. . .) ان الحرب لا تكتشف الا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف اكثر من مرة .

كانت هذه النغمات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضى تحدثه كما لو تحدثت اليه هذه المدينة ذات الماضى العريق ... وهذه السماء وهذه الحقول الابدية ، ولاول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا اهم من دم الرجال واشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الامكانية اللا محدودة لقدرهم ـ وكان يشعر فى داخله بهذا الوجود ممتزجا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الاسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه » .(٨٦)

ثالثا : الامل الثورى :

« فى عالم بلا امل يصعب التنفس » « (الامل /ص ٦٩٩)

هذا السطر الذى نستشهد به يختتم الرواية ، الامر الذى يقودنا الى رؤية للوجود ، كلها سلام وامل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك فى ان هذا الكتاب نشر فى فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب، وخاصة وانه يشير من بين الاحداث الاخيرة الى انتصارهم فى « جواد لخرا » GUADALAJARA الا انه يبدو لنا معبرا ان « مالرو » احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية للثوار . فمن الناحية « الفنية » يمكن ان نذهب مذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN فى تعقيبه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالاحداث اللاحقة على الرواية الى ضرورة داخلية فى بناء القصة : اذ ان رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية فى سبيل النظام بكل القيم من اجل الفعالية ومن ثم فان هذه التضحية ستبدو هزلية وغير مبررة اذا ادت الى الهزيمة بدلا من النصر » (٨٧)

---

(٨٦) الامل ص ٣٢/٠.

(٨٧) لوسيان جولدمان ، من أجل سوسيولوجيا الرواية، ص/٢٣٦

GOLDMANN, L. - Pour une sociologie du roman, p. 236

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بفشل سياسي وكذلك « كيو » KYO

البطل الثوري الاصيل يموت في نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات عديدة في الكتاب توحي بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا او عذبوا او قتلوا » ... وبالامل في حياة افضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الامل » بهذا المنظور الميتافيزيقي لايقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الاحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » في تغيير مضمونه .

« **ان القوة الكبرى للثورة هي الامــل** » يقول مانشلو (٨٨) الحرب الاسبانيـة ، وهـذا الشعور ، في الواقع ، هو الذي يلهم ثوارهم ويتيح لهم التغلب على مخاوفهم امام القدر ...

هذا الامل هو امل الفلاحين الذين عاشوا في البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر في ذلك « مانيان » وهو يحلق فوق قرى اسبانيا :

« كان يتذكر الاراضي البور ، التي لم يكن من حق الفلاحــين المرضى مــن البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين الثائرين كانوا يحاربون تحت امرته ليرفعوا هـذه الجـدران الصغيرة ، وهـي الخطوة الاولى في سبيل كرامتهم » . (٨٩)

كان الجميع يحارب في سبيل تصور معين للانسان واذا كان المثل الاعلى الثوري هو الذي يؤجج حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « املا غامضا وبلا حدود » (٩٠) ويرضي الرغبات والمطامع العميقة الكامنة في كل فرد .

الا ان الكاتب ، في الوقت الذي كان يصف فيه قمة الالتزام الثوري ، كان يديـن الثنائيـة الناتجة عن الفعل : فالثورة ، كما راينا ، كانت تصطدم بالحماس الذي دفع بالابطال الى اللحاق بها ، هذا الحماس الذي كان يجب الحد منه بجهد مضن في سبيل النظام .

وهكذا فان افضل مـا في الانسـان ، اي تلقائيته الثورية ، هو الذي كان يدخل في صراع مع ضرورات النظام العسكري والسياسي ... وبهذه الصورة يشك في قدرة الثورة على حـل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الامر الذي يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتميان الى نفس النسق كما يقول « باسكال » .

---

(٨٨) الامل ، ص/٤٤

(٨٩) الامل ص/٤١٩

(٩٠) الامل ص/١٩

ومن لم عجز الثورة عن الارتفاع بمستوىالانسان من تلقاء ذاتهـا ... فلننصت الـى « جرسيا » :

« اى دولة واى بناء اجتماعى لا يمكنه خلقنبالة الخلق او رفعة الروح ، ومعظم ما يمكن توقعه هو ظروف ملائمة ، وهذا كثير ... »(٩١)

ويوضح « مالرو » فى خطابه عن « الميراثالثقافى » :

« ان الثورة لا تعطى للانسان الا امكانيةكسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الامكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الانسان لا تعتمد بلا شك الا علىجوده الخاص .. ولكن الرجل الملتزم يجد فى الفعل ظروفا ملائمة لتجاوز وضعه ببذل افضلما فى طاقته ، وهنا يكمن الامل الثورى ، فالبطل يلقى فى صراعه من اجل الكرامة والحرية .محنا وتجارب تناقض القيم التى يناضل من اجلها ولكن امله فى المستقبل الذى يعده يكفىلايجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذى يحلم به .

اذ انه حين ينخرط كلية فى فعل له معنىوهدف، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تغير جذريا ، ومن ثم تصبح الثورة ايضا لا تقدراشخصيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » فى آخر الرواية حينما يقول :

« ان حياة اخرى بدات بالنسبة لـه مـعالمعركة ... » (٩٣)

وانه لفى ضوء هذا المفهوم تكتسب الروايةوعنوانها معناه الكامل .

وانه لجدير بالذكر منجهة اخرى ان يكتبالمؤلف ، بعد انتصار « جواد لخرا » بان الحرب قد بدات (٩٤) ، مشيرا بذلك الـى ان معـاركاخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثورى قائماكما يجب ان يقوم .. فان هذا المجهود سوف يؤكد لرجال **« الامكانية اللا محدودة لقدرهم »** .

• • •

---

(٩١) الامل ص/٣٢٨

(٩٢) راجـع : L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

(٩٣) الامل ص ٤٢٢/٠

(٩٤) الامل ص ٤٣٦/٠

خاتمة :

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرزق كثير من صفحات رواية « **القدر الانسانى** » ويغلب على معظم رواية « **زمن الاحتقار** » يلقىعلى رواية « **الامل** » اقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقةهذا الشعور كواقع لا يجلبللانسان السلامالتام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بلا تردد علىالقيم المختارة ليطرد هواجس القلق . . .

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسبالا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة عن النضال المشترك كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضروراتالفعل ذاته .

وليس هنالك شك فى ان « مالرو » يؤكدعلى ضرورة التنظيم كمنصر اساسى لكل جيش ، غير ان روايته تمجد ايضا قبول النظام ، هـذاالنظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانيا ، اذ ان الانسانالذى برهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه، جدير من ثم بأن يرفض الخضوع للاقدار . ومثال « مانويل » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة ان « يكتشف سرا مقدسا وبسيطا » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

* * *

(٩٥) اللامذكرات ص ٣٢١/٠

عزه محمد هيكل

اندريه مالرو

قدر الانسان

ثورة فى الأدب

ينفصل القرن العشرون عن الاسلوب التقليدى للقصة المصطنعة تأليفا ، والتى تتتابع فيها الاحداث على وجه متسق ومنطقي ، بحيث اصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الاخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ؛ ويظهر من ثم خط جديد للرواية لايقوم على الشمول الكامل ، وانما يرتكز على الغموض والابهام . ويقول الناقد البيرس :

« ان رواية لفلوبير او لزولا كانت تحكى . ولكنك **تعايش** وتحيا **قدر الانسان** » (١)

وبينما كان بلزاك وفلوبير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخوص رواياتهم .. فقد كانوا يعرفون مسبقا نهاياتها . اما فى اعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

---

(١) R.&M. Albérès, **Histoir du roman moderne.** Editions Albin Michel,1 1962. p. 130. André Gide, **Journal** 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنهـا شيئا اكثـر مما يـرى الابطـال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب في السـرد ابدا لمجرد التوضيح والبيان .

وفي **قدر الانسان** لا تبـدو الشخـوص في وضوح ، وانما تتشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بغموضها ، تماما كمـا يحدث في الحياة بالنسبـة للاشخـاص الذيـن نلقاهم ولا يسعنا التعرف عليهم حقيقة . فالامر لا يتعلق بتقديم شخصيـات نلمس في النهايـة صورة منطقية وواضحة لهم ، وانما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعالما متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفي **قدر الانسان** الذي اعتبر بالاجماع اشهر روايـات مالرو ، وقـد ظهـرت في عـام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جونكور ، يقوم الموضـوع على تكالف في الاحداث وتركيزها في وقت ضيق وقد اشار الى ذلك **اندريه جيد** في عبارة شهيرة :

« هذا **الكتاب** الذي اطلعت عليه خـلال نشره مسلسلا في احدى **المجلات** ، بدا لي شديد الكثافة ويوقف تراؤه الاستمرار في تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء وفرة تعقيداته . وقد لاح لي بعد قراءته كاملا ، انه ظاهـر الوضـوح ومتسق في عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الذكاء ورغم ذلك ـ اعني الفضول رغم الذكاء ـ فهو عميق التداخل في الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجـزاة الى عدة مشاهد تتعاقب بلا اتصال او تفسير بحيث تفتقـر الى اية رابطة واضحة في السـرد بين مشهد وآخـر ، فيما عدا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التي تعين القارىء على الفهم ، وتدل ـ بالعكس على اهمال متعمد للربط بين الاحداث . ولو نقلنا هـذه البيـانات يمكن تلمس ما يبدو انه خطة الكتاب .

الجزء الاول : ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، في الواحدة صبـاحـا ، في الرابعة صباحا ، في الرابعة والنصف صباحا .

الجزء الثاني : ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، **الساعة الواحدة بعد الظهر الخ ..**

وبعد ذلك وفجأة في **الجزء الثالث** ، في ٢٩ مارس ، والاجزاء الرابعة والخامسـة والسادسة ، في ١١ ابريل . وينقلنا الجزء السـابع الى باريس في يوليو وتقع الخاتمة في كوبيه .

وهكذا بدلا مـن الاستطـراد التقليـدي للسرد ، فان فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تغاير الشخوص وفي مختلف الاماكن . ونمر بلا اي تمهيد من حكاية الى اخرى . **ويؤكد النقاد انه كان لاعمال مالرو سـبق المبادرة في « خلق المفهوم الثوري للادب** . ولم تعد الرواية للاستهلاك

---

(٢) ظهر قدر الانسان لاول مرة مسلسلا في مجلة لانوفيل ريفي فرانسيز في اوائل ١٩٣٣ ثم ظهرت الرواية في كتاب بعد ذلك مباشرة .

الصرف وانما هي تحقق لعاونـا في الانتاج بين الكاتب والجمهور الذى يدعى للمساهمة بجهود بناءة لاقامة العمل الادبى . » (٣)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمرار في معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فن من الفنون فهما ضمنيا لا تصريحا . (٤)

وغالبا ما قورنت طريقة مالرو بمشهد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة من اللوحات ويوحى تتابعها وتباينها بالواقع والثراء .

ويتردد الكاتب باستمرار بين مشاهد الافعال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفى والفلسفة . وينتقل الانسان فجاة من حالة الثورة الى حالة التمعن والتفكير . فبعد ان ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتساءل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانسان . كما ان الحوار بين كيو وماى الذى انصرف الى قيمة الحب قد انقطع بغتة بتدخل كلابيك ومعه مستند لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يستلهم معنى الحياة والالتجاء الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا فجاة امام ثوار يهاجمون سفينة .

التوازى بين الحياة والرواية

بينما نجد ان **الطريق الملكى** و**الفزاة** يضعان على المسرح بطلين او ثلاثة ابطال فان **قدر الانسان** وفقا لما ينم عنه عنوانه ، يحيا عالما واقعيا على قيد الحياة وهو عالم الصين فى عام ١٩٢٧ . وتدور الاحداث اساسا فى شنغهاى بين جماعات الثوار التى تعد للثورة . والحكاية هنا معقدة جدا الى حد القول بان هناك حكايات بقدر عدد الابطال .

وتختلف الثورة الصينية وتتباين تبعا لآراء الابطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او جيزور او فيرال او هيمير لينش او كلابيك .. ويؤكد مالرو : « ان الاطار غير اساسي (...) ولكنه ايضا غير عارض . واعتقد انه يوجد فى وقت ما اماكن قليلة تتوافر فيها ظروف للبطولة .. » (٦)

---

(٣) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," **Esprit** octobre 1948.

(٤) Malreux, cite par Henri Dumazeau, **La Condition humaine de Malraux.** Paris, Hatier (collection "Profi d'une oauvre"), 1970. p. 68.

(٥) كان ايزنشتاين سيصور سينمائيا رواية قدر الانسان بموسيقى شوستا كوفيتش ولكن حالت دكتاتورية ستالين دون تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم ايضا المشروع الذى اعده هانسوين فى عام ١٩٧٠ . وفى فرنسا فى عام ١٩٥٤ قام تيرى مونيية ومارسيل ناسا نكور باعداد الرواية مسرحيا وكتب مالرو الفصل الاخير منها .

(٦) Lettre de Malraux a Géten Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de **Malraux par Lui-même** de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمة الاولية لروايات مالرو هي معاصرتها . ويستغرق الكاتب في المعارك المعاصرة ويحاول ان ييسر للقارىء معايشتها . ولقد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الاحداث ، الى حد ان بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صحفيا امينا للاحداث المعاصرة .

والصحيح انه اذا كان مالرو قد كتب « **الفزاة** » و « **قدر الانسان** » فان ذلك يرجع الى انه في عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التي كانت في اوج الحرب الاهلية . وهناك ، ـ ولبعض الوقت ـ يبدوا انه باشر منصب قائم مقام قوميسير الكو منتانج المكلف باعمال الدعاية لدى بورودينى ممثل الاتحاد السوفيتى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى .

ولا جدال في ان اعمال مالرو هي نتاج لتجاربه ولقاءاته . وفي هذا المجال فان « سيرة حياته » تميز بين الصور الادبية غير الشخصية **لمؤلفات مالرو الاولى من الاره اللاحقة . ومنذ عام ١٩٢٦ (اغراء الغرب)** اصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر احدى شخصياته :

« كيف تريد فهم الشيء عن غير طريق الذكريات » (٨)

والواقع ان اغلب ابطاله من المغامرين او السياسيين وهم يتماثلون تماما مع (خالقهم) في الاحداث والصرعات الحقيقية في كانتون (**الفزاة** عام ١٩٢٨) ، وفي شنغهاى (**قدر الانسان** عام ١٩٣٣) ، وفي المانيا (**زمن الاحتقار** عام ١٩٣٥) ، وفي اسبانيا (**الامل** عام ١٩٣٧) ، وفي فرنسا (**الصراع مع الملاك** عام ١٩٤٣)

ولطالما اخذ على مالرو ، وعلى الاخص بالنسبة **لقدر الانسان** « القتال الوحشى والتذوق الدموى والتعذيب والميل الى البطولة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على ماذهب اليه النقاد في سطور واضحة :

« **انا لم اختر هذه الوحشية لانى تلاقيت معها** . وكل انسان يستخلص من حياته ، واننى اطالب بهذه وبتلك » . (١٠)

وفضلا عن التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فان ما يميز روايته على وجه خاص هو التاريخ الذى يتداخل في السرد . فقد اشترك في بطولة الرواية تشانج ـ كاى ـ تشيك الذى كان

---

(٧) Georges Mounin, „Les Chemins de Malraux'', **Les Lettres Françaises,** 7 juin 1946.

(٨) André Malraux, **La Condition humaine,** Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

(٩) Robert Brasillach "Le goût malsain de l'héroisme'', **L'Action française,** 10 août 1933.

(١٠) André Melraux, „Réponse à Robert Brasillach''. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans **les Oeuvres complètes de Robert Brasillach,** club de l' Honnête, homme, Tome VII.

وقتذاك على راس القسم المعتدل للكومينتانج ،وبورودين الذى كان فى ذاك التاريخ المستشار الروسى للحكومه الصينية . ولعب كيو دورشواين لاى .

ولا جدال فى ان الحياة الخاصة للبطل ومولده من خيال المؤلف . ولقد الهمت مالرو زوجته الاولى كلارا جولد شميدت مشهدالاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو أن يضع نصب عينيه اندريه جيد عندما ابتدع شخصيةجيزور ، واندريه برتيلو عندما خلق شخصية فيرال . واخيرا فقد صور الكاتب اصل كلابيك فى **« اللامذكرات »** على وجه دون شخصية الرواية .

وبالنسبة لعدد كبير من المؤلفين وعلى الاخص مالرو فان العمل الأدبي ليس الا انعكاسا وصدى للحياه : وبسعنا ان نؤكد ان العكس صحيح ايضا ، وغالبا ماحدث ذلك ، ويؤكد مالرو نفسه :

« ان العالم اخذ يتشابه مع مؤلفاتى . »(١١)

وفى واقع الامر فان **قدر الانسان** ظلت على مدى اربعين عاما رواية احداث ملتهبة . العالم الثالث والثورة والحرب والشيوعية والنزاع الصينى السوفيتى وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائما ، وفى الدرجة الاولى لاهتماماتنا . وفى هذا الكتاب الذى قام على التنبؤ تكون بعض ما قدر المؤلف خطوطا المستقبل . ومنذ عام ١٩٣٢ كان مالرو يعلن « ان قدر الصين بين يدى الحزب الشيوعى » ، (١٢) ولقد استيقظ « ثلاثمائة مليون من الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرنا وسوف لن يستولى عليهم النوم من جديد » (١٣)

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سابقةبالتناقضات بين الحزب الشيوعى الصينى والشيوعية الدولية . واعلن ايضا ان قدر الغرب ربما يتوقف عى ذلك الحرب .

• • •

عالم الرجال

ذهب بعض النقاد الى حد انكار عنوان رواية مالرو **قدر الانسان** واعتبروا انه ممعن فى شططه .

ويؤكد الناقد السوفيتى ايليا اهرنبورج ان ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاى وانما ماحل باربعة او خمسة رجال فى هذه المدينة فى ربيع عام ١٩٢٧ . ويضيف

---

(١١) A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

(١٢) قدر الانسان

(١٣) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

اهرنبورج ان رواية مالرو ليست مؤلفا عن الثورة وانما هى « صورة راديو جرافية للكاتب مجزاة على عدة ابطال » (١٤) .

ويؤكد ايضا ادموند جالو فى مقال انطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« ان **قدر الانسان** هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالسيد اندريه مالرو ، ونجده فى كل اعماله ، وبسعنا ان نطلق عليه اسم المغامر المفكر » (١٥)

ولو ان الموضوع الظاهر **لقدر الانسان** فى حقيقته هو الثورة الصينية ، فان المسألة العميقة فى تصوير الحالة المأسوية للانسان فى مواجهة قدره : غموض الوجود ، والشعور العميق بالوحدة ، والتبعية للغير ، وسيطرة فكرة الموت . . . ويرد تماما الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بانه يقدم انسانية معقدة خالية ومل، قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين ابداؤها فى شان العالم الخاص لمالرو . فهو يرسم عالما من الرجال اساسا ، حيث تحتل المراة مكانا ضيقا . وتقول ماى بحق :

« كيو ، ما هذه الافكار الخاصة بالرجال » (١٦)

وفى الواقع فان تلك افكار ومسائل من ايحاء الرجال ، وتشكل جوهر اعمال اندريه مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندال ، وبالرغم من تدخل العاطفة الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنرى دى مونترلان صورة لنشاط الرجال . وكان ارنست بسيكارى رائدا لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانس فى بلاد العرب وارنست يونجر فى الحرب والمغامرة ، وسانت اجزيبرى وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث عن قانون اخلاقى ومن معنى للحياة . وعالمه الانسانى « محدود بالفعل والذكاء الرجالى » (١٧)

ويركز جايتان بيكون على غياب الطفل وندرة وارتباك الشخصيات النسائية فى رواية مالرو . والواقع فكثيرا ما نرى ان ليس لابطال مالرو نساء او اطفال . **ففى قدر الانسان** يشكو هيمير ليتش من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الاسرية تحول دونه « والسعادة

---

(١٤) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans **Vus par un écrivain d'U.R.S.S.** Gallimard, 1934.

(١٥) Edmond Jaloux. „Une puissance extraordinaire", **Les Nouvelles littéraires,** 16 décembre 1933.

(١٦) **قدر الانسان ص ٦**

(١٧) G. Picon, **Malraux par lui-même** p. 49.

فى ان تكون حواء وتمنعه من المساهمة فى الحركة الثورية . كما ان وفاة ذويه ستحقق الخلاص بالنسبة له .

ويكشف كالوف ايضا فى ذاته هتافة خبيثة « لا نساء ولا اطفال » (١٨) الحيلولة دونه والحرية .

وبينما لا يضع مالرو على المسرح فى **الطريق الملكى** وفى **الغزاة** الا رجالا بلا اطفال وعملا بلا نساء (فيما خلا ساره ومدام كلاين والداعرات) ، ففى **قدر الانسان** لا نجد الا اثنين ماى وفاليرى . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميل كل منهما كيو وفيرال . وتبعا لما اشار اليه هنرى ديمازو : « انها حالة وحيدة فى رواية مالرو : » (١٩) كيو يحب ماى ، وهى تحبه . ولكنه كانسان فى الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحرية فى التصرف فى جسده ، وهو مبدأ مطلوب فى الاوساط الثورية فى ذلك العصر . ويبين له من ذلك انه ذكر فيه روح التملك والغيرة كالآخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظيات اللاتى تظهرن فى الرواية ، فانهن يوضحن الاهمية التي يعلقها مالرو على العشق الجسدى ، والتمييز الاساسى بين ذلك الاحساس وبين الحب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الاخر . ويكرر الكاتب فى اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن فى العلاقات .

« بذل من المراة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المراة الا احد قطبي متعة الرجل الشخصية » (٢١)

ولا يرى فيرال فى فاليري الا تبعية وخضوعا واذلالا . ووفقا لقوله « ان الرغبة فى التعرف الى امراة هى وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى ايضا تشين احتقارا شديدا للجنس المؤنث ويفخر « بانه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل من الجنسين . ورغم ذلك فان مالرو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيدات مرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المراة بالنسبة لى كائن مختلف ــ وانا اتحدث عن الفارق وليس عن المستوى ــ ولا استطيع ان اتصور شخصية نسائية . » (٢٤)

---

(١٨) قدر الانسان ص ١٥٢ .

(١٩) H. Dumazeau op. cit., b. 28.

(٢٠) قدر الانسان ص ١٠٢ .

(٢١) قدر الانسان ص ١٠٥ .

(٢٢) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٢٣) قدر الانسان ص ٥٤ .

(٢٤) Malraux à d'Astierde la Vigerie, **L'Evènement,** août 1967, p. 60.

ولو ان ماى فى **قدر الانسان** قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتعدت حالة المرأة المملوكة والمحتقرة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها فى صراع الثورة . وهذه المرأة « المسترجلة » (٢٥) تتناقض فى وضوح مع زوجة هيميرليتش والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية الذكور . «هل عشت كامرأة محمية ؟ (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحته على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشتد بالصراع الرجالى .

• • •

العنصر الباسكالى : بؤس الرجل بدون اله .

تكمن القوة والجمال فى **قدر الانسان** فى تطور الرواية على مراحل متعددة فى ذات الوقت. فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقبل كل شيء رواية ثورية ، ومن جهة اخرى ندرك الانسانية العميقة للمناقشات . ففى كل لحظة ، وعند اقصى عنف للابطال ، فانهم يتساءلون فى لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخوص قيمتها . ومن خلال جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز ، يسعنا ان نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته لرؤياه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرال عن صحبة جيزور معجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما فى خدمة المتحدثين » . وكان يبدو لكلابيك ان « جيزور كان الرجل الوحيد الذى فهمه » ، واما عن الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى فى نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيزور ودور المنشدين فى المأساة القديمة لانه هو المكلف باستخلاص معاني الافعال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص يبين على وجه يستبعد كل غموض اين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف **بقدر الانسان** . » (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسي فى **قدر الانسان** ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسى الباسكالى »(٢٨) لان مأساة مالرو معنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال (مأساة الرجل بدون اله) . ويشير مالرو فى اكثر من موضع

---

(٢٥) قدر الانسان ص ٢٨ .

(٢٦) قدر الانسان ص ١٧٢ .

(٢٧) Joseph Hoffmann, *L'Humanisme de Malraux*, librairie Klincksiek, 1963. p. 157.

(٢٨) A. Malraux, Lettereà Gaëtan Picon, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفى الصفحات الاخيرة من **« اشجار الجوز فى الالتنبرج »** يتحدث عن النص الباسكالى الشهير :

« تتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالاغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يذبح امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره فى مصير المماثلين له . . . انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

ويذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسى فى **قدر الانسان** يشكله المسجونون فى ساحة السجن ؛ ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق فى قدر الانسان والانشغال الدائم بالموت كل ذلك يكون الاسس فى اعمال مالرو .

وتساءل كل شخوص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين ـ الذى تلقى بداءة التعاليم المسيحية الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل العاطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتساءل الشاب فى قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب أو مسيح » (٣٠) .

ويقارن جيزور مفكرا فى معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان **البطولى لكيو** . فبينما الاول يائس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسى لكيو وبالعكس « **يجعل للوحدة معنى** (. . .) وكان لحياته معنى » .

وبالنسبة لهيميرلتش فان العمل الثورى هو « الشىء الوحيد الذى له معنى فى حياته الراهنة » ويفكر فيرال شأنه فى ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام العجوز كاما يتأمل فى معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروى عن مالرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل (. . . .) قدره الانسانى » (٣١)

وفى محاولة للتغلغل فى سر قدر الانسان يظهر مالرو كافة صور القدر ، اى كل ما تحمله : الوحدة ، والعبث ، والقلق والموت . . . هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترعب كل الشخوص وتوجد فى كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالرو فى ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل فى **الغزاة والطريق الملكى** ، وهى تمثل ذات الاسطورة القاسية والدموية عن الشقاء والفشل والقدر ، وتشغى كل شخصيات **قدر الانسان** من وحدة مؤلمة . والفرد منغلق على نفسه ، وعاجز عن الاتصال بالآخرين .

---

(٢٩) مالرو شجر الجوز فى الا لتنبرج .

(٣٠) قدر الانسان ص ٥٨ .

(٣١) قدر الانسان ص ١٩٢ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ،كما لم يكن قادرا على التكهن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كغيره ، وبما كان على درجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على أى حال يعتبر كأى فعل عادى ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى أنه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتى بعمل عادى ، ولكن « المجهول » كان فى انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمن الاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولا وقاسيا فى ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فى مكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعه ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذى لم يستطع ان يتقاسمه مع الآخرين وحتى عندما يجد زملاءه ، يظل تشين وحيدا « على وجه غير عادى » ولما يتوجه الى جيزور ، سيده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيع الفيلسوف العجوز ان يسدى اليه نفعا . ويأسف ذلك الاخير « لعزلة القاتل » . ولكن الذى لم يفهمه جيزور هو ان تشين ، الذى رأى من جديد شركاءه فى الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ، ولكن ذلك الغموض يبدو فجأة كأمر واضح لتشين الذى يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احدا ابدا . اليس كذلك ؟ » (٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانعزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وأيا كان عمق الحب الذى يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذى كان يكنه لكيو لم يحرره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن فى مجال آخر ، فان موت كيو بالنسبة لجيزور هو « انفصال » حقيقى ، ووقف تام ليس له ما بعده. ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود » وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الالم وحده او التغيير وحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنغلق على « حياته الفردية ومنعزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذى لا يعرف الاذاته وجسده . وفى الملاقات بين فيرال وفاليري او من خلال زيارة العاهرة الصينية يصطدم فيرال دائما بشخصه .

---

(٣٢) قدر الانسان ص ١٢ .

(٣٣) قدر الانسان ص ٥٢

(٣٤) قدر الانسان ص ٦١

(٣٥) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

وخلافا لما يرى هنرى ديمازو الذى يؤكدانه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلايك الالم والوحدة ، (٣٦) فقد لاحظنا فى تلك الشخصية ،وكذلك فى باقى ابطال الرواية ، الاحساس المحزن بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلايك الذى نجح فى الافلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهم كالحب والاسرة والعمل ان يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يغمره ويشعره دائما بوحدتهالقاسية » (٣٨)

ويتساءل كيو فى لهفة « ولكن مـن اكـون بالنسبة لحنجرتى ؟ »

وتظهر المسالة فى **قدر الانسان** فى الكشف المفاجىء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى غربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكر فيهـا مرارا . وعندما يصرح لابيه من متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث ان وجدت نفسى فجأة امـام مرآه ، ولم اتعرف على نفسى » (٣٩)

وتستمر هذه التجربة الغريبة فى ذهن كيو ويتذكر مرة اخرى عندما يترك ماى ويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولايمكن ابدا لاحد ان يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفى كل كائن « غريب » (٤٠)

(لفظ يقدره تماما البير كامى) وهو غير معلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وترتيبا على ذلك فان التعبير عن الضمير مستحيل ، وليس للرجل اى طريق ليكن مفهوما ولا يعرف احد الاخر ابدا . وهذا هو الراى الدائم لمالرو ، ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نص جايتان بيكون :

« كلمة معرفـة التى تنطبق على النـاس تجعلنى احلم دائمـا . واعتقد اننـا لا نعـرف احدا » (٤١) .

• • •

والعالم الروائى لمالرو بدون اتصال . وليس الحوار المتعدد بالكتاب فى واقعه الا حديثا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص الى نفسه ومـا اجل نفسه دون مراعاة للمتحدث الاخر الـذى لايتاثر بحديث الغير .

---

(٣٦) H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

(٣٧) قدر الانسان ص ٢١٨ .

(٣٨) قدر الانسان ص ٤٩ .

(٣٩) قدر الانسان ص ٤١ .

(٤٠) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٤١) Malraux in G. Picon, **Malraux par lui-même** p. 48,

ويلاحظ كيو فى قلق ان « ماى بعيدة عن فهمه تماما » .

ويقرر جيزور فى اسى ان « احدا لم يعد يعرف الاخر » وعندما تنطبق لاول مرة العبارة التى كررها كثيرا « ليس هنالك فهم لاحد » على ابنه ، يسيطر عليه بالغ الاحساسات المؤلمة ترهق كل شخوص **قدر الانسان** . ولم يستطع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته ان يبرا من « القلق الاولى » الذى كان يلاحقه حتى فى احلامه .

ورغم ان مارو يتقارب مع باسكال فى الكثير من النواحى فانه يختلف عنه فى وضوح فى شأن الحلول المتعارضة التى يقترحها كل منهما عن مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هذين المفكرين الكبيرين ــ وفى الوقت الذى يتيسر فيه لباسكال ان يجتاز قلقه لانه يؤمن بالله ، فان مالرو الذى يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا فى يأس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو ان ينقلب على آلامه وانما يأخذ يفكر فى « الحظ المزرى للآخرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف العجوز : ان الناس كلهم يتألمون لانهم يفكرون .

« وفى الواقع فان العقل لا يفكر فى الانسان الا فى الخلود ، وليس الشعور بالحياة الا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من ان يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية « ارادة القوة » لنيتشه التى تقول برفع الرجل الى مرتبة السوبرمان (**هكذا قال زرادوسترا**) ، يؤكد مالرو ان كل شخص يحلم « بالافلات من قدر الانسان » ، و « ان يكون اكثر من رجل فى عالم الرجال (...) وانها ارادة الالوهية : ان كل رجل يحلم بان يكون الها » (٤٣)

ومن هنا يبدو عبث الوجود ، لانه من اللحظة التى يستشعر فيها الشخص القلق من انه الى موت مادى ــ « ذلك الشقاء فى ان يكون رجلا » ــ ويفهم حينذاك ان كل بحث يؤدى الى سراب . ومهما كانت ارادته فى الوصول الى اللا نهائى فان جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الانسان غير محتمل فمرجع ذلك ان مآل مشروعاته وذاته الى الموت .

والرجل لعبة القدر الذى كان يرى ان يسيطر عليه لانه عاجز امام الموت . ويعترف جيزور بانه :

« يمكن ان يخدع الشخص الحياة طويلا ولكنها تنتهى دائما بأن تجعل منا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفى قدر الانسان فان الموت حاضر ومائل فى صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التى ارتكبها تشين وينتهى باعدام الثوار . وكل شجون مالرو فى شغل بالموت . ويبدو ذلك

---

(٤٢) قدر الانسان ص ٢٨٢ .

(٤٣) قدر الانسان ص ١٩٤ .

(٤٤) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

الموضوع يعمق فى الرواية الى حد انه يظهر فى اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيو فى ضيق « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا من ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشيء الوحيد فى ذاته والذى كان قويا كالموت » كل تلك الصور الفنية بالفهم تعطى معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفظيع فى الموت انه « يحول الحياة الى قدر » . وبدءا من الموت ، لا يمكن تعويض اى شيء

وتلك الصيغة الشهيرة للامل يوضحها احد شخوص الرواية : « الشيء الرئيسى فى الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للعلاج : التعذيب والاغتصاب الذى يتبعه الموت ، انه لامر فظيع حقا . » (٤٥)

والموت هو الذى لا رجعة فيه . وعندما يضع نهاية للوجود بلاعودة فانه يعطى وجها للخلود لمن كان على قيد الحياة .

ولكن الموت لا يحل شيئا . فهو ليس حلا للمأساة فى قدر الانسان ، وليس مفتاحا فى البحث عن قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تساؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون اكثر احتمالا ؟ لا ، يجيب جيزور ، لان الرجل يهفو الى القوة الكاملة لا الخلود . وما الموت الا احد اوجه القدر . وذلك الاخير هو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحدة والاذلال والالم والتعذيب . . . وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يموت الانسان متدعما الا يموت وحده » (٤٦)

وقلق كل شخوص قدر الانسان ليس ميعثه الموت ، وانما فى ان يكون محدودا بالتبعية والانتماء

والذى يدعو جنود القطار المسلح الى الياس ليس هو الموت ، ولكنه الغيظ من عدم القدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبيل بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل العجوز جيزور كما يصح حتى ان نبتغى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة عن طريق كيو وبعد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

---

(٤٥) مالرو الامل ص ٢٢٦ .

(٤٦) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وتبعا لمالرو ، فان الرجل مقيد في عالم لا معنى له ولا يمكن الافلات منه الى الخلود، وهو فاقد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن مالرو كرجل عملي لا يقع في التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملا ايجابيا يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكيو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالة قاسية من الذعر »

ويرفض مالرو بشدة الخضوع للموت ، وليست كل مؤلفاته الا ارادة السيطرة على الانشغال بالموت والقدر . ولقد قال جايتان بيكون :

« لا شك في ان سارتر كان محقا في قوله بان الرجل في راى مالرو وكذلك هيدجر هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو في الهامش :

« وبدلا من القول **الى** موت تقول **ضد** الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابها . » (٤٨)

وتشير بداءة الى الحلول الخاطئة التي يعرضها جيزور . فالفيلسوف العجوز يرى انه يتعين نسيان القلق بالمخدر او العشق الجسدي .

« يجب تخدير الانسان (هكذا يقول) - ذلك لبلد بلد الافيون والاسلام الحشيش وفي الغرب المراة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذي يلجأ اليه الغرب للتحرر من قدره الانساني .... » (٤٩)

ويوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل، ولقد حللنا من خلال فيرال فشل العشق الجسدي الذي يعجز من الانشغال بشيء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة في اذلال المراة ، ليشعر ذاته بان فيرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطويا على نفسه في وحدته . والمخدر اداة اخرى للتهرب من الانشغال بالموت ولكن ذلك السبيل للافلات من الواقع ليس الا وهما وليس هروبا حقيقيا . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى آلامه يقول : « ثمة عوالم للتامل بفعل الافيون او بدونه حيث كل شيء بلا اية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هي الميسر الذي انقاد اليه كلابيك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل باحساسات قوية يعجز عن ان يجدها في حياته المتواضعة . ويدين الكاتب جبن تلك الوسيلة التي لا تعرض المقامر الى خطر حقيقي، وليست بالتالي الا « انتحارا بلا موت »

---

(٤٧) قدر الانسان ص ٢٦٤ .

(٤٨) G. Picon, Malraux par lui-même. p. 75,

(٤٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٥٠) قدر الانسان ص ٥٠ .

واوهام كلابيك طريق ايضـا لنفى وجوده . وحتى يتمكن من التدليل على تحمله الحياة يتعين عليه ان يتغيب من حياته ويخوله كل شيء لذلك. الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى سترة للافلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة اخرى فى عيون الاخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح فى الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلابيك عن كشف فشلهم . وليس العشق الجسـدى والفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسـه هنا التقارب مع باسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للافلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشـيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من بؤسنا هو الترفيه وهو ايضا مبعث تعاستنا لانه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير فى انفسنا ويجعلنا نذوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ، فهو يؤكد ان فى الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتعدى قدره فى الحرية بان يكون ذاته » .

وعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجة ما والحلول الخاطئة ، يعارض الكاتب قيما حقيقية وخالدة . ولكى يقهر المرء اليأس لا تكفى ارادة الحياة ، لان الحياة للحياة بلا اى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط ... وانما بالتغلب على كل مـا يرهق الرجل : الوحـدة والاذلال والهزيمة ....

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لحتمية الفشـل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولة والكرم والاخاء والكرامة ....

• • •

ولا جدال فى ان تلك القيم الخالدة هي دعامة للدين ونجـد تعبيراتها الاخاذة فى عدة تجـارب دينية ، ولكن ـ وعلى سـبيل التحديد ـ فان اهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل فى استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسـيرا وتبريرا جديدا ، لأن الفضـائل المعنوية لا قيمة لهـا الا بتعاملها مع الاخلاص والعاطفة للانسـان الذى يعبر عنها . ولقد عبر الكاتب بنفسه بوضـوح ودقة عن الوحدة العميقة « واستمرار » مؤلفه وفكره . وهو يؤكد ان المسـالة الكامنة فى كل كتاباته تبدو فى التساؤل التالى :

---

(٥١) قدر الانسان ص ٢٤٨ .

(٥٢) Blaise Pascal, **Pensées** (1669), Opuscules et lettres. Henri Plon éditeur, 1873, p. 190,

« كيف نتيح للرجل بان يوســـعه ان يقيم عظمتـــه ، بدون دين ، على الفنـــاء الــــذى يسحقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قدر الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل اى فيما يدعوه للحياة ، الامر الذى لا يختلف عما يدعوه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متأهبا للمخاطرة بحياته ؟ ويجيب بطل **قدر الانسان** على ذلك السؤال الاساسى : « ما قيمة الحيــاة لمن لا يقبل المــوت مــواجها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا للوهلة الاولى كبطل يغامر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواعث التى دفعته ليقتل : انه مأخوذ بجريمة القتــل . ويصبــح الارهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأسوى بمحاولة « الموت فى ارفع مراتبه » وتلك الشخصية المعقدة « روح طموحــه واضــحة الى حــد ما ومنفصـــلة بعض الشىء عن الرجال او مريضة » تحاول ان ترفع من شأن عمله وتعتزم ان تضحى بحياتها فى سبيل قضية الثورة . لأن لو كان قدرها هــو الموت فيتعين السيطرة عليــه ــ لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالقه ــ والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين فى ان يموت بمرأى وشهادة بى الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليســت شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلقوا الموت فى بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكيو الا حلا واحدا وهو فى سجنه وقد علم بالحكم باعدامه : ابتغاء الموت بدلا من تحمله : لأن « الموت امر سلبى ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويبتلع البطل قرصا من الســيانور الذى يحتفظ به كل مجاهد فى جيب حزامه .

وبعد ان اعطى كاتوف الســيانور بكرم الى اثنين من زملائه الفزعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الــذى يفرضـــه عليــه القائمون بتعذيبه ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية المثيرة على الرغبة فى الموت بدلا من انتظار الســـقوط والاذلال .

وتذكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى حد معين ، ببطولة كيو الذى لا يســمح برؤية مجنون يجلده حارس السجن فى وحشية ويحول فــوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنســبة لكيو مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

---

(٥٣) A. Malraux, Lettre à A. Hoog, citée par J. Hoffmann op. cit., p. 369,

(٥٤) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

ونتنقل الآن الى موضوع رئيسي فى كتاب مالرووهو : كرامه الانسان .

• • •

تاكيد كرامة الانسان

لتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضىالامر ان يبدا مالرو بتصوير الامتهان فى احط درجاته الذى يفرضه رجل على آخر . ومبررات الاذلال فى **قدر الانسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لذاته . فالكاتب يعمل على ان يبين آثاره علىالوجود الانسانى . فهو لا يؤدى الى الالام وحدها ، والانهيار الجسدى ، ولكن آثارها اعمق واخطر من ذلك : فهى تلحق بالكائن ذاته وتسليه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الغزالون الذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والمريض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مالرو الذى كان فى عام ١٩٣٣ لا يزال فى عهده الشيوعى كانه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففى الصراع بين الطبقات لا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصول على استقلال يقلل من شانها الحرمان منه .

ويقول ماركس فى وثائق عام ١٨٤٤ :

« ان رفع الاجور (.....) ليس الا اسعادا لاجور اعلى للعبيد ولا يعيد للعامل مستقبله ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التى لا يوجد بدونها كيان انسانى حقا لازمة ايضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقد كانت فكرة الكرامة هنا غرضا اساسيا للثروة ومطلبا للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارتان دى جارد :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبه المادى فى ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاهية ، وبدون ذلك لا يستطيع ان يتشكل مع كرامته كرجل » (٥٧)

ويدين اراجون فى شدة النظام الراسمالى الذى لا يترك للمحرومين الا « المـوت والالم والاذلال » (٥٨) .

وفى **اللباب** لسارتر ، يقول اوريست لايجيت بين ضربتين من السيف .

---

(٥٥) قدر الانسان ص ٢١

(٥٦) Karl Mar, **Xanuscrits de** 1844.

(٥٧) Roger Martin du Gard, **Oeuvres complètes,** Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), 1955. Tome II, **L'Eté** 14 p. 371.

(٥٨) Louis Aragon, **Les Beaux Quartiers,** Deno'él et Steel, 1936, p. 319.

« من العدل ان تسحق ايها النذل القذر وان تقوض امبراطوريتك على اناس ارجوس ، ومن العدل اعطاؤهم الاحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هو الحال عند مالرو فاننا نبعد عن المذهب الماركسي للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيته نقاطا مشتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

وعن مالرو فان الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من اجل الكرامة وابعد مرمى من ان يكون قهرا للسلطة وانتقاما للضمير الذي طال المدى باذلاله والذي لا يسعه ان يتحمل اكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنغهاي في **قدر الانسان** « الذهاب الى غزو عيشهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحة بؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فان الكاتب يقدم صورة لانحدار روسية بيضاء راقصة محترفة في « القط الاسود » واستقلالا عن كل الآراء السياسية ينعى الكاتب على هذه المراة افتقارها للكرامة شأنها في ذلك شأن المقاتلين التعساء وتقول :

« كان لجدي الاكبر ارض طيبة .... ولقد حططنا بسبب الشيوعيين ، اليس كذلك ؟ وحتى لا تكون مع الناس كلها وحتى تكون محترمات :

هنا نحن اثنتان على المائدة واربع في الغرفة ....

ويجب دفع الايجار . محترمات .... » (٦١)

وكلما يستغرق هيميرلينش في ذكرياته يعترف في مرارة بان حياته لم تكن الا استمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرسة : يتغيب يوما كل يومين ولتتمكن امه من ان تشل في هدوء تجعله يقوم باعمالها . والمصنع : يدوي . روح شرير في وحدته العسكرية ، ودائما في السجن . والحرب . غازات سامة . لمن ولاجل ماذا ؟ البلدة ؟ انه لم يكن بلجيكيا ، لقد كان بائسا » (٦٢)

وكما هو الحال في الصراع مع التسفل بالموت فان شخوص قدر الانسان تتبع طرقا مختلفة في السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففي الصراع ضد الاذلال تلتزم كل شخصية بالطريق المخصص لها .

وكان رد الفعل عند كونيج قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء في سيبيريا في الجيش الابيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتعذيبه ، واحدثوا ثقبا في كل من كتفيه ، وبكى امامهم .

---

(٥٩) Jean Paul Sartre, **Les Mouches**, Gallimard, 1943, p. 106.

(٦٠) قدر الانسان ص ٧٩ .

(٦١) قدر الانسان ص ٣٠

(٦٢) قدر الانسان ص ١٥٣ .

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الاهانة . ومنذذلك الوقت لم ينضم الى كومنتانج الا ليثار بقتل اكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلايك بأن رد الفعل القوى والعاصفلدى كونيج امر مألوف لدى اولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية فى الصين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتهان الشديد الناس الى انكار العالم . وأن الذى يسفك بعناد والمخدر والانهيار العصبي ، كل ذلك يغذى مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولأن « الوحدة والتحقير التام » (٦٤) امرانملتحمان **بقدر الانسان** ، ويؤكد الكاتب فى اكثر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال فى حاجة الى احتقار الاخرينليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليرى » التى لم يكن يتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضعها ويضغط عليها ويهينها . ولكنه ، وقد سخرت منه فاليرى ، يحلم بمشاهد من السلامة والاغتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبقى تملك أول غاية يقابلها بعرض التخلص من الكبرياء الجنسي المرذول الذى كان يحطمه .

وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدنيئة التى بدلا من أن تحرر الانسان فانها تهبط به وتستعبده اكثر فاكثر ، فقد عرض الكاتب لثلة تذبذبة ايجابية مصورا ارادة العز والكرامة.

ولو ان هيميرليتش قد اسهم بعنف فى المعركةالثورية فقد كان ذلك لان الامر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانسانية وباهانة يتعين محوها . ويصرخ فى غضب عند الهجوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكنذلك الشخص سيمحو تلك الاهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه فى الافلات من اخماد شانج ـ كاى ـ تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . وبفضل ذلك العمل الجديديكتشف هيميرليتش اخيرا معنى لوجوده :

« انها اول مرة فى حياتى اعمل فيها وانا اعلم لماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر .. » (٦٧)
ويكون العمل بالنسبة لمالرو جوهر الرجل،والفعل الذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العمل وازدهار ما يؤديه موضوع اساسي لباسكال .

---

(٦٣) قدر الانسان ص ٢٢٧ .
(٦٤) قدر الانسان ص ٢٢٨ .
(٦٥) قدر الانسان ص ١٨١ .
(٦٦) قدر الانسان ص ٢٢٢ .
(٦٧) قدر الانسان ص ٢٧٧

Blaise Pascal.

« سعداء اولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .

وكم من المرات اشاد زولا بالعمل الذى يعتبربالنسبة اليه القانون الوحيد فى العالم :

« ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهىالعمل » (٦٩) ويثنى شارل بيجى على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضاً« عقيدة العمل » (٧١) .

ويرى مالرو فى الرجل كائنا اجتماعيا يتشكلبنشاطه . ويؤكد بطل **قدر الانسان :**

« ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعليةلرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلكالعمل معنى ويصبح وطنا » (٧٢) .

وفى الوقت الذى تتكيف فيه الحيوانات تبعاللطبيعة ، فان الرجال يغيرونها ويتغيرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس فى **راس المال :**

« ان العمل **فعل** يتم بين الرجل والطبيعة فىالدرجة الاولى » (٧٣) .

ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » فى الصراع ضد الارض وذلك فى **قدر الانسان**وكذلك فى **اشجار جوز التنبرج .**

وطبقا للمفاهيم الماركسية يؤكد بي وهو الشيوعي الشاب فى **قدر الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساسا على عمله . ويتخصيص حياة اكثر عملا دائما واكثر قوة واشعاعا فى خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .

« ان المدنية تتغير عندما يصبح فجاة لعنصرهاالاكثر ايلاما ـ اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث ـ قيمة وعندما لا يعود الامر متعلقابالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار امن لذاته ، والهرب من ذلك العمل حيث يجد فيهسبب وجوده » (٧٤) .

ورد الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند المفكر . فان كيو وقد ادمته خيانة **ماى** يئن من الالم الذى الحق به اكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الىالتغلب على غيرته وان « يعثر من جديد على حبه لزوجته » .

---

(٦٨) Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893.

(٦٩) Chasles Péguy, **Oeuvres en prose** 1909 - 1914.

(٧٠) Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), p. 1109.

(٧١) Aragon, **Les Beaux Quartiers** p. 383.

(٧٢) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٣) Karl Marx, **Le Capital,** Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180.

(٧٤) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

(٧٥) قدر الانسان ص ٤٥ .

كيو من ابوين مختلفى الجنسية ولا يتبع اصلامعينا وهو محتقر من البيض وعلى الاخص من النساء (٧٦) ، واعتناقه الشيوعية مسالة شرف فقط « ارادة الكبرياء » (٧٧) . وليس الأمر بالنسبة اليه تنظيم العالم ولكن ان يكون نبيلا او يموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيج انضمامه الى حزب الثوار :

« ارى ان الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياء لاؤلئك الذين احاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين الى جانب العمال الموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقع عدد كبير منهم تحت اغراء الماركسية وتقاربوا مع الحزب الشيوعى الفرنسي . لأسباب مختلفة وظروف متباينة . وابدى اناتول فرانس الحاصل على جائزة نوبل فى الاداب فى عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشيوعى الفرنسى واشاد بالمثالية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشبان الذين كانوا يديرون مجلة « كلارتيه » بتوجيهها نحو استنكار الحرب والثقافة البورجوازية ، ودفع الاحتجاج على القيم البورجوازية والرغبة فى الثورة الكاملة من هم اكثر من السرياليين الى الانضمام الى الحزب الشيوعى . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذى شجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلك الحزب فى الوقت الذى كانوا يجهلون فيه كل شيء من الماركسية . وفى الواقع فان تهديد الفاشية وفيما بعد نجاح الجبهة الشعبية (عام ١٩٣٦) والحرب المدنية الاسبانية والمقاومة الفرنسية والصراع ضد الحرب فى الجزائر ... كل تلك الاحداث اسهمت فى اعطاء الحزب اهمية كبيرة لدى الاوساط الفكرية . وتحت ضغط الاحداث التزم فى صلابة اندريه جيد واندريه مالرو وجان بول سارتر وجان جيونو وجان جيهينو ـ ونحن نذكر هنا الكبار ـ جانب الشيوعيين ، واشتركوا فى اوجه الانشطة الضخمة فى ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفوذهم الى الجانب الثورى كما وضعوا احيانا اقلامهم فى خدمة الحزب الشيوعى الفرنسى . وتلك النخبة من كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسميا للحزب الشيوعي الفرنسي . والكثيرون وعلى الاخص مالرو (فى عام ١٩٣٩) هجروا الحزب لقيام الخلاف على خط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا ان كتاب مالرو الذى يتناول مع ذلك الثورة الشيوعية فى الصين لم يتبع اى حزب يمينى او يسارى ، ولقد منعت روايته **الفزاة** من الدخول الى روسيا السوفيتية كما حدث ايضا فى ايطاليا الفاشية : ومن ثم فقد قامت دار النشر (جراسيه) باعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن ان نطبق على **قدر الانسان** ذلك الراى للويس جيليه الذى ابداه عن **الامل** :

« اننا فى دهشة للغياب التام لمسائل العقائد والاجحود وبالاختصار لكل ما فى الفكر الماركسى » (٨٠) .

---

(٧٦) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٧) قدر الانسان ص ٢٢٥ .

(٧٨) Louis Gillet, **Les Nouvelles Littéraires**, 8 Janvier 1938.

(٧٩) قدر الانسان ص ٢٤٢ .

(٨٠) Louis Gillet, art. cit.

وشخصية تشين توضح تماما هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم فى العمل الثورى فان مرجع ذلك العوامل الشخصية المحضة . واذا عمل على قتل شانج ـ كاى ـ تشيك فان ذلك القتل كان حتميا بالنسبة له وحده . وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تماما . فهو لا يرى فى جريمته الا اداة لعمل بطولى وضرورى لسد فراغ الم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد فى لحظة وفاته ترضية كان يهفو اليها ، ومع ذلك نستشعر فشلا لا يسع انكاره : لقد دمر نفسه سدى . لان عمله انصرف الى لا شيء ، وستظل وحدته بلا رجعة .

والاعمال الايجابية الوحيدة هى تلك التي قامت فيها الثورة بقهر الارهاب ، فتلك الاعمال التى تتمثل فى سلام الشعب الصينى تعلو على المثل الاعلى الذاتى .

وبالنسبة لبطل **قدر الانسان كما هو الحال** بالنسبة لمالرو فان اختياره السياسى مشروط فقط بالقيمة المعنوية التى يقدمها للعمل الثورى . والصراع فى جانب الثوار لا يعنى بالنسبة اليه الا « ان يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مالرو ليست الا شدوا مؤثرا لمجد الكرامة الانسانية :

« كان لحياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلامن اولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة فى ذلك الوقت وكانها طاعون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التى غالبا ما يخطها قلم الكاتب تتوالى تقريبا فى كل صحيفة من صفحات الرواية وفى استطاعتنا ان نتبين عبارات عديدة تكشف عن اولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للعمال :

« طالما المصير الى الموت فلتمت لكى تصبح رجالا » (٨٢) والمبدا الاساسى لكيو هو الآتى :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت من اجله يتجه فى غموض الى تدعيم ذلك القدر بجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتضح استخلاص ثقة الرجل فى غيره ورغبته فى حياة افضل تعين على مالرو ان يظهر لنا بطريق التناقض سحق وتعاسة كل الذين تحملوا الاحتقار الانسانى . ذلك الهبوط الى الجحيم لازم لفهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكن اخماده من الثوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون ويؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صوره مالرو بكفاءة فذة ، وفرض علينا تلك المشاهد التي تؤثر فى اعماقنا .

« ومع هذا ، وايا كانت الاداة التى نقلتها الينا ، فان الذعر كان موجودا ـ ليس هو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

---

(٨١) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٨٢) قدر الانسان ص ١٢٢ .

(٨٣) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٨٤) قدر الانسان ص ٢٥٠ .

ويشعر كيو حتى « بالرغبة فى ان يتقيا الاذلال الذى يحس به كل رجل امام رجل يتبعه »(٨٥)

• • •

اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادى لشخوصه . وبلا شك فان ابطاله يبدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ، وينجحون فى التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرية ــ ويقول جان جيهينوعن **قدر الانسان :**

« كل الشخوص التى تظهر هنا غير عادية، وربما ندرك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقى ان نتساءل دائما ، اذا كان قدر هؤلاء الابطال امرا غير عادى بدلا من ان يكون مثاليا (٨٧) »

وما يريد مالرو التعبير عنه فى اعماله هى القيمة والعظمة الممكنة للرجل وارادته فى اقامة انسانية افضل . من هنا تحفل اعماله الفنية بمشاهد البطولة والعديد من الامثلة عن الكرم والاخلاص والاخاء .... وكل المشاهد الكبرى فى عمله هى كما قال جايتان بيكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدى المآسى الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكاتوف وهيميرلينش وبى وماى فى تضامنهم مع الشعب البائس الصينى ويعكس العمل الوجودى والموت بلا جدوى لتشين يعارض الكاتب انتصار بطولة كيو :

« ان موت كيو وسط همهمة اخوية لمجموعة من المقهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلك الاسطورة الدموية يصنعون اساطير ذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرة وهى اعطاء السيانور لرفاق النضال فى ساحة السجون اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقى بين الناس بتآلف كيو وماى بفضل تاكيد حبهما . وان قلق كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماى وهو شعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما احبها » .

وذلك التضامن اكثر تاثيرا عندما يدعم وحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس المماثل يتلاقى كاتوف وهيميرلينش :

---

(٨٥) قدر الانسان ص ٢٣٦ .

(٨٦) JeantGuéhenno,t,,Le Tragique et le auotidien'' Europe, 15 Juin 1933.

(٨٧) J. Hoffmann, op. ci-., p. 373.

(٨٨) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب أن تفهمني دون أن أقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالرو يقوم على كتابة « أسطورة البروليتاريا » والثورة فرصة موالية لتخلق للرجال أسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادرا على تحويل الوجود وجعله أكثر نبلا . وموضوع الثورة هذا من أغنى أعمال مالرو إذ تلتقي فيه كل موضوعاته الأخرى ... وبالنسبة للثوار في **قدر الإنسان** فإن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الأبطال مختلف أوجه القدر : العبث والقلق والخطر والموت ... وبالتالي يتعين عليهم إظهار فضائلهم الإنسانية : الإرادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبذلان في بساطة عطاء أكثر من حياتهما في سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قدر الإنسان** في توفيقه المثير للإعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على التعاقب . ولو كان الفعل في **الغزاة والطريق الملكي** يبدو عند مالرو قوة فكرية محضة ، وأحيانا مستلهما من نيتشه ، ففي **قدر الإنسان** ، يصبح العمل البطولي المحض ، الذي يكاد يكون بلا مقابل ، أكثر إنسانية . والأمر لا يتصل بالعمل لمجرد العمل . وكل القيم المعنوية الرفيعة تحيي النص كله : إرادة وتضامن وإخاء رجولي بين المحاربين الذين يتصارعون ويتألمون لتأكيد كرامتهم .

ولقد أخذ أيضا على مالرو حواره الطويل وآراء أبطاله الذين يتحدثون فيما بينهم عن معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين الذين يتساءلون عن قيمة أهدافهم وأعمالهم . ويؤكد هنري دي مونترلان ، وهو مع ذلك معجب بذكاء وعمق كتاب مالرو :

« آخذ أحيانا على تلك المحادثات انها تلمس الافتعال وجيشا من المفكرين كما في روايات ما قبل الحرب حيث الشخوص وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لأن مالرو لم يقدم في كتابه إلا إنسانية رفيعة ، متجاهلا من هم دونها . في حين أننا في الحرب كما في الحياة لا نختار الأشخاص الذين نعيش معهم وبالتالي نقابل حتما « المغفلين » أو المرافقين الذين لا يشاركوننا حتما أفكارنا .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التي وجهها جيد إلى مالرو :

« ليس هناك مغفلون في مؤلفاتكم » ويرد مالرو :

« أنا لا أكتب لأضايق نفسي . أما عن الأغبياء فالحياة تكفي » (٩١)

ومن لم يجب علينا أن نعترف بأن **قدر الإنسان** ، طبقا لعنوانه ، يبحث في عمق المسائل الأكبر أهمية والأعظم إثارة للقلق والتي تطرح على الرجل . ومع ذلك فإن تلك الرواية لا تقدم لنا

---

(٨٩) قدر الإنسان ص ١٧٨ .

(٩٠) Henry de Montherlant **Carnets** 1930 - 1944 (année 1938) Editions 'Gallimard, 1957.

(٩١) Cité en margedu texte de G .Picon, **Malraux par Luc-même** p. 44.

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاك وتولستوى او ديكنز مثلا . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بعاطفة قطيمة واحدة وبأس قطيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائما واحدة وبذات المعنى : والكل يتصارع ضد سحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتابة الواضحة » (٩٣) فان شخوص مالرو ليسوا الا صورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتدعه مالرو هو القدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

وانها لعقلية مالرو التى نجدها فى شخصياته وفى احاديثهم . وتماثل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى ان ملامحهم هى ذات ملامح خالقهم . فلهم ذات الذوق فى التفكير وفى العمل وهى الصفة الغالبة عند مالرو .

وكما ان شخوص الكاتب ليست الا انعكاسا لذاته ، فانه لا يرسم بالتالى الا شخوصا هو قادر على تقديرهم ، او تحس بمشاعر يسعه هو ان يحس بها . لان « مالرو يفهم اكثر مما يصور » .(٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنع الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها او تكون غريبة عنه . وكما اوضح جايتان بيكون فى تحليله فان كلاپيك وجيسور او فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم بوضوح الا لانه احس بمشاعر مشتركة فى بعض الاوقات من وجوده : اوهام كلاپيك والتهدئة بالافيون وتذوق العمل القوة عند فيرال ــ اذ هناك دائما بين الكاتب وشخصياته الاتفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يمتلكه مالرو ايضا تجاه معاصريه .

« لم يوقع ابــدا الا على نقد يقــوم علـى الاعجاب » (٩٥)

ولم يتحــدث ابدا الا عن كتاب يقدرهم :نيتشه ، لاكلو ، فولكز ، جيد وبيرنانوس ....

ولما كان مالرو يرفض ان يصور شخوصا لا يستطيع فهمها فانه لم يصور ابدا الاعـداء . ويتقاتل كل ثوار **قدر الانسان** فى شراسة ضـد افكار مجردة وضد ظلال لم ترسم فى دقة . فليس لجنود تشانج ــ كاى ــ تشيك ولا لمعذبى كيوو كاتوف اى وجود خاص بهم . ولم يمثلوا فى الكتاب الا تبعا للابطال ، وليس لهم من دور الا لاظهار قيمة الابطال .

وبالنسبة لفيرال التابع للجانب المعادى والذى يقاتل الثوار فان الكـاتب يرسـمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل فى ان يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

---

(٩٢) Robert Brasillach, art. cit.,

(٩٣) G. Picon, **Malraux par Lui-même** p. 49.

(٩٤) Ibid., p.35.

(٩٥) Ibid., p.30

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب الملتزمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتهانه . في حين ان اراجون في رواياته يتخذ موقفا متحازا في ثبات ، ويقابل صورا هزلية بتمجيد شخوص مثالية . وبالعكس فان مالرو يبرر اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج ((Le manicheisme)) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد رسموا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب **قدر الانسان** . وهو يؤكد في **الامل** :

« ان المفكر الكبير رجل يبحث عن تلمس الدقة ، والمرتبة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهره ضد الازدواج . ـ((antimanichéen)) . » (٩٧)

ويمنح مالرو فيرال ذات الذكاء اللامع الذي يختص به الثوار ... وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتي يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطعنا ان نتثبت من ان المحادثات لن تؤدي ابدا الى حل تنتهي اليه فان كلا المتحادثين يظل عند موقفه في النهاية . وتشبه كلود ادموند ماني تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان مواصلة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من القيام المميز للجنس البشري ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها في سبيل فكرة ؟ » (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها ، ويرد جيزور بحقيقة هي ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذا اقول ؟ قدره الانساني .... » (١٠٠)

• • •

التركيب المزدوج للرواية

فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه في مقدمة كتابه **الشكل والمعنى** :

« ليس هناك من شكل تشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للقوى او صورة

---

(٩٦) قدر الانسان ص ٧٦ .

(٩٧) الامل ص ٢٧٩ .

(٩٨) Claude Edmonde Magny, art. cit.

(٩٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(١٠٠) قدر الانسان ١٩٢ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ساسمى تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات تكشفا عن عالم عقلى وكلّ فنان يبتكرها وفقا لحاجته . » (١٠١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجي **لقدر الانسان** الذى يفرض نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كانه فكرة دائمة . ولقد راينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته عن اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفترض فى الواقع (...) القاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى والقابلة لمراعاة الجانب الاكبر على الاقل من مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١٠٢)

وثمة متوازيات فى **قدر الانسان**. ولقد سبق ان اشرنا الى ذلك التارجح المستمر بين الفكر والفعل .

« طبعا ليس الامر مجرد اصطناع ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سردا بحتا لان تصادم الاحداث الذى يثيره الكاتب هو الذى يعطى الرواية معناها . » (١٠٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية فنية بالمتناقضات . وتسيطر على **الكتاب المواجهة** بين المتضادين الكبيرين وهما : الانسان والقدر . ويشكل ذلك التعارض القطبين **الاساسيين** للرواية . وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون الرواية من تمييز عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا الفكرة المثالية **للثورة والجهود** فى سبيل تحرير **المجموعات** الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد ان كلاييك ، وعلى **الاخص** ، فيرال ، من الاعداء . وذلك الاخير راسمالى ومن **رجال المال** ، ومصالحه الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراستنا التناقض بين الموضوعات المختلفة للرواية . فالاحساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصال المطلق عن الآخرين يقابله ويعوضه الحب الذى يكنه كيو لماى وعلى الاخص التعاون المقدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق اللذين يصمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تاكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض نرى ، ان صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو اكثر قوة وعنفا .

وذلك التقسيم المزدوج الموجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى آخر فى نفسية الشخوص . ويتعارض فى وضوح وهم كلاييك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

---

(١٠١) Jean Rousset, **Forme et significations,** Essais sur les structures littéraires de Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

(١٠٢) Lucien Goldmann, **Pour une sociologie du roman,** Gallimard, (Collection Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشير ايضا الى تضارب عالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيزور ، وتناقض الاهداف التي يرمى اليها الثوار مع اغراض الكومنتانج . وبين ذلك الازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطة شخصية كيو هى عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيزور التعارض الاساسي بين هذين البطلين ويتامل فى مصير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

ونشير ايضا الى موضوع من الموضوعات بكتاب مالرو : التفرقة بين الشرق والغرب . ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القس اللوثرى ورعبه من المدنية التقليدية بالصين(١٠٤) وبالعكس فان عم تشين ــ وهو من اتباع كونفوشيوس يحقر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارسالية وعلى الاخص فانه يحول دون ابن اخيه واعتناق فكرة جهنم التى كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

وفى **قدر الانسان** فان جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز هو الذى يمثل ذلك الرمز الصينى . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انه فى الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير فى الرجل .

وبالنسبة لجيزور فان الافيون هو اداة التهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس فى طيبة ، والعالم بكل ماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتاكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهر بين الشرق والغرب فى رواية مالرو . والتفرقة صارخة فى الحب مثل ما فى غيره من الموضوعات . ويتعارض الخضوع التقليدى للمراة الشرقية مع ثورة فاليرى على فكرة سيطرة فيرال . « ان الحب المعنوى الفعلى والمبيد » (١٠٦) الذى ربط بين ماى وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كان غريبا تماما عن جيزور :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولان الحب فى نظره لم يكن نزاعا وانما التامل بثقة فى وجه محبوب ، ولجيدا للموسيقى الصافية ــ وهو عذوبة مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسين يحكم علاقات الرسام اليابانى كاما وزوجته(١٠٨) فان مالرو الذى يبدو ، كما لو كان يشيد بالزوجين الشرقيين ، يعلم تماما ان هناك بعض المبالغات العكسية فى علاقاتهما . وتدين ماى عبودية المراة الصينية وتبلغ فى كل ليلة عن انتحار

---

(١٠٣) Claude - Edmonde Magny, art. acit.

(١٠٤) قدر الانسان ص ٥٩ .

(١٠٥) قدر الانسان ص ٦٠ .

(١٠٦) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٧) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٨) قدر الانسان ص ١٦٢ .

المحظيات ، ولقد انقلت فتاة مسكينة كانت قدحاولت الانتحار بشفرة في هودج الزفاف ، وعندما علمت الام بان ابنتها لم تمت صاحت« مسكينة انت ابنتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد كانت تتاح لها فرصة الموت .. » (١٠٩) وهوتعليق يغني عن اى مزيد من الشرح ويقدم لنا صورة وافية عن حالة المراة في ذلك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهرفي جلاء في مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك رساما قادرا على تصوير الغربة . كما يمتازبرسم ملامح الصين التى عرفها جيدا .

ذلك الروائي ذو حاسة الشم القوية مثل شارل بودلير ومارسيل بروست يميز بين الروائح الخاصة بآسيا واوروبا . ويفكر كيو في الاراضي المزروعة بنبات الناردين المحترق (١١٠) ويستنشق في مدينة هان ــ كيو رائحة الكافورواريج البساتين (١١١) .

اما عن كلابيك الذي ارغم على ترك آسياوالذي يخشى العودة الى اوروبا فان اول ما ذكره بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المبتل من الحديقة . ذلك الاريج المر هي اوروبا » (١١٢).

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداعند دراسة قدر الانسان ان الكاتب مهما كان ملتزما في مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كل شيء فنانا كبيرا . ذلك الهاوى للفن يوضح على لسان الرسام الياباني كاما الفرق بين فردية الرسم الغربي وعالمية فن الشرق الاقصى .

« عندما ذهبت الى اوروبا شاهدت المتاحف . وكلما صنع رسامو كم التفاح وحتى الخطوط التى لا تمثل شيئا زاد تعبيرهم عن انفسهم . وبالنسبة لي فالعالم هو الاهم » (١١٣).

ويمنح مالرو جيزور « تلوقه الثقى للفن. (١١٤) وعندما ينظر الفيلسوف العجوز الى تشين وانفه المسحوق « كالمنقار » (١١٥) يتذكر « صقرا مصريا من البرونز احتفظ كيو بصورته لحبه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددة في الرواية :

---

(١٠٨) قدر الانسان ص ٤٢

(١١٠) قدر الانسان ص ١٢ .

(١١١) قدر الانسان ص ١٢٩ .

(١١٢) قدر الانسان ص ٢٠٢ .

(١١٣) قدر الانسان ص ١٦١ .

(١١٤) قدر الانسان ص ٦٠.

(١١٥) قدر الانسان ص ١٤ .

(١١٦) قدر الانسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوكة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التى تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة شقراء صلبة كلابيك يفكر فى « لوحة من لوحات روبنس (....) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يعلى مالرو فى **قدر الانسان** فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده « **ضد القدر** » مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيما بعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد فى ابتداع لانهائى .

وقد وهب ذلك الفنان الكبير احساسا عميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جايتان بيكون نظرته المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور . فهناك لون **للغزاة** وهو غير ذلك الذى فى **الطريق الملكى** . ويترك لك **قدر الانسان** ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . **والامل** كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموى احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفى الواقع فان ما يصدم القارئ قبل كل شيء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للابصار وبين الظلال .

ومنذ المشهد الاول فى الرواية يرسم الكاتب « جسما اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهتة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات فى ذات الفصل مصرا فى كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك الليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تتغير انارة الحجرة وتتسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « فى النور الثابت والصاخب » (١٢٤) .

---

(١١٧) قدر الانسان ص ٥١ .
(١١٨) قدر الانسان ص ١٢٥ .
(١١٩) قدر الانسان ص ٢٠٨ .
(١٢٠) Ca'étan Picon, l'Usage de la lecture, Mercure de France 1960.
(١٢١) قدر الانسان ص ٩
(١٢٢) قدر الانسان ص ٩
(١٢٣) قدر الانسان ص ١٠
(١٢٤) قدر الانسان ص ص ١٢ .

ولمة مناظر اخرى اكثر دلالة : « مهزوزةمن قلقة كان الليل يغلى كدخان اسود هائل مليء بالشرر » . (١٢٥) ويقدر مايهدا تنفس تشين قليلا « يخمد الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » (١٢٦) وتسع متابعة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا نقتصر على الاشارة الى امثلة هى فى نظرنا آيات على عبقرية التعارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لاول مرة من والدين مختلفى الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل القاء الضوء على مميزات هذين الاصلين اللذين يشاركان وجه البطـل :

« يؤرجح الباب المغلق المصباح (....)وعندما يمر المصباح فوق راس كيو يعيز بوضوح فمه المشابه لما فى اللوحات اليابانية . وعندمـا يبتعد المصباح تتغير اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك المولد وكانه وجه اوروبى تقريبا ولما يكون تأرجح المصباح فى نطاق ضيق يلوح وجه كيو اقل اختلافا » . (١٢٧)

تلك اللوحة اخاذة الى حد انهـا تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الـى وفـرة الظلام . فاغلب المشاهد تقريبا تدور فى الظلام. ونتخيل وجود اشخاص اكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذى يكاد يكون ظاهرا »(١٢٨) وجوه ظاهرة الى حد ما فى الظل ».(١٢٩) « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجوه » .(١٣٠) وخيال تشين « كان ينفصل فى غموض ». (١٣١) واذا كان زميلاه بصعوبة قد شاهداه . ويضيف الكاتب جملة قصيرة اكثر دلالة من شرح اطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة »(١٣٢)

ولقد كان المنظـر دائمـا غـير واضـح كالشخصيات » : منازل غير واضحة » (١٣٣) . الانوار المبهمة يمدن الضباب » . (١٣٤) وكان الجـو المليء بالضباب شبه مستمر ويتكيف تماما مع الظروف » : كانت الشمس ذات اللون الاصفر والمليئة بالضباط تجعل وجوه تشين وزميليه باهتـة » (١٣٥) بعد ان فشـلوا فى مؤامرتهم بقتل تشانج ـ كاى ـ تشيك . وابعد من ذلك « كانت السـماء رمادية اللون وكانت تهيمن هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذى

(١٢٥) قدر الانسان ص ١٢ .
(١٢٦) قدر الانسان ص ١٢
(١٢٧) قدر الانسان ص ١٦ .
(١٢٨) قدر الانسان ص ١٢٩ .
(١٢٩) قدر الانسان ص ١٣٢ .
(١٣٠) قدر الانسان ص ١٣٣ .
(١٣١) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٢) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٣) قدر الانسان ص ١٤٩ .
(١٣٤) قدر الانسان ص ١٩٧ .
(١٣٥) قدر الانسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لان تشين فى تلك اللحظة على الاخص يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

ويعكس تلك الانارة الهادئة وغير الواضحة والحزينة دائما فان لقوة الاضاءة مؤدى معينا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة « شانج ـ توتج » ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن الحربية للاعداء : « كانت اضواء الكشافات تنتقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقى كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي تندر ظهورها فى الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار « مؤقت » لا يستمر الا قليلا .

« الشارع مليء بالشمس (...) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذى يلمع تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية : « كان جيزور يتامل الخليج المليء بالشمس » (١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التى كانت مليئة بالغياب والظلام تنتهي على صورة مضيئة وتترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة فى رواية مالرو التى تظهر وتختفى فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما ، « والصفارات المتزايدة والات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم » كل ذلك يرن مثل طنوات القدر وينفصل حتما فى خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض جليا : « تنطق الات تنبية اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه الموجة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد فى صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للرتابة والازعاج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض اكثر جلاء عندما ياتي فى ذات العبارة :

« الصمت ـ الجماعة الصينية عادة من الاكثر بريقا ـ كان يعلن عن نهاية العالم » (١٤١)

---

(١٣٦) قدر الانسان ص ١٥٦ .

(١٣٧) قدر الانسان ص ٦٣ .

(١٣٨) قدر الانسان ص ١٠٨ .

(١٣٩) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

(١٤٠) قدر الانسان ص ٩ .

(١٤١) قدر الانسان ص ٧٧ .

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نغمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهى ذلك الازدواج الذى يتسنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات العديدة التى توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذى يميز الموضوع يؤثر على الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للرواية . ونشير الى الملاحظات المزدوجة العديدة التى تتكرر فى صفحات الرواية . « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت ، فيما عدا الالم » . (١٤٤) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان (كيو) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهم » . (١٤٥) وتقول ماى وهى امام جثمان زوجها : « حياتي .... (١٤٦) .... ، « كانت هناك الوحدة اولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧)، وكاتوف « كان يشعر بانه ملقى فى وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البعث ! » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...

• • •

خاتمة

فى ختام دراستنا من **قدر الانسان** نخلص الى ان تلك الرواية ، كاعمال مالرو كلها ، « انسانية » فى اساسها . والرجل فيها الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهرى :

« ايها الكاتب ، من عبث بى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفى الواقع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن المأساة فى قدر الانسان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائى الذى احاط بمشاكل الرجل حلولا لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان ـ بول سارتر ويعمل على اظهار اتساق الفلسفة السارترية والتردد فى فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديلوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التى هى أصل الوجود الى العمل التحريرى ، ومن اللامعنى الى المعنى

---

(١٤٢) قدر الانسان ص ١٦٣ .
(١٤٣) قدر الانسان ص ١٥ .
(١٤٤) قدر الانسان ص ٢٥٢ .
(١٤٥) قدر الانسان ص ٢٥٦ .
(١٤٦) قدر الانسان ص ٢٦٢ .
(١٤٧) قدر الانسان ص ٤٩ .
(١٤٨) قدر الانسان ص ٢٥٧ .
(١٤٩) قدر الانسان ص ٢٥٩ .
(١٥٠) مالرو شجر الجوز فى الالتنبرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر اندرية مالرو يسلك الطريق المضاد ، ـ من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من العبث والوجود الى الشك في الانسان » (١٥١) وتستطرد ج . ديلوم قائلة انه لايوجد عند مالرو « درجات للقدر » ، « ولا درجات للمواقف » . و « لا درجات للاعمال » . (١٥٢) وعالم النسيان لجيزور صحيح ايضا كالبحث عن الاجل لتشين وكلابيك يتكافا مع كيو ، من اجل ذلك كله فان روايات مالرو « بدون حل موضوعي او اخلاقي » (١٥٣) لان مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودي من عدم وجود رد على سؤال مالرو العقلي الا اذا كان هو قلق الرجل الخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بان وجه النظر الوجودي حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما اوضحنا من قبل ، لا مكان عنده للعدو ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى حلم التاليه عند كيو ، ومع ذلك فان التمييز ملموس بين انتصار كيو ، وكاتوف ، وهيميرليتش ، وفشل تشين ، وفيرال وكلابيك ... لان الابطال الايجابيين في الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجدب الدائم بين الانسان والقدر يدل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بيير دى بوادفر وبحق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية في عصرنا ، ولكنه لم يقدم حلولا لها . وتظل انسانيته مفعمة باليأس اذا لم ينفتح نحو الحقائق الاكثر رفعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته في الايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان في عالم لايقدمه اليهم ، وهم مضطرون الى ان يجدوه في انفسهم وحتى في « الجانب الالهي » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا ننضم الى الدراسات التي تمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هوفمان ، وبيير دى بوادفر ، وتؤكد مع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود .. فان سبب ذلك رفضه وجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لايوفق بينهما . وللمواءمة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . ويعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما (المؤمن) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنيهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

---

(١٥١) J. Delhomme, op. cit., p.245.

(١٥٢) Ibid., p.152.

(١٥٣) Ibid., pp.247 et 262.

(١٥٤) Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle),1952 p.119.

(١٥٥) J. Hoffmann, op. cit., pp.353, 370.

(١٥٦) P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 111 - 119.

من وحي العلوم

عبد العزيز أمين

اردت بهذا المقال ان استعرض تفاعل الناس مع الطبيعة من اجل المعرفة ، وبخاصة فى المجالات العلميـة ، فامسكت بقلمى لادون مذكرات عما صادفنى فى حياتى العلمية ، مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية فى السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها،وجهود الأفراد والجماعات ، تحت رايات القيادات الرشيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن فى اول طريقنا لاستعادة امجادنا العلمية والادبية والفنية . وذهب فكرى الى ملايين السنين التي مرت على الأرض منذ نشأتها الاولى الى ان ظهر عليها الانسان العاقل ، فتاملت الطريق الطويل الذى سلكه الانسان حتى بلغ كل ماتصبو اليه نفسه تقريبا ، كما تاملت ماصنعه الانسان في البيئة من زرع وحرث وتشييد وتعبيد وري وصيد ، ثم وجدته يستأنس الحيوان ويسخره لخدمته ويطوع الطبيعة حسب ارادته ، فرايت ان ابدا بالكتابة عن علاقة الانسان بالارض والمناخ ، ثم انتقل الى طريقه فى كشف المعرفة ، واهدافه ، وبعد ذلك اشير الى العلوم وتصنيفها،والعلماء وجهودهم، وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعاناتهم .

الانسان والأرض

ان الحضارة الانسانية هى ثمن التفاعل الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، من

يابسة وبحر وهواء وكائنات حية واجسام ميتة . والانسان يجمع خبراته بنفسه ويختزنها فى ذاكرته القادرة على امتصاص ماتستقبله من حقائق، ويعمل دائما على تحقيق ما يريد بالداب على العمل ، مستخدما فكره الواعى ، ومعتمدا على الصبر والاناة والارادة والتصميم . ويعمل على تحسين احوال الارض حتى يعيش فى بيئة افضل دائما . ونحن نجد فى كوكبنا ، الارض ، مانحتاجه من مواد ، ومع ذلك فيه ايضا الصحارى المقفرة والمناطق الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الانسان بالرقعة المزروعة من الارض بل اعاد النظر فى طبيعة الارض ، فاقام المشروعات الكبرى من اجل رفاهية الناس . وبين يدي كتاب طريف بعنوان « الانسان يصلح كوكبه » لمؤلفة السوفيتي **اداباشيف** . وقد ترجمته الى العربية دار التقدم بموسكو . ذكر فى مقدمته اشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم فى شتى الاوقات نحو الناس من اجل خيرهم . وكرس الكتاب موضوعه للمشاريع الرائعة التى تبدو اسطورية ، والتى يتوقع المؤلف ان يتم تنفيذها بجد العلماء والمهندسين ، مثل انشاء نفق تحت بحر قزوين لرى الصحارى بواسطة مياه جبال الثلج العائم، وتحويل الانهار الكبرى فى سيبيريا ، وتدفئة تلك الصحراء الجليدية الشاسعة فى الاسكا وكندا وسيبيريا الشرقية ، ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفئة الاماكن الباردة بالدفء الطبيعى الكائن فى اعماق البحار . انها مشاريع واقعية تستند الى العلم والتكنولوجيا .

يدعى قدماء الكيميائيين انهم حضروا مادة زجاجية سحرية ابان القرون الوسطى يرى المرء من خلالها العالم كله فى آن واحد . وليت هذه المادة حقيقية وموجودة الآن لأرى الارض كلها وما عليها، او ليتنى استطيع ركوب متن الفضاء لأرى روعة الارض وغناها وتنوع غاباتها وأحراشها وما بها من بحيرات عذبة ، وسط الحقول النضرة او الذهبية او المتلألئة بأزاهير مختلفة الوانها تسر الناظرين ، وأن أرى عشرات الألوف من القنوات والمجارى المائية ، التى تجوس خلال الارض ، وتملؤها حياة من نبات وحيوان .

ان الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعا متجانسا فى كوكبنا ، بل كثيرا ماتوجد مناطق غنية بالموارد الطبيعية فى صحراوات قفرات او جبال وعرة او تحت سطح مياه آسنة أو فى قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الانسان ان يكد ليحصل على هذه الموارد اذا احتاج اليها .

وعلى العلم ان يعرفنا اسرار هذه الطبيعة وقوانينها وتفاعل كلٍ من المواد والبيئة وكيفيته وسبب حدوثه ان امكن . وان يستخدم الانسان العلم ليحقق الاهداف التى يرسمها كى يشبع احتياجاته . وهذا العمل هو الفن التطبيقى (التكنيك) .

اننا لن نرضى او نقنع ابدا بحالة العالم التى نعيشها ، بل علينا بذل انشطة جبارة لتحدث مايلزم من تغييرات مستمرة وتطورات صاعدة لتحسين وسائل المعيشة واساليبها .

ان السكين المعدنى الذى تستعمله اليوم مثلا لا يشبه اطلاقا آلة القطع التى استخدمها الانسان منذ اكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا يشبه خام الحديد الذى استخرج منه ، بل هو محصلة عمليات وانشطة انسانية طويلة وخبرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال آلاف السنين .

ان الثمرة التي ناكلها اليوم الغنية بما فيها من غذاء ورائحة وطعم لاتشبه الثمرة التي كانت تنمو في البرية ، بل هى نتيجة تطورات طويلة وبحوث مضنية عبر التاريخ . والثوب القطنى الذى نرتديه يختلف في مادته عن القطن الذى كان ينمو منذ آلف السنين من حيث طول التيلة ، وخواص اخرى عديدة .

خشى الانسان القديم اخطار العواصف والرعود والبرق والامطار والتعرض للجوع والقحط والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتي من عقل فامن بربه ، وداب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنبا الى جنب في تلازم عبر التاريخ .

الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا من تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهى تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب ارادتنا ونطوعها لخدمتنا . والارض والكواكب الثمانية الاخرى وتوابعها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتقترب الارض تارة من الشمس ، وتبتعد عنها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويتغير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمى بالمناخ ، يتحدد بالموقع الجغرافي للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . وتؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التى تحمل الدفء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر ان بعدا او قربا ، وبالارتفاع عن مستواه . وتؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة لحياة الناس . وهنا يأتي دور العلم ليعدلها بأن يغير طبيعة الغطاء السطحى للارض . انك قد تندهش اذا علمت ان الماء يعكس خمسة فى المائة فقط من اشعة الشمس بينما يعكس الثلج خمسة وثمانين فى المائة منها ، ويمتص الرمل سبعين في المائة من اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين فى المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كى تخدمه وتشبع حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان بملايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا، وتزن خمسين طنا ، وكان منها ما تحلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالغابات ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتملا المكان بالعقلة ، ثم تختفي وتبيت البيات الشتوى عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد وتقلب المناخ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وتفوقت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة (هوموثرم) .

ان درجة حرارة جسم الانسان (٣٧° مئوية) هى المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التى تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحرارى بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية (بين درجتى ٣٥° و ٣٨° مئوية) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالى ٢٥° مئوية . وكان هذا سبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجزيرة العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما عرف النار . وبنى البيوت وعرف الكساء ونظم حياته وكشف عيشه واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فنمت معارفه ، وتراكمت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالمعادن والفحم ثم البترول ،

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التي ظلت متأخرة طوال سني التدخل الخارجي قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن اروع امثلة هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التي حولت ارادتها ارضها الصحراوية الى جنان ومنشآت عمرانية ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوعي واخلاص وايمان . وتأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

طريق العلم وهدفه

فكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم والمام لرؤيته الروحية ورفاهيته ليشعر انه قام بدوره الحضاري ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفه تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يملأ صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشير الى ما يجب ان يتصف به الذي يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفحة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختزان ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الارادة القوية الصامدة ، والقدرة الفائقة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يدرك اهدافه .

ان صمود « **توماس اديسون** » المخترع الامريكي في عمله وهو يخترع المصباح المتوهج لمن اروع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يعثر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع شأنهم انفسهم . وهذه القوة الدافعة هي التي تجعلهم يستمرون في عملهم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لايذوقون طعم الراحة حتى يستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصمدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراعهم الجديد او نظرياتهم الجديدة .

ان العالم يسير في طريق التغيير المصاحب لما نستخدمه من مواد وطرق وآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعلينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغيير ، وان نتقبل ما يثبت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فتراه يتمسك باهداب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يألفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهور في مناوراتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .

وقد عرفنا من العلماء المشارقة **ابا بكر الرازي** الطبيب الكيميائي ، وعالم البصريات **الحسن بن الهيثم** ، وواضع علم الجبر **الخوارزمي** ، ثم **جابر بن حيان** صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب **جاليليو ونيوتن ورذفورد ومدام كوري واينشتاين** وآلافا غيرهم من الافذاذ . ويزخر التاريخ بالمعاناة والصبر والصمود والنصر . واخيرا تقدير الناس لأعمالهم في حياتهم واحيانا يأتي الاعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان **لفوازييه** الذي قطعت مقصلة الثورة الفرنسية رأسه اقام له الفرنسيون تمثالا تخليدا لذكراه واعترافا بفضله في وضع اساس الكيمياء الحديثة . **ويوسف بريستلي** القس الانجليزي الذي كشف الاكسجين وصاحب الفضل في كشف اكاسيد النتروجين لم ينجح في الافلات من الاعدام . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن عشر ميدانا لجهاد كيميائيين

يعملون بالبوتقة والميزان والانبيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيماوية عامة .

والاشتغال بالعلوم يعنى التكريس لـه والتعرض للعناء والالم احيانا . ولكن الامل يتحقق بعد ذلك . ومن منا يجهل فضل عالم مثل **لويس باستير** كاشف الميكروب الذى بدأ حياته العلمية مدرسا وتقلبق المناصب العلمية حتى ارفعها ، وكذلك **بير كورى** وزوجته **مدام كورى** فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم **لافوازييه** فقد كشف نظرية الاحتراق وهدم النظرية القديمة المعروفة باسم الفلوجستون . ومن منا لم يسمع او يعرف فضل العالم الروسي **مندليف** الذى رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدورى لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالمتاعب والآلام والظلم والاضطهاد احيانا ولكننا نأسف الآن لما قاسوه فى حياتهم ، ونعترف بافضالهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة فى التكنيك العصرى ، فينشط الناس لنقدها والتشكك فيها والتوجس من نتائجها ، لكن الحق ينتصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذى يكلف صاحب النظرية الجديدة او الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصارة فكره ، ومع ذلك لا يبغى العالم من وراء كشفه العلمى جاها ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعده ارضاء الناس .

وقد يتخبط الشاب اذا سئل عما يرغب ان يكون فى المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم لتحديد اهدافهم بشيء من الدقة . والطالب الذى لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح فى الامتحان، وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التى يدعى البعض انها سريعة التطاير من العقل كما تتطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة فى دراسة هذه المادة او تلك، ولا يدفعهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين — اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة — وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع فى العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحياة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميول والرغبات الحقيقية .

واستطيع ايضاح طريق رسم السبيل لحياة علمية منذ دخول التلميذ بالمدرسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة فى الصف الاول منها، فانه يجد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه يشعر بالرغبة فى المعرفة أيا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربية ، ونفاثات وسفن الفضاء، وعتاد حربى. والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعى تختص به جماعة من الناس تعمل فى المختبرات ويرتدون المعاطف البيضاء ، وقد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصرهم من كثرة القراءة والبحث ، ويهملون حياتهم الاسرية عادة او ينسون الحياة الاجتماعية . ان هؤلاء فى الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا فى خيال بعض مخرجى الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية، لها معناها واسلوبها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن فى غمرة الآلات والصمامات والاسلاك والعدسات، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلالات نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك فى العصر الحديث .

اننا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابكة من المعارف ونحولها الى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تاثرت لغة العصر بالعلوم الحديثة ونقرا عناوين الصحف وبها مصطلحات لم تعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت» او «اشعة الليزر» او «الطائرة الالكترونية » او « الحياة على المريخ » . ويجب ان يعرف المشتغل بالعلوم شيئا من تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبنى عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدفعك الى انماء معلوماتك فى نوع معين من العلوم . ويقيم التاريخ العلمى جسدا يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادى بوحدة العلم والادب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر عن وظيفة الشعور ، ولكن تكمل احداهما الاخرى ، كذلك الادب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون الى مفكرين وشعراء مثلا . ووُصِمَ العلم فيما مضى بالبعد عن الروحانية وقاومه رجال الدين ، واعتبر فى القرن التاسع عشر عيبا ، فترفع عن تحصيله اهل الادب كى يحتلوا مكانة رفيعة فى المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والادب فى عقول الشباب فى القرن الماضى . ولكن العقول الناضجة تستطيع استيعاب العلم او الادب على السواء . فالعوامل التي يتميز بها الشخص اللامع عن الخابى هى نفس عوامل الذكاء فى المهتم بالعلوم الانسانية او المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس اعمالهم ينقسمون الى اهل علم واهل ادب . ويظن البعض انهم لا يطيقون فهم الموضوعات الرياضية او الميكانيكية او لا يدركون معانى الاشياء العددية ، والواقع ان كل عاقل يستطيع استيعاب هذه الامور اذا امعن الفكر ودرب العقل ، مثلما يستطيع استيعاب الموضوعات الادبية او الانسانية . وقد تجد الفرد مهتما بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم او مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

وكذلك قد يكون مهتما بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع اخر فيقضى على هذا الاهتمام . ان المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء امثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر فى العلماء وتبعدهم ولو مؤقتا عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة او فكرا معينا بل هو معنى واسع . اما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمى (Scientist) التى اخترعها الانسان حديثا .

وقد لا يقنع العلماء بما يعرفون ، بل يعتبرون انفسهم افذاذا قادرين على الاتيان بالعجيب من المعرفة او الاختراع ، مثل كشف الالكترون والرادار واشعة الليزر واختراع اجهزة القياس الراديوى المستخدمة فى علم الفلك الحديث ، او اجهزة العلاج باشعة جاما التى تنبعث من الراديوم ، فالعلماء يغيرون احـوال الناس واساليب حياتهم كما تتغير احوال الناس بتاثير الادب او السياسة او الرياضة . ان العلم والادب يقومان بتنظيف طريق الحياة من ادران الماضى ويفسحونه للسير فى موكب التقدم فى حياتنا العصرية الفياضة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون مـن كل جديد ولا يؤمنون به الا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الادب ان يستمتع بقراءة العلم ايضا ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من ارقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، او قد لا يحاول فهمها ، ظنا منه انها غير ميسورة الفهم .

وهذا يجعلنى اعود بذاكرتى الى ايام الصبا . عندما كنت واترابى نتردد على مكتبة البلدية باحدى مدن الاقاليم ، فكنت اقرا بغير هدف فى كتب تتعلق بمقررات الدراسة اولا فـى الجغرافيا وفى التاريخ ، ولكنى وجدت نفسى لا اعرف الا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيـا بالصف الرابع الابتدائى يشرح درسا عن الهند ، فدفعنى الفضول الى

استعارة كتاب عن حياة الهنود ، كما جمعت بعض الصور عن الهنود وعن اشياء اخرى لا تتعلق بالمنهج الدراسي . ولما كنت بالمدرسة الثانوية استهوتني الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا ، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات فولعت بالتقليد ، وفكرت في اصل هذه المواد ، وقرات عن الفيلسوف الذي فكر لاول مرة في بنية المادة ووضع فكرة الذرة ، كما استهوتني موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتصوير الشمسي وصناعة الصابون المنزلي ، ثم تحول اهتمامي الى موضوعات . بعيدة البعد كله عن المقررات المدرسية .

قرات عن جاليليو وعن نيوتن وبيكن ، وكانت لي جماعة من الاصدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار . وامتزجت مشاربنا وتفاعلت افكارنا وتركزت في بعض الافكار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يعنيه الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة ، وانهما في الواقع مقترنان — ولعله قرا هذا الراى في كتاب — وكان ثالث يرى اننا نهذي عندما نتحدث بفائدة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التي يشبع بها جوعه ، ان العالم يسال ويطلب اجابة شافية على اسئلته . كان احد زملائي الاكبر مني سنا كثير التساؤل . وكان يسالنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابداع اشياء تنفعنا . واجابه احدنا بقوله ان العلم يميط اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبدا يستشهد بكشف تكوين الماء من عنصرى الاكسيجين والهيدروجين ، وكشف الهواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازى خمسه اكسيجين واربعة اخماسه نتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم في الكيمياء خواص النتروجين ، كما كشف خواص الاكسيجين ، وعرفت اكاسيد النتروجين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك وانواع من المفرقعات كالديناميت الذي يستخدم في نسف الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كشوف ادت الى ظهور مواد جديدة نافعة ، فاساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها في المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذي تمكنه رؤية الافاق البعيدة في مجال بحثه ويعرف الارتباطات والعلاقات بين الظواهر .

وتشيد البحوث العلمية طبقات عليا من صرح العلم ، فيزداد سموا . وتمكننا الحقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطات متعددة بين الظواهر فنكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف في القرن الماضي ان اليورانيوم معدن قليل الفائدة ثقيل الوزن ، ولم ترد كثيرا عن ذلك ولكني تبينت بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثم كشف الالكترون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكونات نواة الذرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم من اهم دعامات العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة في علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائي للمواد . وكشف احد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائي الى طائفتين : مواد تزداد توصيليتها الكهربية كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيليتها الكهربية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبين اختلاف كبير في نمط البناء الوضعي للالكترونات في ذرات كل من الطائفتين ، فالمعلومات تتراكم ، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربية ببناء الذرة .

ويمكننا ان نجد مثلا اخر من القوانين العامة التي تحكم المجتمع الانساني ، او قوانين تطور الحيوانات في العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

الا ببذل الجهد واجراء البحوث ، اذكر اننا كنا نتجاذب اطراف الحديث ، وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والعامل باحد مصانع الحديد والصلب ، وكان اليوم عيدا ، وتطرق الحديث الى العلم والادب والزراعة والطب . وسأل احدنا عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة . وسأل آخر اهذا النوع من العمل يدخل في نطاق العلم ام الفن ؟ فرد عليه المهندس انه ينطوي على كشف حقائق علمية، وان تحسين جودة انتاج الصلب تدخل في نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقي . اننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المشتغلين بالعلوم : عالم او مشتغل بالعلوم . فاذا وصفنا الشخص بانه عالم او بانه مشتغل بالعلوم فان هذا لا يعني اكثر من ان لديه كمية من العلم يستخدمها في البحث العلمي او الكشف عن المجهول . وتنقسم الانشطة العلمية الى ثلاثة اقسام : (١) **العلوم التطبيقية** (٢) **العلوم الانسانية** (٣) **العلوم الطبيعية** .

ويهدف اي بحث في العلوم التطبيقية الى غاية عملية . فابتداع طريقة جديدة للتصنيع او مواد جديدة او وسائل اكثر سرعة في تصنيع المنتجات او اوفر راحة او اسهل في النقل او فريدة لخصوبة التربة او تخلق ادوية جديدة، كل هذه امثلة من اعمال علمية تطبيقية . ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب كلها علوم تطبيقية .

اما اتجاهات البحوث في العلوم الطبيعية فواضحة ، ولتقودها متطلباتنا او متطلبات الطبيعة . فاننا نجد ان الاحتياطي من الطاقة اخذ في التناقص ويهددنا بالنفاذ، وهذا مايدفع الناس الى التطلع لايجاد موارد جديدة للطاقة. وفعلا تظهر الآن بوادر الطاقة النووية . وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم ، تزايد احتياجنا للصوف واصبح لايكفي متطلباتنا ، فعمل العلماء بجد واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت الالياف الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا في الاقتصاد العالمي بدل الصوف الطبيعي وغيره من الالياف الطبيعية ، كالقطن والكتان والحرير ايضا . فالانسان يعيش في دنيا الموارد ويبذل قصارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية باخرى تخليقية ، ويطوعها وفق ارادته وحاجاته . ان العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لايجاد الحلول لمشاكل الانسان . واذا تساءلنا عن كيفية سلوك الاشياء مسلكا معينا ، كذلك اذا سألنا عن النظام الوضعي للاحداث في عالم الاشياء والترابط بينها وعن ترتيب الكون المحيط بنا فان العلوم الطبيعية لديها الاجابة على هذه الاسئلة وهدفها النهائي معرفة اسرار الطبيعة وفهمها .

وليس تقسيم العلوم الى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا ، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات،والكيميائيون الذين يدرسون تحطيم الروابط الكيميائية بين الذرات وعلماء الاحياء الذين يستخدمون الميكرسكوب الالكتروني لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للاوليات كلهم يجدّون في ميدان كبير واحد هو العلم . اما الفيزيائي الذي يضع التصميم لمفاعل نووي،والكيميائي الذي يحسّن خصائص انواع اللدائن ، وعالم الوراثة الذي يعمل لتحسين سلالة من الأبقار وافرة الادرار للحليب ، فهؤلاء ينتمون الى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيون. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث اذابة الفواصل المفتعلة بين ابواب العلوم التطبيقية ، واصبحت التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق ، وتبدأ من نفس الأوليات النظرية العامة .

بين العلم البحت والتطبيق

واعود الى عهد الصبا عندما كنت اشعر برغبة في دراسة العلوم ، ولكني لم احدد الفرع الدقيق الذي افضل التخصص فيه . وبدات افكر في نوعين من الدوافع . بدات بالسلبية

التي تقصيني عن فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص في التكنولوجيا قد انهارت امامي منذ البداية ، فلم تكن بلادي قد بلغت مركزا ملحوظا في العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر الى اوروبا . وكنت اشعر بميل الى البحث الجاد عن المعرفة ، واستخدم التحليل المنطقي للمشاكل التي تصادفني . واستهوتني دراسة العلوم وانا بالمدرسة الثانوية متأثرا بأستاذ معين ، وتخصصت في الكيمياء ، وتحولت الى التطبيق العلمي عندما التحقت بهيئة التدريب بكلية الهندسة، فاتجهت في بحوثي الى استنباط طرق جديدة وسهلة لتحليل المعادن ومخاليط الاملاح والسبائك، ولما اتيحت لي فرص السفر الى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب . واني لا ازال اذكر احد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمي ، وكان احد تلاميذه يبحث اشباه الموصلات الكهربية فتوصل الى كشف ادى الى وضع خطة لاجراء تجارب تلزمها اجهزة غالية . وكان الاستاذ يشكو من اقتناع المسئولين بأهمية هذا البحث فلم يوافقوا على تزويده بالمال اللازم . واذكر ايضا من تاريخ العلوم ان احد الباحثين اراد قبيل الحرب العالمية الثانية ان يجري بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام اجهزة ومعدات غالية فلم يحظ بموافقة المسئولين على تمويله. وقالوا ان النتائج قد لاتساوي المبالغ الباهظة المطلوبة. ونعلم الآن ما يجري في الدول المتقدمة المسماة « **النادي النووي** » من بحوث في الذرة والطاقة النووية من أجل السلام ، ومن اجل التسابق في احراز أسلحة نووية حديثة .

ان العلم البحت يخدم ايضا الصناعة والتكنولوجيا كما يخدم الدفاع الوطني . والبحوث البحتة تقودنا الى البحوث التطبيقية. ان الفرن اللافح الذي ينتج الحديد الزهر بمعدل نصف مليون طن في العام ، يتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى « **سيكلوترون** » **والذي يبلغ نفس حجم** الفرن العالي ، ومع ذلك فلا يتجاوز انتاجه الا القليل جدا من الذرات المشطرة (جزء من مائة الف من المليجرام) في السنوات الأولى من بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء في الماضي قاصرا على المصباح المتوهج ، الذي اخترعه اديسون ، والتلغراف والجرس والتليفون والقنبلة الزمنية ، اما اليوم فقد امتدت ايدي العلوم التطبيقية الى الكهرباء ، وفتحت آفاقا جديدة في هذا العلم .

ان السير مع تاريخ العلوم واخبار العلماء ليبين روائع التراث في التطور الحضاري . ويكفي ان اذكر اسماء علماء مثل **كوبرنيكوس** وكبلر وجاليلو ونيوتن ثم **هرشل واينشتاين** وهم من اعاظم رواد اسرار الكون . نقد **كوبرنيكوس** نظرية العالم الاغريقي بطليموس عن الأرض التي ظن انها مركز العالم . بعد أن لبثت في الاذهان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير الى ان الشمس هي التي في مركز المجموعة الشمسية، والأرض أحد الكواكب التي تدور حول هذا المركز . وجاء « **كبلر** » فحدد شكل افلاك الكواكب . ورصد جاليليو الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادىء الاولى للبحث العلمي . وجاء **اسحاق نيوتن** فاذهلنا بقوانين الحركة التي كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . اما هرشل فبين ان المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشموس . ووضع اينشتاين النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلائع الفكر الحديث من القرن الخامس عشر الى العشرين . وعاش في نفس الزمن علماء آخرون اهتموا بفروع اخرى من العلم ، فمثلا نجد في الكيمياء **لريفيان وباراسيلسوس** وقد عاشا في القرن الخامس عشر، وتبعهم **يشتر** الذي عاش في القرن السابع عشر ، وكانوا رواد الكيمياء القديمة في اوروبا التي تبحث في صناعة الذهب واكسير الحياة الدواء الشافي لجميع الامراض . وكان القس الانجليزي **بريستلي** كاشف الاكسيجين اول رواد الكيمياء الحديثة

وعاصره **لفوازيه** الفرنسي كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى راس قائمتهم **جون دالتن** صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدي **برزيليوس** واضع الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التي كانت في شكل رسوم غير مفهومة . فقضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة مثلما قضى لفوازيه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون » . وظهر في القرن التاسع عشر **افوجادرو** صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الغازات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، ثم اعقبه « **فوهلر** » اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائي الروسي **منديليف** الملقب بـ « نبي الكيمياء » لانه وضع النظام الدوري لترتيب العناصر وواضع جدول منديليف . وفسر « **ارهينيوس** » سلوك المحاليل الموصلة للتيار الكهربائي بالنظرية التي وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضي الانتصارات العلمية الكبرى ببزوغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديوم والنشاط الاشعاعي ، بفضل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدي « **بيير كوري ومدام كوري** ثم **هنري بيكول** ثم كشف الالكترون في انجلترا على ايدي مدرسة طومسون **ورذرفورد** ، ثم **موصلي ولنجميور** ، وكلهم من بناة العلوم النووية . ويظهر من بعدهم في القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة ، والانشطار النووي ، ومن بينهم «**الوراتس**» صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التي تحاصر نواة الذرة وتدك حصنها المنيع ، ثم **اينشتاين وماكس بلانك** اصحاب النظريات الجديدة في النسبية والكم .

والمعتاد ان تظهر اهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزي **ميشل فاراداي** واضع قانون التاثير الكهرومغناطيسي سنة ١٨٣١ ، ووضع ايضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر اهمية هذه الانتصارات العلمية الا بعد ما اخترعت الآلات الكهربية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فاراداي لقوانينه . وكذلك كشفت الاشعة السينية واثبت « **هان وشتراسمان** » امكانية اقتحام نواة الذرة لما لاحظا ان النيوترونات البطيئة تشطر نوايات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الافكار خامدة حتى تحقق التفجير النووي ، بعد سنوات عديدة ، في ايطاليا بمعرفة « **انريكو فرمي وليزامايتنر** » .

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتراكمت في مجالات العلوم البحتة اولا ، ثم وجدت هذه الاشياء التي ظلت مجهولة عيونا بصيرة وعقولا واعية لماحة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجهالة العميق ، ونقلتها من الادراك وهذبتها ثم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها في خدمة المجتمع بالتطبيق العلمي .

مع التطبيق من الجديد والصلب الى الذرة :

يدفعنا الفضول الى البحث لفهم اسرار الطبيعة، ونحن نكتشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها في التنبؤ بالاحداث المقبلة . وتتقدم العلوم في كل فروعها في طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، تكافح الجهل وتوسع التقدم الحضاري ، وتفيض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وثروة وذخيرة ودعامة قوية تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحمي الديار ، وتعزز وتكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للانفاق على العلم والبحث النظري والتطبيقي .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمي ، ولتصل الثروات

التكنولوجية بالكشف العلمي . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عالية قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بزمن طويل ، فان بناة الاهرام القدماء ، وصانعي الزجاج ، وصاهري المعادن ، ومن شقوا عباب البحر في سفن من البردى ، ومن جابوا الفيافي دون مساهمة من العلم البحت ، كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية في شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض ان صناعة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمدا على القوانين الطبيعية عندما كانتا في مهديهما . ويقولون ايضا ان « **جيمس وات** » المخترع الانجليزى لم يكن يعرف قوانين الديناميكا الحرارية ، بل اعتمدت هذه البحوث والاختراعات الحديثة احيانا على التجربة في المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدام التحليل الكيميائي لها ، او دراسة قوانين . وقد ساير اهل الصنعة الاحتياجات والمشاكل التي دفعتهم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلك ، لما تدخلت العلوم في الصناعة الحققت مكاسب مادية كثيرة ، وتغلغلت افكار العلميين في التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يبق شيء من العلم دون استغلال . فقد تطور التطبيق العلمي في السنوات الاخيرة بمعدلات كبيرة .

ولم يسر لتقدم صناعة الحديد والصلب بهذه المعدلات المذهلة الا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، بعدما احتاج الانسان الى صلب قاس ، فابتكر عملية انتاج الصلب القاسي ، واستمرت محاولات الاخصائيين من المهندسين والكيمائيين والفيزيائيين لا نقاص وزن الصلب وانقاص وزن الانشاءات والاقلال من نسب الشوائب الضارة والمدمرة لخواص الصلب الجيد . أننا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاص عشرة او عشرين في المائة من اجراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكر العلماء النظريون افكارا جديدة عن صلابة الاشابات (السبائك) ودرسوا تأثير الشوائب وتغيرها للاشكال البلورية واضعافها الروابط بين الذرات . فهذه الشوائب وجد انها تنتشر في بلورة الاشابة عندما يتعرض للاجهادات ، وان البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثر فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . أن العلم والتكنولوجيا قد تعاونا في نشر مصورات بيانية لانتشار اماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد اماكن العيوب ومشاهده انتشارها في البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحوث لايجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلب . والمعروف ان الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحوله الى صلب شديد الصلادة . كما وجد ان ذرات الكربون صغيرة الحجم تمنع ما يسمى **التشويه الموضعي في بلورة الصلب.** وان هذه خاصيه لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربوني ، بل تشمل ايضا عناصر اخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها في صناعة الصلب .

انتشرت هذه الافكار العلمية والتجارب العلمية وانتقلت من المعامل الى بيوت علم الفلزات (الميتالورجى) والى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . ان الفكرة العلمية تنتقل الى التطبيق العملي في مدة تتراوح بين سنة وعشرات السنين حسب الظروف .

ومن الدوافع القوية للبحث العلمي البحث ، وحدة الحربية والحاجة الموجهة . وهذا يتضح في قصة الطاقة النووية التي بدات ببحث علمي نظري منذ عهد الاغريق لما ذكر **ديموقريطس** ان المادة تتكون من دقائق صغيرة لاتقبل التجزئة سماها ذرات Atoms . **فهو** واضع اللبنة الاولى للنظرية الذرية ، لم تبعه علماء كثيرون الى أن جاء **دالتون** ثم **رذرفورد .** وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الالكترون ، لم عرفت اسرار النواة ومكوناتها ، فانتقل البحث العلمي الحرالى

البحث من اجل استخدام الطاقة النووية في اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات المتحدة ، والنصر بعد القاء قنبلة هيروشيما الذرية ، وما تبعها على نجازاكي اتجهت بحوث الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت المدفعية الذرية . وكانت جماعة **انريكوفومى** تبحث في روما امكان شطر نواة الذرة ، واستخدموا في سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الغاز المشع المسمى « **رادون** » وهو يشبه الراديوم في كونه يشع جسيمات الفية (نواة الهليوم) موجبة الشحنة . اطلق جماعة فرمى قذائف مدفعهم النووى على مسحوق فلز خفيف هو البريليوم ـ الذى يشبه نوعا ما الالومنيوم ـ فكانت القذائف تصيب نواة البريليوم بمعدل ضعيف للغاية يبلغ الواحد في المائة الف ، وعندئذ تتحد القذيفة بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج عنه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت الجماعة تعرف حقا ان الذرة تحتوى النواة في الوسط وان اغلبها الساحق فراغ (٩٩٩ ٩٩٩ ٩٩٩ و ٩٩ في المائة من حجمها) وتتركز مادة الذرة في نواتها . ومن ثم فكثافة النواة قيمة اسطورية (٢٤٠ × ١٢١٠ جراما للسنتيمتر المكعب) . وكان نواة الذرة حصن منيع يكاد يستحيل اقتحامه . ولكن **فرمى** ورفاقه اقتحموه وشطروا النواة . وقامت بحوث عديدة في الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « **ادون ماكميلان** » سنة ١٩٤٠ في بركلى بكاليفورنيا قياس المسافة بين أجزاء الانشطار النووى لليورانيوم ، فاخذ كتيبا من ورق لف لفائف التبغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني اكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الاولى وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كي تكون حائلا يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب وغطاءه اليورانيومى في هدف السيكلوترون (معجل السرعة للجسيمات) معرضا الهدف لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل اوراق الكتيب ، وقاس نشاطها الاشعاعى ورقة ورقة ، ووجد ضالته المنشودة . وجد ومعه صديقه « ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة مجهولة ، وكانت بالورقة الأولى ، تختلف تماما عن كل ما توقعاه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم يعرف اطلاقا في الطبيعة وسمى « **نبتونيوم** » وهو عنصر ابتدع ابتداعا ، فكان أول عنصر صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم في جدول مندليف . ثم أنتج العنصر التالى وسمى «بلوتونيوم» الذى كشفه **سيبورج سنة ١٩٤٠** وكان معه فريق من الزملاء **أوثروال وجوزيف كيندى وماكميلان** ، عندما قذفوا هدفا من اليورانيوم بالنيوترونات في سيكلون . وكان وزن ماأنتج من البلوتونيوم في هذه التجربة الأولى من الضآلة بحيث لم يتجاوز الجزئين من مليون جزء من الجرام . ولايمكن ان يرى بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . فكيف يستطيعون وزنها واذابتها وخلطها ، وهى في نقطة من سائل؟ ان **هذه المشكلة تطبيقية تولدت من الاصل العلمى البحت من اجل تحقيق هدف هو البحث عن اسرار الطبيعة** .

وشحذ العلماء القرائح بحثا عن امكان تخليق عناصر اخرى اثقل من البلوتونيوم يصنعها الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية المستحدثة ، فابتكر **بريس كننجهام ولويز فونر** طرق دراسة كيمياء البلوتونيوم ، فصنعا اجهزة وأدوات لمعالجة ومناولة الكميات الضئيلة جدا من المواد ، التى يقل وزنها عن واحد من مائة مليون من الجرام . وصنعا انابيب شعرية ، تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت هذه الكشوف والمبتكرات الى ظهور **علم الكيمياء الدقيقة** Microchemistry وقد استفيد منها في علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية والكيمياء التحليلية الدقيقة وبحوث الهرمونات وبحوث الوراثة ومعرفة خواص المبيدات الحشرية وتأثيرها في الخلية الحية ، وارتباط هذه التفاعلات بمرض السرطان .

وقد ادى هذا التطور العلمي الواسع الذى الى اختراع الميزان فوق الدقيق للكميات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الذى ابتكره الاستاذ المصرى المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه فى ايرلنده ، ثم فى الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق(Ultramicro — balance) الذى يزن مركبات البلوتونيوم بدقة بلغت ١×١٠−٨ من الجرام . ونشر بحثه وطريقة صنع ميزانه فى المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب اوروبا ترزح تحت سيطرة الفاشية فى سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والنازية تستعد لغزو انجلترا ، وكانت غواصات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادى ، كان اليورانيوم يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية فى سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج باقصى طاقة . وكان فى الولايات المتحدة فريق من علماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد انقضى على عملهم عامان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضا . واقيم مصنع فى هانفورد بواشنطن لفصل البلوتونيوم على اساس انتاجى كبير اعتمادا على البحوث الاصيلة التى اجريت على المستوى فوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هــــذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التى مرت بها البشرية مثلا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر فى نتائج كارثة هيروشيما ، ونحد من استخدام الاسلحة النووية او نمنع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقصره على اغراض السلام .

• • •

علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل فى مجال علمى او فى البحث العلمى قليلا من عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سوف يعمله فى الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبعث به الى ورشة مركز البحوث لتنفذ بناءه ، ويقتضى العمل فى البحث العلمى بعض التغيير من آن الى آخر . ورئيس المعمل هو الذى يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نوعه . ففى الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديوسبكتروسكوبية . ويحصل الباحث على نتائج قياساته ويوقعها بالرسم البيانى فى خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوحى بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة.

والبحث **يحتاج الى اموال . وعلى مدير المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربية الاجيال ، التى تستطيع الاشراف على الاعمال الفنية والادارية ، وعليه ايضا المحافظة على استتباب النظام فى خط موحد متناسق** من حيث الاقسام والافراد بالوحدة الواحدة ، **وكذلك حسن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالمنشآت المعنية والمتصلة بالمركز .** ويجب ان يعلم الباحثون ان الوحدات الصغرى ليست دويلات مستقلة ، بل اجزاء او اعضاء فى جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومى . وقد يكون عدد افراد الفريق فى الوحدة صغيرا او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدات البحوث الاخرى .

وتتمايز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير فى هذا التخصص

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . اما اذا استمر العمل بها دون ما تمايز واضح لمدة عشر سنوات فان هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن ان توصم بعدم استحقاق تسميتها وحدة في مركز بحوث كبير، بل يمكن ان تحول الى خدمة بعض الاغراض الجانبية او المساعدات لوحدات اخرى، وبذلك تبسط وحدة اخرى سلطانها عليها وتستغلها.

وبديهي ان **قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط العريضة التي يسير بمقتضاها الباحثون في دراساتهم . وهو الذي يحدد اساليبهم بالمعاونة** مع لجنة او جماعة صغيرة العدد من الباحثين القدماء بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذي يجرى بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب ان تختلف وحدات البحث في خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب ان تختلف ايضا في اساليبها وفي اتجاهاتها نحو التجارب العملية . فقد تكرس معامل جهودها في انشاء اجهزة معقدة التركيب وابتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معامل اخرى شراء الاجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الاجهزة ، وتفسير النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذه الاجهزة . وقد تختص معامل اخرى بمعالجة مشاكل واسعة التشعب ، فيلزمها مختلف انواع الاجهزة والمعدات ، بينما تركز معامل اخرى الجهد في بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل اسلوب الخطة والمتابعة في البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المزاج الشخصي لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمي العام ومدى تأثره بالتقدم في العلوم المتصلة بمجال بحوثه ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية في البلاد ابان الفترة الزمنية التي تجرى فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسما في وضع الخطط ، اما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم،

وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع في الخطة العامة من اولويات . ولا يستطيع رئيس المعمل او رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذي يستطيع تقدير انتاجه الشهري والسنوي في الميزانية التقديرية التي يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب ان نحدد ما يعتزم القيام به من القياسات وما نحتاجه من الاجهزة والمعدات وما نود اجراءه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما عزمنا القيام به ، فالبحث قد تتراكم به اعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز او كثافة سائل او نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالاشعة السينية او لرسم طيف خطي لمادة ، او لاجراء عملية حسابية . ولكن من الصعب ان نقدر عدد الاسابيع التي قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . **ان البحث الاصيل دائم التغيير والتطور، اما البحث الذي** يعتمد على اعمال نمطية **فليس بحثا . ولا معنى للبحث العلمي الا اذا كان يكشف سرا غامضا من اسرار الطبيعة .** والعمل التجريبي الناجح هو ما يستخدم فيه اقل ما يمكن من الاجهزة ويظهر اعظم ما يمكن من النتائج. والبحث الذي يبدو لنا لاول وهلة بسيطا وسهلا قد يتحول اثناء التجريب الى درجة عالية التعقيد. وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بغاية البساطة والسهولة . انك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت اذهان كثير من العلماء حتى حلها اينشتاين بالمعادلة البسيطة : (ط = ك × س٢) .

(الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء)

القراءة والبحوث :

يقول كثيرون انه يجب على الباحث تتبع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذي يبحثه . ولكن يخالف

بعض العلماء هذا الرأى . ويقولون ان كثرة الاطلاع امر غير حكيم وان قراءة اعمال السابقين تضيق زاوية رؤية الباحث فى مجال ما ذكر فى اعمالهم فلا يتفتق الذهن عن (شطحات) جديدة ، ولا تظهر طفرات علمية اصيلة . ويحبذ آخرون القراءة الكثيرة فى المجالات العلمية العامة المتعلقة ببحث المبتدىء . والغريب ان كثيرا من مشاهير العلماء والمخترعين لم يدرسوا دراسة نظامية فى نوع تخصصهم الدقيق ومع ذلك احرزوا انتصارات رفيعة القدر . ومن امثال هؤلاء « **لويس باستير** » الذى اثبت خطا نظرية التولد الذاتى واجرى تجارب التخمر الكحولى ، وكشف التعقيم المسمى «**البسترة**» وحل مشكلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض كوليرا الدواجن ، وكشف التعقيم ضد الجمرة وداء الكلب . وهو مع ذلك كيميائى لم يدرس البكتريولوجيا ولا الطب . ويقول « بسمار » مكتشف طريقة لانتاج الصلب رخيص التكلفة ما نصه « **كانت لى ميزة كبيرة على الآخرين ممن عالجوا هذه المشكلة ـ اذ لم تتحكم فى فكرى افكار ثابتة مستمدة من خبرات معينة ومقررة منذ زمن طويل ، بل لم اتعرض لقسر تلك المعتقدات السائدة بان ليس فى الامكان ابدع مما كان** » .

وكان **كلودبرنار** مؤسس الطب التجريبى يعتقد ان ما نعرفه هو الذى يعوقنا وليس ما نجهله . ويقول « **بيرون** » لاكون مبتكرا حقا يجب ان اكثر التفكير واقرا قليلا . ولكن هذا مستحيل اذ يجب ان يقرا الانسان قبل ان يتعلم التفكير » . اما **برنارد شو فيقول :** « القراءة تعطى العقل » .

ليست هذه الآراء قوانين عامة ، لان القراءة من ضروريات التعليم وزيادة الحصيلة العلمية . وهى التى تعرفنا اساليب السابقين . وعلينا التامل فى اعمالهم ونقدها وعدم التمسك بالنظريات والافكار القديمة . يقول « فرنسيس بيكن » « اقرا ، لا لتعارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر » .

وكذلك اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بان معرفة اللغات الاجنبية ضرورية للباحث فى العلوم . وعالم الكيمياء اعتقد ان معرفته الانجليزية والالمانية من اهم الضروريات . ولكن اعرف من العلماء « فيلهم او ستفالد » الالمانى الذى كان يؤمن بضرورة الاحجام عن دراسة اللغة الاجنبية لكنه كان يقصد اللاتينية لا اللغات الحديثة . اما « **هربرت سبنسر** » الفيلسوف الانجليزى المادى فكان يعتقد ان تعلم اللغات يزيد احترامنا للمرجع ويعوق نمو ملكة الحكم المستقل . واؤكد ان البحث فى العصر الحديث يستلزم اتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل .

واعتقد ان من الطرق الحسنة فى البحث التدرج فى مراحل معينة مبتدئا بالقراءة فى المراجع عن ما كتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقين بنظرية فاحصة ناقدة ، ويليها خطوة جمع حقائق ميدانية ـ اذا كانت الدراسة ميدانية ـ او حقائق فى الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبيعية . وبعد ذلك تاتى مرحلة اجراء التجارب الاولية واختبارات الفروض اختبارا عمليا ، وبعدما نحصل على معلومات نعمل على تنظيمها وترتيبها وايجاد علاقات بينها ، ثم نربط هذه العلاقات ببعضها ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والاجابة الذكية بواسطة الفكر والفروض واثبات الفرض بالتجريب المخطط ، ثم اختيار اكثر الفروض رجاحة .

هل نعتمد على الصدفة فى البحث ؟

يتعرض الباحث لعوامل نفسية كثيرة فهو يلاحظ ويفكر ويفرض فروضا معينة ويحاول اثباتها بالتجربة . وهو يتصور ويستخدم خياله المبدع فيصمم ويضع النظريات ، ثم يستنبط منها قوانين عامة . وهو يتاثر بدوافع نفسية كالفضول . وكثيرا ما يعتمد على

معلوماته في علم تخصصه، وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة في بحثه .

ان تاريخ العلوم حافل ببحوث لعبت الصدفة فيها ادوارا هامة . وسأذكر بعض الامثلة على اثر الصدفة في تسيير دفة بحوث هامة .

توقف باستير اياما عن البحث في كوليرا الدواجن لما قام باجازة . ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التي كان يربيها قد اصيبت بالعقم . وحاول انعاشها ولو جزئيا بحساء ، ثم حقنها في دواجن . ولشد ما ادهشه عدم تأثر الدواجن بالحقن بالميكروب . وكاد يهمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة في ذهنه ، نفذها على الفور . لقح الدواجن ذاتها بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وادت هذه المصادفة الى كشف «التحصين بالتلقيح» بجراثيم بعد استضعافها .

وكان «**كريستيان جرام**» الطبيب الدانمركي يستخدم صبغة بنفسجية يعقبها معالجة باليود ، لكي يصبغ نوى خلايا تبطن قنوات دقيقة في الكلية وتلونها باللون البنفسجي ، اما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بني . ووجد جرام ان الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض انواع من البكتريا تحتفظ بلون ازرق قاتم ، بسبب تفاعل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن في حسبان احد ، لأنها كانت تتفاعل مع مادة توجد في انواع معينة من البكتريا دون الاخرى . وكان ذلك بمحض الصدفة ، فاستنبط صبغة للبكتريا وكشف ايضا اختبارا بسيطا عظيم الفائدة يعرفنا انواع البكتريا . وعلى اساس هذا الكشف صنفت البكتريا الى بكتريا جرامية ايجابية Gram Positive واخرى جرامية سلبية Gram Negative

ولعبت الصدفة ادوارا اخرى في كشف **رونتجن** للاشعة السينية ، وكشف **فليمنج** عقار البنسلين المضاد الحيوى .

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل مايلاحظه . وليس الامر مجرد حظ ، كما قد نتوهم ، فالحظ ا والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر في مجرى الاحداث ، بل الحظ كلمة اخترعها الانسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وادراك الانحرافات عن المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدناه من انحراف هي أسرار العقول الناضجة التي تستفيد من الاحداث العارضة . وقد تدهشك ملاحظات بسيطة ادت الى كشوف مشهورة ، والذكي من يظهر مغزى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى ويستخدمه في استخلاص معلومات جديدة . ان الصدفة نادرة الحدوث . ولا يجب أن نعتمد عليها وحدها في البحث ، فهي لاتوافينا بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا ان نعمل بجد ومثابرة ، والا نقصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نمطية وادوات تقليدية ، بل علينا ان نبتكر الطرق الجديدة والاجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

حساسية الملاحظة :

وكثيرا مايحتاج الباحث الى ملاحظة الاحداث الفريدة بما أوتي من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة ويقظة وتنبه لكل مايحيط به من اشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسير الاحداث وادراك اهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة ايضا . لم يكن « **وليم هارفي** » اول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا « **ادوارد جنار** » اول من طعّم بلقاح جدري البشر ليحصن الناس من مرض الجدري . ولم يكن **دارون** اول من وضع فكرة التطور . ولا **كولومبوس** اول أوروبي رجل الى العالم الجديد . ولم يكن **باستير** اول من وضع نظرية الجرثومة للامراض ، بل كلهم مطورون لافكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الاقناع والايمان بصحتها في وقت احجم الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . ودافع هؤلاء عن نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدافعوا عن الافكار الاصيلة فطواها النسيان ، كما طواهم .

وتتمثل الارادة الذهنية في البحث العلمي في الفرض الـذي يضعـه الباحث ، لانه يفتح ابواب التجارب التي تقودنا الى كل جديد من مشاهدات تزيح الستار من المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . **ويجب علينا عدم الافراط بالتعلق باهداف الفرض رغم ما يناقضه من مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشاهدات تفسيرا غير مقنع حتى تتمشى مع الفرض .**

ويجب علينا الا نحكم على النتائج احكاما غير موضوعية ، بل ان نعدل الفرض ليتلاءم مع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولة اثبات الفرض الجديد او المعدل او المتطور . ويجب علينا التزام الحياد في البحث والابتعاد عن أى تعصب فكرى او تمسك بافكار ونظريات القدماء مهما بلغ شأنهم ورسوخهم في العلم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحماية فرضه من النقد والهجوم ، لان ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه في اخطاء في التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قد يعرضه لاخطاء في المشاهدة . ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطىء او الباطل ، والا نفسر المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كى يطابق التفسير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفة . فهذه الافكار عرقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المعادن على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الاربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسير الحياة وحجر الفلاسفة .

التفكير العلمي :

اننا عندما نفكر تفكيرا واعيا ندرك اولا وجود صعوبة او مشكلة فنشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا الى محاولة حلها . وهكذا ينشط العقل ، ويمحص فكرة تنبثق في الذهن لحلها . وقد يقبل العقل هذه الفكرة او يرفضها . ويعاود الكرة بافتراض او اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل الى حل سليم للمشكلة .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما او حرا طليقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعالا او عديم الفعالية . فالمرء الذى يفكر ولا ينقد فكرته عندما تطرا على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع في النقد والحكم ويتعرض للخطأ . وينتاب المفكر اثناء نقد فكرته بعض الشك ، ولذلك يجب ان يمعن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل المفكر الحكم بعدما يفقد الصبر . والقلق النفسى هو الذى ينتابنا ونحن نشعر بالشك في الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا الى التمحيص والاستقصاء . فكلما امعنا الفكر ازداد احتمال وضوح علاقات جديدة تربط نواحي متعددة في موضوعات البحث تتظهر الافكار المبتكرة ، وبخاصة اذا كانت حصيلتنا وخبراتنا وافرة ، وذكرياتنا المتنوعة .

ان التفكير الواعي الموجه هام في البحث العلمي . وهذا ماينادى به الفيلسوف الامريكى « جون ديوى » . ولكن من الفلاسفة امثال هاردنج (صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق) (سنة ١٨٩٨ - ١٩٦١) ان كل المفكرين الخلاقين حالمون . وقالت عن الاستغراق في الاحلام انه يمكن الارادة من تركيز الذهن سلبيا على الموضوع بحيث يتابع تعاقب الافكار عند ظهورها ولا يوقفها الا عندما تكون غير مثمرة ، وتتفرع عادة على سجيتها حتى تتمخض عن بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الالمانى **ماكس بلانك** ان الخطة الخيالية التى يحاول المرء بناء النظام عليها لاتنفك ان تنهار ، وعندئذ يتحتم عليه تجربة غيرها . ويمثل هذا التصور والايمان بالنجاح تصل الى مالاغنى عنه . اما العقل وحده فلا مكان له هنا .

اما «جيمس كلارك مكسويل» صاحب نظرية المجال المغناطيسى فكان من عاداته رسم صور

ذهنية لحل المشاكل . وبنفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزىء البنزين من من صورة ذهنية لثعابين وجد أن احدها يمسك ذيله بفمه . ومنها ابتكر الفكرة أن جزىء البنزين على شكل حلقة . فدارت صورة الثعبان فى مخيلته . ولما استيقظ من استغراقه ومضت فكرة الشكل البنائى لجزىء البنزين وميض البرق . ولا يوجد غير الحدس الذى يساعد الشعور بوجود نظام ماوراء الظواهر . ان انتقال **نيوتن** من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاخيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية . وكذلك وضع **دالتن** النظرية الذرية دون تجريب ، بل بالخيال المبدع . وكان خيال السير **همفردى ديفى** غزيرا مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصاحب الخيال **فاراداى** فى اعماله الفلسفية . فالخيال يحفزنا للمزيد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما تظهره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والافكار فى حد ذاتها لاحياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر أن تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطرا على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم نخضعه لقيود ونظام . فهو دائما فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الا نكبح جماح الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وظلمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميضا خافتا لمعلومات غير واضحة المعالم ، فاذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدينا من خبرات لتزيد وضوحا ، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالا تخيب الآمال .

ويدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يندفعون دوما نحو البحث عن الكيف . ويستمرون فى بحوثهم متنقلين من نصر الى نصر أعلى شأنا ، مفسحين مجال الرؤية فتتفتح اذهانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .

ويحتاج الذهن الى استمرار تنبيهه كى يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين عن المعرفة ، وقد يكون ذلك عن تبادل الرأى . وقد تمتزج الآراء والافكار والمعلومات لتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص ، لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش عيوب العيوب والاخطاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويحررنا من التفكير المقيد . ويعودنا النقد المخلص البناء والثقة والاحترام بين الزملاء .

خطة البحث :

كان أحد الأساتذة يستعد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمساته الاخيرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فاخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب لرسم كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية فى بلورة جامد ما . وكانت هذه البلورات تاخذ فى الانحلال . وكان على الطالب أن يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقى طالب البحث بمفرده مع قياساته . ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البيانى للنتائج التى حصل عليها طالب البحث ، وراعه انه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاها يخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايده أولا ثم تناقصه ، وكان البلورات تعتاد العملية الجزيئية أولا ، ثم تاخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرت اضافة هامة فى فيزياء الجزيئات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لاتثبت على حال بل تتعرض دائما للتعديل والتغيير .
وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها اصالتها ووزنها فى العلم . والعجيب أن تطلب الهيئات الادارية فى بعض

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحرير استمارات نمطية تمهيدا لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل ان يتكهن بها رئيس الوحدة ، مثل عدد الصفحات المزمع طبعها ، او عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، او عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا امر مستحيل حتى لو كان البحث نظريا ، فقد يقوم العالم بعمل نظرى وهو في بيته او بمكتبه ، ولا شان للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمى دراسى ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرا عن الابحاث الرئيسية التى تظهر فعلا ، وتقبل نشر مقالات لاتتجاوز صفحاتها عددا معينا وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين من الجهد البدنى والعقلى . وكم من بحث متوسط القيمة لايساوى قراءته ! وكم من رسالة ضخمة يتصفحها الاستاذ فقط ولا يقراها بعناية لانها لاتستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلمية بالايجاز في كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بايجاز واضح ، حتى لاتضيع المعلومات الجديدة الهامة في زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث في المعاهد وفي الكليات العملية تحت اشراف اساتذة لديهم الحرية العلمية في اختيار الموضوع ، ولو ان الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطالب البحث .

والواقع ان الغرض الرئيسي من بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج،والتدريب على التفكير العلمى . وعلى الاستاذ القيادة والتوجيه والمعاونة والتدريب والمساعدة في وضع خطة عامة للمعهد او الكلية . ويتاثر المخططون بمتطلبات العصر وهم يفكرون في اختيار موضوع بحث للمبتدئين . وتتاثر حرية الاختيار بمؤثرات نفسية ومادية تحت الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التى تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثلا اتساعا هائلا وتعميقا في بحوث الالكترونيات وفي فيزياء الجسيمات الاولية في السنوات الاخيرة . ونجد ان البحوث ليست من اجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل اصبحت تهدف الى غايات محددة. فبحوث كيمياء الجزيئات العملاقة لم تكن لتبلغ الشان العظيم الذى حظيت به ، اذا لم تهدف الى غاية معينة هى تخليق اللدائن ، التى تستخدم كبدائل لمواد تقليدية ، مثل المعادن والالياف الصناعية . فقد زاد الاهتمام باللدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث في بنية الجزيئات العملاقة وعملية التكثيف الجزيئى والبلمرة . وتمكن العلماء من الاجابة على اسئلة واستفسارات هامة عن بنية اللدائن وخواصها والقوانين التى تحكم تخليقها وبناءها.

ويرغب الباحث في اشعار المجتمع باهميته ونفعه لهم ، وان يحس باسهامه في حل مشاكل البلاد واخيرا وليس آخرا المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء في معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

الانتماء للعلم :

يتاثر الباحث بكفرة معينة تشده الى العلم وتحفزه للعمل والبحث الدقيق،ليسهم اسهاما كبيرا في تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علماء الفيزياء النووية والكيمياء النووية مثلا قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريق البحث في علوم اخرى عديدة خلقت علوم البيولوجيا النووية وكشفت اسرار العمليات الحيوية في اجسام الحيوان والنبات .

وقلما يرغب الباحث في العلوم الطبيعية التحول عنها الى العلوم التطبيقية، فهو كالفنان او كالشاعر اذا طالبته بان يسلك مسلكا لايناسب

ميوله رفض بكل اباء . ولمهنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تسري في جسد صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة في الكشف عن المجهول تملأ صاحبها رضاء وانشراحا .

ان حب المشرفين على البحوث العلمية قد يدفعهم الى اللجوء للتمويل عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالاموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون الى جانب البحوث الصناعية ايجاد الفرص المتاحة لاقتناء احسن المعدات والاجهزة والحصول على كل المساعدات التي تمكنهم من السير في بحوثهم بالعلوم الاساسية ايضا .

الاتصالات العلمية :

ولابد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الافكار ، وهذا الاتصال يغذي البحث وينمي التفكير المنظم ويقوي النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لمختلف خلايا الجسم الحي في كيان العلم . اما الباحث المنفرد او الذي يعمل مع افراد قليلي العدد فلاتتسع افكاره ، وعليه الاتصال بآخرين من المهتمين بالعلوم . ويتأثر الباحث الذي يعمل منفردا بخط فكري واحد ، قد يستر مجال رؤيته للاشياء الهامة بستار كثيف من الجمود الفكري فيسلك دروبا تضلله ، وتبعده عن بلوغ اي نتيجة مرجوة ، او قد توصله الى شيء سبق ان كشف وكأنه يدور في بحثه في حلقة مفرغة او يسير في طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمي بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو ان هذا لايغنينا عن الاتصال الشخصي ، فالمراجع لا تنشر الا المحاولات الناجحة في البحوث والكشوف الجديدة . ونستمع عادة الى متحدثين والى ضيوف من مختلف البلدان في حلقات البحث عندما يقرأون تقارير عن النتائج التي قام باستنتاجها الزملاء . ويتوقع المتحدث نقدا ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد او النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة الى الامام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم اكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التعرض لهجوم او تهكم ، او ان يوصف بحثه بعدم الاهمية او التفاهة ، فانه يعتز بقدرته ويملاه الرضا والاعتزاز بالنفس فيستمر في عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

ونحن ، المستمعين ، ندون ملاحظات عن كل جديد مما نسمعه في هذه اللقاءات فتنعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحي الينا باحتمالات جديدة في التطبيق العلمي . والحق اني اشفق على الباحث المبتدىء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث ، ويتابع كل ما نشر اولا باول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضي يتابعون المنشور عن موضوعات بحوثهم بسهولة في المراجع العالمية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويعات من وقتهم كل شهر للقراءة في امهات المجلات العلمية ، وفي تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . ان تلك الايام قد ولت . والآن اتسعت مجالات البحث وتعددت المجلات العلمية . وقد اصبح عدد الباحثين او العلميين الآن يقدر بالملايين في العالم . وسوف يزدادون الى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وتدون جيوش العلماء نتائج اعمالهم في مجلات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين الفا . وليست صناعة نشر العلم متمركزة ، بل تعالج المجلات المختلفة نفس الموضوعات احيانا في مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات في اكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع اكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن ان ينشر مقال بعنوان : « دراسات عن طيف

الاشعة تحت الحمراء لبلورات الهيموجلوبين» . ان مقالا بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد او الفيزياء النظرية او التجريبية او علم البصريات او الاطياف او التصوير البلوري او الكيمياء العضوية او الحيوية او الفيزياء الحيوية . اليس هذا كثيرا ؟ ! وكيف نستطيع متابعة مثل هذا الموضوع في مختلف المجلات وفي مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هو اللجوء الى قراءة الملخصات في مجلات مختصة بذلك ، فتدلنا على الموضوع والمؤلف ومكان النشر وتاريخه . وتصدر هذه المجلات دوريا وبها آلاف العناوين والخلاصات . وعلى الباحث ان يدون ما يتراءى له من اسماء الموضوعات والمؤلفين واماكن النشر ، اذا كانت تهمه ، كي يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتعقد احيانا حلقات للمناقشة العلمية — كل شهر او كل ثلاثة شهور — فيما ينشر من بحوث خلال الفترة . وتساعد هذه المناقشات الباحثين في اعمالهم وتعودهم على تقاليد المناقشة وآدابها . وتوجههم الى طريقة تلخيص اعمال الغير ، وتدربهم على الكتابة العلمية . والمتحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للحرج او الارتباك لانه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وافكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب عن حلقة المناقشة .

وتزداد متابعة البحوث المنشورة صعوبة من عام الى آخر بسبب التقدم السريع في العلوم . ومن الصعب متابعة كل البحوث بمختلف اللغات ، ومن ثم يهتم اغلب الباحثين بنشر بحوثهم الاصلية باللغة الانجليزية لكثرة انتشارها بين رجال العلم في العصر الحديث .

وتقبل المجلات المتخصصة في بلاد غير ناطقة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلع العلماء الى استخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعون ان المستقبل سوف يجعلك تضغط على زر ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني في ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التي يدخرها عن موضوع سؤالك ، ويكتب على آلة كاتبة كل ما تريده من اسماء المقالات والمؤلفين واسماء المجلات وارقام الصفحات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التي يهتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها . وتقوم هيئات علمية بالاعداد والتنسيق لاعمال المؤتمرات ، وتحدد مواعيد واماكن انعقادها . وتشكل لجنة للنظام لتقرر المكان والزمان وترسل الدعوات للمختصين من الافراد والحكومات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للابحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلم . ويفضل ان يكون المؤتمر في مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح ، ويسعد الاعضاء بلقاء زملاء لهم من مختلف دول العالم ويناقشونهم بقاعات الاجتماعات وبلقاءات غير رسمية خارج الردهات او بالحديقة المجاورة ، او اثناء الرحلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالمتاحف ، والمنشآت الكبرى . ويكتفي اغلب الاعضاء بقراءة التقارير العامة ويفضلون الجلوس في الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول اعمال وبحرية كاملة عن موضوعات المؤتمر وعن غيرها من الاتجاهات الفكرية

المعاصرة ، ويتبادلون الآراء والافكار والنقد . وبعد عودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهانى بالاعياد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

الوالدان والتوجيه العلمي

نعرف كلنا علم الوارثة الذى وضع قانونه الاول **جريجورى مندل** . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحدثون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوارثة الجزيئى ، اى انه علم يبحث فى التركيب الجزيئى لحامض النوويك ومشتقاته الكيميائية، ومن بينها الحامض النووى الدياكسى ريبوزى المسمى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية (د ن ا) DNA ، والحامض النووى الريبوزى المسمى بالحروف (ر ن ا) (RNA) فقد تعمقت بحوث كيمياء نواة الخلية الحية ، حتى تناولت سر شفرة الوراثة، وتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكرسكوب الالكترونى وغيره من اجهزة سوف تخترع ، فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرأ بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ، ونستنتج ماسوف يشب عليه ابناؤنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتهذيب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرب حيوانا على السير على رجليه الخلفيتين فقط ، او ان تدرب لاعب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او طبيعة لاعب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يميل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلينا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، وتسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الانكباب على الكتب . ان هذا راى سطحى ، فالقراءة لا تعنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطيق الوحدة ، بل دائم الاختلاط باقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية لنم عن ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة فى طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتأمل ، فاذا احب هذا الطفل التأمل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيح الفرصة له ليستمتع بالالعاب الرياضية والاشتراك فى المباريات واللهو البرىء الى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كان يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابهه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فعالم الجيل القادم يجب أن يكون حر التفكير ، محبا لمعرفة حقائق الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل عن اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انمائها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . واذا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابه صحيحة فانه سيبحث عن الاجابة

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او في كتاب ، فاذا لم يجد الكتاب المناسب ، فانه يبدأ التامل وتصور اجابة يفترضها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص وبطرق من ابتكاره . ان التامل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالما.

وبعد التاكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالما ، يأتي دور التعرف على المجال العلمي الذي يناسبه . وقد لانجد اختبارا يمكن ان يجرى لنعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضيا او فيزيائيا او كيميائيا او مؤرخا ؟ ان اختيار مهنة التخصص تجيء عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفه . فاذا كان الشاب يهتم باقدار الناس والعلاقات الانسانية أو بمركز الانسان في المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخالطين له في المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استعداده لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يزكيه للسير في اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص في العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان في مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدرته متوسطة ، ولكنه شديد الرغبة في دراسة العلوم . والواجب في هذه الحالة عدم مقاومة رغبته بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لتحبيبه العلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متاخرة قليلا حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده في اتجاهه العلمي سوف تؤدى ، ولا ريب ، الى بلوغ الغاية والوصول الى مكانة موموقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذي يبدأ متوسط القدرة ، لم يكرس الجهد ويصمد سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالابداع العلمي اكبر مئات المرات من مساهمته الفعلية في العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى في ولدهم ، فيجب ان يكون محبا للتفكير المنطقي الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لاتظهران بجلاء اثناء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمي للفتى والفتاة مامون العواقب اذا نشأ الفتى في اسرة اكاديمية وكان اصدقاؤه من اوساط تقارب وسطه، واهواؤهم ومشاربهم متشابهة . ان العصر الحديث يتعطش الى الاستزادة من دراسة العلوم ، والى الشباب الراغب في الدراسات العليا، ومستقبل هؤلاء تحدده الجامعات ومراكز البحوث . والمهم في تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثال والعمل ؛ فالمحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأتي المعلم بعد البيت في العلوم الطبيعية ومعرفة رغباتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها في المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومثابرته .

•••

ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الالام والامال والطموح . وقد يعمل باحث في نفس الموضوع الذى تعمل انت فيه ويحصل على نتائج اكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

ان تقوم انت بنشر ابحاثك . وهذا يضيع قيمة عملك وجهدك . وهذا مايعانيه كثيرون ممن يتلكاون فى النشر ، اما لتشككهم فى اعمالهم اكثر مما ينبغي او لعدم قدرتهم على صياغة نتائج اعمالهم فى شكل قابل للنشر . ان هذا الضياع الذى يشعر به من فاتته فرصة النشر يصيب صاحبه بالحسرة ، لكن الصامد هو الذى يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى ينجح فى كشف جديد . وعندئذ لايمكن وصف مايناله من السرور والانشراح والرضاء عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات احدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير الى قدرته العلمية ، وكانه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى ادى الى هذه النتائج المنشورة .

ومع ذلك ، قد لا يشعر به زملاؤه ، بل وقد لايقدرون جهده ، وربما لايلاحظون مانشر اطلاقا ... ولتمر سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالمراجع العلمية . ثم تتكاثر الاشادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقراون اعماله ، ويستفيدون منها ، والانسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث باسهامه فى تقوية جبهة العلم وبالسعادة كل السعادة التى تغمر كل مشاعره .

• • •

مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجنين عن مبدأ استمادة جنين انسان تاريخ تطوره Recapitulation عبر ملايين السنين موضحا التطور من نطفة فعلقة ، الى ان يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي ان احاول فاقارن تطور الفكر منذ ايام الاغريق القدماء الى عصرنا الحديث بتطور المعرفة في طفل معاصر . فانك تجد بين فلاسفة اليونان، ارسطو وديموقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح فى فلسفة ديموقريطس يقارب فى روحه فكرنا المعاصر . لكن لارسطو انموذجا آخر فى الفكر ، كانت الثقة فى المعنى الداخلى للكلمات التى يقوم على اساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء ارسطو لاتتجاوز فى نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال افكار ديموقريطس ، الى حد ما ، عن بناء المادة وكانها عرض جديد لاساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم ارسطو فى مرتبة ، واستخدمت المنطق والبرهان فى العلوم الدينية التى ظلت متمسكة بالمذهب القومى ــ الذى وضعه الايطالى توماس اكويناس ــ ممثلا اساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . واحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه فى مجالات لاتمت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في اوروبا وحول الفكر من الامور الدينية الى دنيوية تتعلق بالانسان وسميت الدراسات الفكرية « بالانسانيات » وانطلقت روح البحث فى القرن الثالث عشر واصطدمت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد المعركة رويدا رويدا محمولا على اجنحة الفكر المستنير الى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الافكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم القليلة التي لم تهمل ابان عهود الظلم والظلام ، وربما كان هذا بسبب حاجة رجال الكنيسة الى علم الفلك فى التقويم وتحديد مواقيت الاعياد ، او لاعتقادهم فى رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطبعت ، وترجم برباخ Purbach كتب بطليموس فى سنة

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندى **كوبرنيكوس** من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه فى المريخ من التقلب الكبير فى حالات اشراقه باوقات مختلفة. ولم يأنس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكى الذى يقول ان الارض مركز الكون ، وان الشمس والكواكب تدور حولها . واحس بعدم توافق قبول **فيثاغوراس وارسترخس** مع مشاهده شخصيا فزعم ان الشمس هى التى فى مركز الكون وليست الارض ، وان الكواكب ومن بينها الارض تدور حول الشمس . اهمل الناس نفس هذا الزعم الذى زعمه فيثاغوراس وارسترخس من قبل ، لانهم كانوا متمسكين بآراء بطليموس حتى جاء كوبرنيكوس وايد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضى ان تكون الارض موطن البشر ومركز الكون وان تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشى المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان اسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، فرفع كتابة الى البابا . وكتب فى مقدمته .. « ارفع بحثى هذا فى موضوع اقدمه الى قداستكم ثم الى اعلام الرياضيين ليحكموا عليه ... »

وتزعزعت بديهيات **اقليدس** فى القرن التاسع عشر على اثر تحديات علماء الرياضة كما اثرت اعمالهم فى الفكر العلمى عندما ابتكروا « هندسة لا اقليدية » مفترضين فروضا جديدة ، فاصبحت العلوم الحديثة تصور العالم بشكل عقلانى . وثار جاليليو لورته (سنة ١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) على الفلسفة القديمة. واسس علم الفيزياء الجديد على اساس التجريب . ولكنه لم يقم يقينا بتجارب عملية ، الا انه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التى نستخدمها فى العصر الحديث ، التى تعتمد على مشاهدة الظواهر وتفسيرها بوصفها اولا . واهمل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة او ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل عن كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست فى تفسير الحركة ، بل فى وصفها . وكان يبدأ بالمشاهدة ليستنتج منها التعميم او البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانوا يبدأون من عموميات مفترضة . وكان يعتبر المشاهدة العملية الاساس لكسب المعرفة ، وقال الا قيام لتعميم الا بتكرار الفحص للاحداث ، واعادة فحص النتائج بتجارب اخرى من انواع جديدة . وان التعميم لن يكتمل الا اذا صلح فى كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فان ذلك يستدعى تعديل الاستنتاج . فالشك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت اعداد التجارب من الكثرة .

وقد اصبح مبدأ عدم التأكد (Uncertainty) حجر الزاوية فى الفلسفة الحديثة ، التى لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل ان منتهى الصدق يخلو من المعنى ، اذ لا توجد ثمة طريقة تجرى المشاهدات فيها باعداد كافية لبلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح فى منتهاه .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم ــ الفلسفة الطبيعية الجديدة ــ على المشاهدة والاستنتاج فهى فى الواقع فلسفة ، وتمنح الجامعات درجة الدكتوراة فى الفلسفة فى مختلف العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك والاحياء . ويتسم هذا العصر بمبدأ التعاون والاتصال بين العلماء. ولم يكن التعاون واضحا فى فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

تلك القرون على التضليل احيانا فى كتاباتهم فى الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم باسرارها .

وظهرت جماعات وجمعيات علمية فى القرن السابع عشر في اوروبا واهمها (الجمعية الملكية) بلندن التى بدات بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التى اقام جاليليو اساسها وكان اعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم فى اول الامر ، حتى ظهر الفيلسوف الانجليزى السير اسحق نيوتن (سنة ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧) وابدع اعمالا اصيلة غيرت مفاهيم الناس وثبتت وعيهم العلمى . فقد اعلن قوانين الحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية . فاخذ الناس بمبدأ الاعتماد على التجربة والمشاهدة والتحليل . ونبذوا اثبات النظريات بالجدال والنقاش المعتمد على الالفاظ ، وتطورت العلوم التجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الاعوام حتى اصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيق الذى فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية فى حساب حركة الكواكب ومواعيد ظهورها واماكنها . وكان فى مقدمة هذه البحوث حسابات « **اربان ليفرييه** » . وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت واتفقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب فى مواعيدها المحسوبة بالدقة الا **يورانوس** الذى لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد ايضا عن قوانين نيوتن . واعتقد ان هذا الحيود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة فى تلك القوانين ، بعد ان اكدتها التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من اسرارها .

وفكر **لفرييه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسير فى فلك ابعد من يورانوس ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب فى الحساب . وربما كانت من الصغر بحيث لا تؤثر فى الكواكب الابعد منه عن يورانوس ، واعتبر انه يقع الى جوار يورانوس ، ويؤخر وصوله في الميعاد . واذا صح هذا الفرض لنشات مشكلة عكسية ، ولامكن حساب بُعْد يورانيوس عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو ينحرف نحو اليسار عند نقط بعينها ، ونحو اليمين من نقط اخرى . وحسب ليفرييه مسار الكوكب المزعوم . وعين وقت ظهوره ، ومكانه فى السماء . وفعلا كشف فى الزمان والمكان المحددين ــ فى سبتمبر سنة ١٨٤٦ وانضم **نبتون** الى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من انصع صفحات التنبؤ العلمى بالمستقبل . واثرت هذه الواقعة فى نفوس العلماء فى جيل ليفرييه . وكان طبيعى اجراء بعض التعديل فى قوانين الحركة التى وضعها نيوتن . واعتقدوا بوجود ظواهر خفية فى مجالات اخرى من الفيزياء كالبصريات تحتاج من يميط عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين ان علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن اى جديد .

ووضع الفيلسوف الفرنسى ديكارت مفهوم « الاثير » الذى يقول ان الطبيعة لا تحتوى اى فراغ بل يتغلغل الاثير في كل شيء وينتشر بكل الارجاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود انواع معينة من الاثير . بمختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربى وآخر ضوئي . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان نيوتن وديكارت وجاء معهم **روبرت بويل** (سنة ١٦٢٧ ــ ١٦٩١) المعروف بقانونه المشهور الذى يعالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . وعالج

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه « **الكيميائي المتشكك** » The Sceptical Chymist اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التى كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتى حكمت الفكر فى اوروبا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ثيوفراتوس التى انشأها هذا العالم القديم فى القرن السادس عشر وهو المسمى باسم الشهرة « **براسلسوس** » . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر فى القرن الثامن عشر القس الانجليزى **يوسف بريستلى** (سنة ١٧٣٣ – ١٨٠٤) كما ظهر العالم الفرنسى لفوازييه (سنة ١٧٤٣ – ١٧٩٤) قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط احداث جسام . بافع بريستلى عن الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتاب الذين عارضوه فى انجلترا فاقتحم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها. وهو العالم العبقرى مكتشف الاكسيجين واكاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة فى كيمياء الغازات ، وكاشف ماء الصودا ومحضر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما **لفوازييه** فقد عاش فى باريس بين الجماهير الهائجة . وكان يجرى تجارب بالوزن والقياس والمشاهدة والاستنتاج فكشف **نظرية الاحتراق** وهدم **نظرية الفلوجستون** . فر بريستلى من انجلترا ، اما لفوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقعوا به ، وحوكم محاكمة سريعة واطاحت المقصلة برأسه ، وكان اعدامه من افظع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لفوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ فى العلم روحا جديدة . وما كاد ينتهى القرن الثامن عشر حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير **همفرى ديفى** (سنة ١٧٧٨) الذى صار استاذ الكيمياء **بالمعهد الملكى بلندن** فى مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفى فى اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة اسرته . وتعلم الصيدلة والجراحة لدى صيدلانى عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرأ كتاب «اصول الكيمياء» الذى وضعه لفوازييه. وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والضوء والاشتعال والاكسجين والخواص المخدرة لاكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء واثبت ان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية، فهو كاشف البوتاسيوم بالتحليل الكهربى ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترنشيوم والباريوم والكالسيوم والمغنسيوم . واثبت ان الكلور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الاكسيجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فاراداى فى اسالة الغازات ، وكان **فاراداى** (سنة ١٧٩١ – ١٨٦٧) ابنا لحداد متنقل وعاش فى فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التى حلت بانجلترا . ولم يتعلم بالمدرسة بل كان يقضى اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعى الكتب ، وتوصيل الصحف للمشتركين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوروبا بعدما التحق بالمعهد البريطانى معاونا وامينا للسير همفرى ديفى . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفى فى رحلة الى اوروبا (سنة ١٨١٣ – ١٨١٥) وعرف علماء كثيرين واطلع على ابحاثهم فى الكهرباء مثل

الفرنسى **امبير** والانجليزى **ولستون** فدرس الكهرباء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » واعلن نظريته عن المجال الكهرومغناطيسى معتمدا على اساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير فى اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلا خاصا ذا حركة دوامية ، او مائعا ساكنا تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضرورى افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التى قام بها كلاوزيوس Clausius **وبولتزمان** Boltzman وجيبس Gibbs موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجمعات كبيرة من الجزئيات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن فى ذلك الوقت ثمة امل فى دراسة العالم الدقيق للاجسام التى لا يراها الميكرسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات فى راى القدماء من صميم الفلسفة . او من ابحاث الميتافيزياء ، وانها خارجة عن مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التى نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة عن قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التى تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضى الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحا اياه بعدم التخصص فى الفيزياء ، لان كل شىء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة عن ما سمى « كمات الاشعاع » Radiation Quanta التى اصبحت اساس الفيزياء الحديثة ، وحتى **اللورد كلفن الفيزيائى** الانجليزى الموهوب شبه علم الفيزياء بعمارة كاملة بديعة . وقال **ان سماء الفيزياء لم يبق بها سوى غيوم قليلة ستنقشع سريعا وتترك السماء صافية فى القرن العشرين .**

وكانت غيوم سماء الفيزياء فى زعمهم ثبات سرعة الضوء وهى حقيقة كشفها بالتجربة مايكلسون Michelson ثم ظهرت **النظرية النسبية** من بين حجب الغيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الاشعاع وطول موجته ، وهى نظرية تتنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر فى اتجاهه صاعدا ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الاشعاع الى ان تصل فى النهاية الى ما سمى « **الكارثة فوق البنفسجية** » . ولكن الرسم البيانى العملى دل على خط منحنى ذى سنام ، فبعد بلوغ طاقة الاشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تاخذ فى التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهى العلم الذى ينسب الى واضعه العالم الالمانى **ماكس بلانك** الذى نصح بالا يتخصص فى الفيزياء .

ان هذا درس من تاريخ العلوم يحذرنا من التعرض الى الثقة الكاملة فى العلم المعروف عندما يدعى انه بلغ الكمال ومنتهى الصحة . ويجدر بنا ان نراعى ما ظهر فى القرن الحالى .

الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية التى شيدها العلم فى القرن التاسع عشر طويلا ، بل تداعت عندما اعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقـة بين بديهيتين محطما المفاهيم التى كانتسالدة، واضعا اساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضى والتعمق والدقة فى كل مـا افترضه . واجمع اهل الفكر المستنير على ان اينشتاين عبقرى من اعلى مرتبة وانه صاحب خيال وثاب ، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة راسا على عقب . فهو القائل فى احدى البديهيتين « اذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنتظمة كل بالنسبة للآخر فانهما فى حالتين تامتى التطابق » . وهذا يعنى عدم وجود طريقة تعين اى منهما يتحرك وايهما ساكن . ولا معنى لان نسال « ايهما فى حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشىء يسمى حركة مطلقة .

وقد عرف مثل هذا المبدا منذ ايام جاليليو فى علم الحركة وهو ينص على امكان التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة ، وهذا ما يتفق مع العقل . فاذا جلست فى سفينة او فى طائرة ، واغمضت عينيك يكـاد يستحيل عليك ان تميز بين السكون والحركة المنتظمة .

اما البديهية الثانية فهى حالة اخرى . يعرف العلماء ان سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهدين مهما اختلفت سرعاتهم ، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية غريبة تحتاج الى المزيد من البحث . ولكن اينشتاين رفع هذه الحقيقة العجيبة الى مرتبة البديهية . وفعلا كان **نيكلسون ومورلى** قد كشفا هـذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧ . وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتى انتشار الضوء من الشرق الى الغرب ، ومن الشـمال الى الجنوب . وهذا يشبه المقارنة بين نتائج قياسات في مختبرين احدهما يتحرك مع كوكب الارض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية التى تسبب تعاقب الليل والنهار . وكشفت التجربة ان سرعة الضوء فى الحالتين واحدة . وصعب هذه النتيجة مسلك الاثير وهو عديم اللون ـ فيما يفترضون ـ والذى قيل انه ينشر الضوء . وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكلسـون باستخدام فيزياء القرن الماضى دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفسرة الى مرتبة مبدا او مفهوم اساسى ، يتقبله الناس كحقيقة واقعة . وبجمع البديهيتين معا يتكون مبدا النسبية .

والجميل ان ما يصدق على سرعة الضـوء يصـدق ايضـا على مظاهـر مختلفـة الكهرومغناطيسية . وقد اعلن اينشتاين بناء على هـذا التطور الـذى جدده فى الفيزياء **الا وجود لتجربة فيزيائية تستطيع ان تميز مجموعة عن اى مجموعة اخرى من المجموعات اللانهائية العدد التى تتحرك بانتظام وعلى** استقامة واحـدة . **فكل هـذه المجموعات** متساوية تماما .

وهنا قد نتسـاءل « الى ماذا تقودنا هاتان البديهيتان ؟ » ربما يدرس طـلاب الجامعات بعد الف سنة هذه النتائج على اسس تجريبية . بعد ان صعب على معاصرى اينشتاين قبول فكـرة كون الزمن نسـبى وليس مطلقا ، بل يتوقف على حركة الشاهد . والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة اذا ما شـوهد من نقط مختلفة . وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعى ويناقض المعقول . فقد وجـد ان الزمن كمية نسـبية . وهذا يعنى ان الحدث الواحد ازمان مختلفة اذا شوهد من نقط مختلفة . وواضح ان هذه النتيجة للنظرية النسـبية تخطىء العقل . وقد يكون من الحكمة للمزيد من ايضاح النسبية ان نسال اى مدينة اقرب من الأخرى ، باريس ام الاسـكندرية ؟ فبالنسـبة لقاطن

القاهرة الاسكندرية هى الاقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش فى لندن فباريس هى الاقرب . ولكن بالنسبة لساكن المريخ ــ ان وجد به سكان ــ فالمدينتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل ايضا « وما الزمن ؟ » اننا جميعا نعرف الزمن .. انه ما نقيسه بالساعات . هذا افضل ما نجيب به على السؤال . فالمعتاد اننا نحمل ساعاتنا معنا ونقيس بها زمننا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، ان الزمن واحد اليس كذلك ؟ وارد يقولى لا ، انه مختلف ، فالمسافران لكل منهما ساعته واذا اراد احدهما ان يضبط الوقت عنده ، فلا بد من ان يرسل كل منهما اشارة الى الآخر . يشاهد احدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر ــ المتحرك ــ اشارات تقول ان ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا ان نستنتج ان الفترة بين الحدثين بقياس المشاهد الاول هى الاطول . وانك عندئذ تتحدث عن الساعات بينما يتحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد اجبنا بانه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك ان فى الامر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد المعقول امر عسير ، ولكن الاعسر منه ان نجادل مع شخص يضرب بالتفكير المنطقى عرض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى انها مقبولة » . والأمر لا يحتاج الى الاشارة الى ان آلاف العلماء هللوا للنظرية النسبية وفرحوا بظهورها ، لأنها طورت الفكر العلمى ، وجعلتهم يمعنون الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا او ضعفا او عوجا . وقد اثرت هذه النظرية تاثيرا ثوريا فى العلم الحديث ، وتعمقت فى المفاهيم التى تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك فى مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

واثبتت النسبية سهولة تاكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الالكترونات . واصبحت معادلة اينشتاين هامة جدا فى معالجة التحولات النووية وتفاعلاتها . ومن احدث الاختبارات التى حققت مباشرة زيادة الزمن فى حالة جسيم يتحرك فى ظروف المعمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد اصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت اساسا للعمل اليومي فى البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مغزى اعمق وابعد بكثير من كونها قانونا جديداً من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجى فى سلوكية الباحثين فى العلوم الطبيعية ، بان جعلتهم فى غاية الوعى للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وعوا ما يستخدمونه من الالفاظ ، وعرفوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . واحسوا بالحاجة الى ازالة جميع آثار الجو الارسطوى من العلوم . وعلمتنا النسبية اهمية السؤال عن كيفية قياس الاشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام العاملات المرتبطة بها . فاذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، او كانت طريقة حسابها معروفة ، فان هذا يكفى ، لان الطبيعة شيء موضوعى يوجد فى الكون ، ولا يتوقف على البحاث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة انهم افترضوا كميات طبيعية وادخلوها فى الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وادت النظرية النسبية الى تعميق فهم دور النظرية فى العلوم الطبيعية . ويقول العلماء ان النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرة معينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول ان وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد اعطتنا النظرية النسبية انموذجا ميكانيكيا لتحتل المكان الذى تربعت

عليه نظرية « الأثير » وقد دفنته على الرغم من عظمته القديمة وقيمته التى مكنت علماء القرن الماضي من التنبؤ بكثير من الظواهر قبل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحدها التى اقامت صرح الفكر العلمى المعاصر ، فقد عاصرتها كشوف اخرى فى عالم الذرة وقامت بادوار كبيرة فى بناء العلم الحديث والتطور الحضارى الذى نعيشه اليوم .

• • •

واخيرا . . انتا نعيش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد اخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا فى كل ميادين الانشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة فى الحياة اليومية والاعمال الصناعية تستخدم الالكترونيات وعلوم الفضاء . وقد تطورت النظريات الرياضية بعد ظهور نظرية الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها فى المواصلات اللاسلكية والحاسبات اللازارية والتخليق الكيميائى والتصوير وتحديد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت فى فحص نظرية النسبية وفى قياس حركة الغازات ودراسات الجو والسرعات . وتتقدم علوم الليزر الآن بخطى سريعة للتعرف على الحضارات فى الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح فى الامكان السفر الى بعض الكواكب فى رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .

* * *

المراجـــع

(١) فؤاد صروف : « أساطين العلم الحديث » المطبعة المصرية . دار المقتطف . القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) احمد زكي : « بوائق وانابيق » قصة الكيمياء ترجمة عربية « للمؤلف برنارد جاف » مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

(٣) زكريا فهمي : « فن البحث العلمي » ترجمة عربية للمؤلف و . ا ب بفردج ، الالف كتاب ، باشراف وزارة التعليم العالي . القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٤) ادايانشيف : « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم . موسكو .

(٥) A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971.

(٦) Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; Pocket Books, Inc. New York, 1964.

(٧) Ritchie Calder ; Science in our Lives ; New American Library, 1962.

(٨) Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; Penguin Books. London, 1960.

(٩) A. P. Rossiter ; The Growth of Science ; Penguin Books. London.

(١٠) Elaine Knorre ; A Visit to Transurania, MIR Publishers, Moscow, 1974.

* * *

جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

د . حلمي مرزوق

كثر الكاتبون في شوقي حيا وميتا ، وكأنما العبقرية لاحساب لها في موازينهم ، فتعاقبوا على الخفض به الى مراتب العامة في التزلف وطلب الجاه .

ودأب العبقرية ان تزهد بأصحابها فيما يتماجد به آحاد الناس .

ولا نريد بذلك ان نعلو بالرجل على خصال البشر ، وانما نريد القول انها خصال متجاوزة — ولا بد — في المواهب الشاخصة بأصحابها الى مراتب الخلود، وليس وراء الخلود صارف يصرف العظماء عن كثير من مواضعات العرف وقيم الحياة .

وشوقي من اولئك النفر الذين عاشوا للشعر ، لا يشغلهم عنه شاغل ولا يعدلون به مجدا ، ولا بجاهه جاها مهما كبر في أعين الناس .

قلمي وان جهل الغبي مكانه
ابقى على التاريخ من ماضيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ، يكابرها بمجده الأدبي، ويعلو بشعره فوق جميع ما انفق السلاطين في الفتح ، ويلمز اولئك النقاد وقد زين لهم الغباء هذا الطعن عليه بالتملق والكذب ، والعباقرة لا يكذبون الناس، لانهم ازهد الناس فيما عند الناس ، **يقول للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :**

زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى
جوائز عند الله مبتغيات

ومن كان مثلى (أحمد) الوقت لم تجز
عليه ، ولو من مثلك الصدقات

وهذا التشامخ او التأبى نقرؤه فى المدح الذى يؤاخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا اظن احدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ، فما بالك بخصال العنجهية المأثورة فى الاتراك او الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول ان هوى الرجل او عثمانيته ، لا يدخل فى المعايير الادبية التى عليها مدار المدح والذم ، وانصار الفن للفن اول من ينكرون هذا الطعن برمته ، لانهم شاخصون ابدا الى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيهم ما وراء ذلك الموضوع المستحب او التملق المذموم .

الا اننا نلتقى وهؤلاء النقاد على تشخيص هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الامة وقضاياها فى السياسة وشئون الاجتماع ، فكل ذلك ـ عندنا ـ من صميم الشاعر ، ومن عناصر الرجل التى تجتمع عليها اطراف شخصه المفترى عليه .

لقد شاعت دعاواهم فى تملق العثمانيين واستغرقت الاسماع حتى لا مكان فيها لخير يقال، والعثمانيون عندهم ـ بعد ـ شر اصاب التاريخ ، وسوء ازرى بالخلافة ، فاجتمعت على الرجل سوأتان : سوأة التزلف ، وسوء المتزلف اليه ، وكان شوقى خسر الاولى والآخرة ، فلا هو امسك عن المدح فأرضى الناس ، ولا هو انصفته السلاطين كما انصف سيف الدولة المتنبى فى اسماع الناس والتاريخ .

وقد اكد ادعاء السوء على العثمانيين هذا الظلم المتصل فى حياة المسلمين ، وقد جاءهم **نابليون** ـ واوروبا من ورائه ـ بحضارة تقوم منها الديموقراطية او الحرية السياسية مقام الاساس من البناء .

وقد رد **رفاعه الطهطاوى** للناس هذه النظم الديموقراطية يومذاك الى امر واحد هو العدل والانصاف ، « فما يسمونه الحرية ـ كما يقول ـ هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الاحكام والقوانين » . (١)

والناس يومذاك احاط بهم الظلم والاستبداد ، فكانوا آذانا مصغية للذم ، ورقابا مشرئبة لكل انتقاد .

الا ان هذا الظلم او الاستبداد كان من سيئة العصر وعيبا من عيوب عامة الامة الاسلامية ، وليس من الانصاف ان تعلق أوزار العصر برمته فى اعناق الترك او العثمانيين دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الامر دون هؤلاء واولئك ، فقبيح ان نشركهم الفعل ونفردهم بالعجب وكلنا فى الهم شرق » .

على ان شوقى لم يغفل ـ قط ـ هذا الظلم ولا اغضى عنه ، الا ان الفارق عنده هو الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمتها ، وهو الفارق بين الثورة بالتخلف ، والثورة بعامة الحضارة الاسلامية ونظمها فى الحياة .

والنقاد لا يذكرونه بهذا الوجه الثائر ، ولكن يأخذونه ـ دائما ـ بالمدح الذى قال ، وشوقى فى مدحه وذمه كان يمدح بحق ويذم بحق ، ديدن الفضلاء واصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولمهم ..

---

(١) ـ تخليص الابريز لرفاعه الطهطاوى .

مقامك فوق ما زعموا ولكن

رأيت الحق فوقك والمقام

والناس منذ رقاعه على ان «الديموقراطية» انفى للظلم ، وعاصم من الطغيان ، فكانوا حربا على الاستبداد او الديكتاتورية وحكم الفرد ، وكلهم شاخص باللوم والتثريب ، الى السلاطين العثمانيين والخديويين المصريين ، وكان شوقي على راس القوم ، لا تعرض الفرصة الا حمل وسدد :

شر الحكومة ان تساس بواحد ... (٢)

قل للخلافة قول باك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك

يرميك بالامم الزمان وتارة

بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان او مداهن لخديوي ، وشوقي ليس نكيرة — بعيد — فيمضي قوله غير محسوس به ، أو محسوب عليه ، والمتربصون بالرجل كثر ، في عصر يأخذ بالظنة ، ولا يغفر التعريض ، ولا نريد أن نستطرد فنروي للناس القتل والمؤامرات تحاك على ذلك العهد في تركيا ويصلاها الناقمون في اطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، يدس البيت في تضاعيف الشعر ، فتخطئه العيون والاسماع — لا يقال ذلك ، لان الرجل من مذهب الشعر العربي ، لا يفرغ القول في باب بخصوصه على النمط المعهود اليوم ، فالذم ذم والمدح مدح والرثاء رثاء ، وانما هو المداولة بين الاغراض جميعا ، ثم لا تعدم فيها رأى الشاعر ومواقفه من الحياة والأحياء .

ثم ان هذه الابيات من الابيات الاعيان ، على سنة قوله المأثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيت القصيد افعل في نفوس الناس من القصائد الطوال ، لانه اعلق بالافئدة واجرى على الالسنة ، فكانت العرب تكاثر بالابيات الشوارد ، والامثال السوائر لهذه المآرب والخصال .

وتسقط (ادرنة) في اليونان ، غلب عليها البلغار في مطلع القرن (١٩١٢ م) ، فيجزع شوقي اشد الجزع ، لانه راى فيها نكبة الاندلس ، وجرحا كجرحها :

جرحان تمضي الأمتان عليهما

هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس اول الممالك الاسلامية يسقط عنها لواء الاسلام في غرب اوروبا ، وادرنة آخر الممالك على عهد شوقي تسقط في شرقها ، وليس وراء ذلك الم يؤلم وجدان المسلم ، ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الغرب البقية فانقضت

فعلى بني عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبغيرها الهلال الاسلامي الذي احاط باوروبا من طرفيها في العصور الوسطى ، الى هلال اوروبي — في العصر الحديث — يحيط بطرق دار الخلافة وممالك المسلمين ، قول توينبي ، وهذا اشد ما أحنق شوقي على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يألو الممالك منذرا

فاذا غفلن فما عليه ملام

---

(٢) — جـ ١ ص ١٦٩ من الشوقيات

(٣) — جـ ١ ص ١٦٨ من الشوقيات

ثم لا يلبث ان يعنف بهم وبآرائهم وعامة سياستهم ،ويثور على اتكالهم وتخاذلهم ،وهو من وراء ذلك ساخط اشد السخط بما تلبسوا به من الغرور والاستنامة الى المجد القديم :

زعموك همّا للخلافة ناصبا
وهل الممالك راحة ومنام

لو آثروا الاصلاح كنت لعرشهم
ركنا على هام النجوم يقام

صور العمى شتى ، واقبحها اذا
نظرت بغير عيونهن الهام

فيم التخاذل بينكم وورائكم
أمم تضاع حقوقها وتضام

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا
فالمجد كسب والزمان عصام

ان الغرور اذا تملك امة
كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

لا يعدلن الملك في شهواتكم
عرض من الدنيا بدا وحطام

ومناصب في غير موضعها كما
حلت محل القدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم أو هجاء يقال .

يقول الدكتور هيكل : « وقد بلغ من حب شوقي للترك ان كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تشوبها نقيصة » .

ولا اظن هذه الابيات المقدمة تشايع الدكتور فيما ذهب اليه ، واغلب الظن انها تنقض دعواه التي فتح بها أبواب التنقص من الرجل، وسوغ بها تهمة التعصب الاعمى للترك في نفوس عامة النقاد .

الحرية الليبرالية او الديموقراطية الغربية

وقد آمن الناس يومذاك ان الدستور والبرلمان عاصمان ـ ولا بد ـ من هذه المظالم والاستبداد ، فاغرقوا في طلبهما لانهم آمنوا كما آمنت الثورة الفرنسية او أوروبا البرجوازية بأن الاصلاح السياسي هو راس الاصلاح ، فهم شاخصون ـ ابدا ـ الى الحكم الدستورى أو البرلماني ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من انماط الشورى في حضارة الاسلام ، **وكان الكواكبي** فيما بين رفاعة وجيل شوقي مثلا للفلاة الثائرين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« ان سبب الفتور (في الامة الاسلامية) هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت **نيابية ديموقراطية** تماما فصارت بعدالراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية ـ **ملكية مقيدة** بقواعد الشرع الاساسية **ثم صارت اشبه بالمطلقة** » .

والناس منذ رفاعة مأخوذون بالدستور الفرنسي وما شرعه من المساواة في حقوق السياسة واعباء الاقتصاد ، وقد ترجم رفاعة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الامرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قوله في المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام ... حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكم والمحكوم او الشريف والوضيع لم تكن معهودة على عهد رفاعة ولا على عهد شوقي ، وكلاهما يعلم كما نعلم ان المساواة قائمة في الحضارة الاسلامية **واصل من اصول الاسلام** ، فكانت

اوروبا بذلك كالمنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعة :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لهــا تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بانه كالعظيم في اجــراء الاحكام » (٤) .

ويعقب على ذلك بان هذه القضية كـادت تكون من « **جوامع الكلم** » عند الفرنســيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة في الاضطلاع بالضرائب او الخزينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعة العجب فيقول :

« ويمكن ان يقال ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاســلام كما هي في تلك البــلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتي في باريس لم اســمع احدا يشــكو من الكوس والفرد والجبايات أبدا » (٥) .

وداء الشرق ــ لا شك ــ كامن في اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فآمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » او الحجة المكتوبة يلتقي فيها الحاكم والمحكوم على شرع سواء .

وتأتي المادة الخامسة عشرة بمبدأ الشورى ومجلس النواب او « ديوان رسل العمالات » كما يترجمه رفاعة ، وهذا الديوان او المجلس هــم وكلاء الرعية والمحامون عنها ، حتى لا يظلمها ملك او سلطان ، يقول رفاعة :

« وحينما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها ــ كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما تقول اليوم ، لا مجال فيه لظالم أو مستبد ، لان النــاس هــم الذين تداولوا بنوابهم أمور انفســـهم ، وليس وراء ذلك مانع للظلم والاســتبداد ، وعلى كل حال **فالرعية مانعة للظلم عن نفسها بنفسها** » (٦) .

امران ــ اذن ــ دأب النــاس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان ، او هما امر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية ، وكلاهما في قصاراه قيد يمسك السلطة ان تجور على النــاس وان تجحف حقوقهــم المشروعة ، او ان شئت يمســك الحاكم ان يؤذي النــاس في ارزاقهم وعامة حياتهم ، والطغيان داء العصر يومذاك ، تاط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » او التحررية ، فالعدل والانصاف اقصى غاياتها في اذهان الناس يومذاك ، على غير الشائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » في مصر ، ذلك بأن الرومانتيكيين اخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصيــة حربا على مواضعات الناس في المشاعر او الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حربا على العرف والتصرف وقواعد السلوك ... اما السابقون فقد شغلتهم الحرية السيــاسيــة فغلبت على مــا عداها من النظم « الليبرالية » لملابسات الظلم وظروف الطغيان ، فتنادوا بالدستور واشــتد الاتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف ، فأمر به السلطان عبد الحميد ،

---

(٤) ــ التخليص ص ١٤٨ .

(٥) ــ التخليص ص ١٤٩ .

(٦) المرجع السابق ص ١٥١ .

وكان قد امسكه بعد ان وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها

اما ترى الملك في عرس وفي فرح
بدولة الراى والشورى واهليها (٧)

ولا يقال شوقي تبع ، هلّل وكبّر لدستور صدر في تركيا ، لاننا نقول : هو اول داع في هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر في مصر يومئذ :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياك من يبعث الموتى ويحييها

ما بين آمالك اللائى ظفرت بها
وبين (مصر) معان انت تدريها (٨)

والآمال هنا هي الدستور .

على ان الامر ليس امر سبق في القول او تأخير به ، وانما المعول على منطق الرجل في القضية ، وايمانه بالفكرة حلاً لازما لقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو في فقه الحضارة الغربية وحضارة الاسلام والمسلمين ، يقول :

وانما هي شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليها ويغليها (٩)

فقصارى الديموقراطية او النظم البرلمانية عند شوقي انها نمط من انماط الشورى في الحضارة الاسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشار عليهم ، ولم تعرف اية حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » او « اولي الأمر » او « اهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التي تدل على المشورة وطلب الراى من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم
وعلى حياة الراى واستقلاله (١٠)

اني ارى الشورى التي اعتصموا بها
هي حبل ربك او زمام نبيه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذلك ، لانا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضاري منذ رفاعة ، فالمسلمون لم يقبلوا ـ قط ـ من هذه الحضارة الغربية الا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاعة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدباء مطالبين باحياء الأصول الاسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخرط القتاد دون تسويغ هذه وتلك في نفوس العامة ، والناس في عصر قريب العهد ـ يومذاك ـ بثورة الانكشارية على السلطان سليم لانه فرض الملابس الفرنجية في الجيش ، فما بالك بما هو اعسر منالا في امور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقي بهذا العبء ، فكان يستعين على اهواء الحكام وجهل السلاطين باصول الاسلام ، ويستهويهم بالخلفاء الراشدين ،

(٧) ـ الشوقيات جـ ١ ص ٢٨٦ .
(٨) ـ المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٩) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨٧ .
(١٠) المرجع السابق ص ١٦٨
(١١) المرجع السابق ص ٢٨٨

فيداول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير فيهم نخوة التشبه وحماسة الاقتداء :

فكانك الفاروق في كرسيه (١٢)

خلافة الله جر الذيل حاضرها (١٣)

جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون ـ بعد ـ انه المادح المتزلف ، ويضربون عرض الحائط بما وراء المدح من هذه الاعماق .

لقد انفق شوقي من عبقريته ومن بالغ ذكائه في قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر او كاتب او اديب ، وحسبك اختلاف الاجناس والاديان في الدولة العثمانية حائلا يحول دون المساواة التي هي صلب الدساتير الليبرالية .

ولا اظن رجلا غير شوقي يستطيع ان ينفذ الى لب القضية ـ وتهمة الكفر مشرعة يومئذ ـ فيسوغها في النفوس على هذا النحو الذي لا يقدر عليه الا العارفون بحقوق اهل الكتاب « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، والا الواقفون على **اسرار البر او مبدا الاحسان في الاسلام** « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » ، وعلى هذا الاساس يقول شوقي :

الدين لله من شاء الاله هدى
لكل نفس هوى في الدين داعيها

ما كان مختلف الاديان داعية
الى اختلاف البرايا او تعاديها

الكتب والرسل والاديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها

محبة الله اصل في مراشدها
وخشية الله اس في مبانيها

وكل خير يلقى في اوامرها
وكل شر يوقى في نواهيها

تسامح النفس معنى من مروءتها
بل المروءة في اسمى معانيها

تخلق الصفح تسعد في الحياة به
فالنفس يسعدها خلق ويشقيها

ثم يخص نفسه بالحديث ، والحديث هنا داخل في صلب القضية ، لان شوقي يطلعك على دخيلة نفسه ، او يفكر لك بصوت مسموع كما يقولون ، يريد للناس جميعا ان يكونوا على حذوه ومثاله في رياضة النفس على الاحسان :

الله يعلم ما نفسي بجاهلة
من اهل خلتها ممن يعاديها

لئن غدوت الى **الاحسان** اصرفها
فان ذلك اجرى من معاليها

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرما منها لشانيها (١٥)

ومؤدى هذا القول ان الاسلام لا يضيق باختلاف الاديان « ولوشاء الله لجعل الناس امة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون في اهل

---

(١٢) الرجع السابق ص ١٦٩
(١٣) الرجع السابق ص ١٧٠
(١٤) ص ١٦٩
(١٥) جـ ١ ص ٢٨٩/٢٩٠ من الشوقيات

الذمة ، فان التسامح او مبدأ الاحسان فيه ــ عند شوقى ــ سمة مشروعة لأخوة الوطن ان انعدمت اخوة الدين .

فانتصار شوقى ــ اذن ــ للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وانما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومظان الخلاف ، البصير بمواطن العظمة فى الاسلام ، وهذا المدخل الى القضية من ابواب « الاحسان » لا اقول جديدا فى ابواب الاجتهاد ، وانما هو احياء بصير للفكر الاسلامى وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوى فلم يقف بالاخوة الاسلامية موقف التناقض من الاخوة الوطنية ، فكل ذلك يجمعه ويحض عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا عباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان اخوة العبودية التى هى **التساوى فى الانسانية** عامة فى حقوق اهل المملكة بعضهم على بعض ، التى هى **حقوق العباد** » ، يريد بذلك ان العباد على اختلاف عقائدهم اخوان فى العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان فى الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم عباد الله وخلقه ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هى **الحقوق الطبيعية** التى طالما اشار اليها رفاعة فى تخليص الابريز والتى كانت تسميها الثورة الفرنسية على عهده باسم **« حقوق الانسان والمواطن »**

« وهناك **حقوق العبودية الخاصة** التى هى **الاخوة الاسلامية**» ــ كما يقول ــ وهى اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابتدائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان ، فهذه هى التى اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم ، يعنى اخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد ، وهى اعظم من **الاخوة الحقيقية** ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : **« ولا مانع ان يعمم فى مكارم الاخلاق »** ، يريد ان تعم هذه الاخوة فى اهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار ، واهل المحلة الواحدة كلهم جيران او من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقى **مكارم الاخلاق** عند رفاعة مع **مبدأ الاحسان عند** شوقى وكلاهما اصل واحد فى الاسلام ولا فرق ، ونقول هنا ما قلناه فى كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة ان تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتنان » .

وحسب الاديان الاخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبدت الاهواء ، واستحكم التعصب فى نفوس المسلمين .

وحسب البشرية ان تقوم فيها اخوة فى شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع اخوة الدين ، ووحدة المذاهب والمعتقدات .

مبدأ الشورى او روح الديموقراطية

على ان شوقى لم ينخدع ــ قط ــ بالديموقراطية « الليبرالية » ، التى اغرق فيها الناس ما اغرقوا ، وتنادوا ما تنادوا باشكالها الدستورية والبرلمانية ، وهو شاخص ــ ابدا ــ الى جوهر الحرية او روح الشورى ولبابها ، وها نحن اولاء نقرأ الكتاب ــ اليوم ــ من ام الدساتير والبرلمانات ، فيكشفون لنا عن مثالب الديموقراطية الغربية ، لانها اخلفت الظن فى نفى التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا فى هذا الصدد هارولد لاسكى فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٦)

---

(١٦) Laski, Grammers of Politics

وها نحن اولاء نرى الدساتير تشرع ، والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ ـ بعد ـ بتلابيب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيعنو له التراب وتذل له الجماعة :

واذا سبا الفرد المسلط مجلسا
ألفيت احرار الرجال عبيدا (١٧)

ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الامة وتستذل الشعوب :

وقام مقام الفرد في كل امة
على الحكم جمٌ يستبدُ غفير (١٨)

ولا اظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه النظم ، او ما يسميه علماء السياسة باسم « الدكتاتورية البرلمانية » .

على ان الاستبداد لا يذهب المستبد فيه ـ عند شوقي ـ بجميع اللوم والتثريب ، وانما السبيل على الذين يستذلون له ، وينزلون على ظلمه وطغيانه ، فالشعوب تخلق جلاديها كما يقال اليوم ، واهل الحل والعقد ـ عند شوقي ـ هم داء الامة بالتملق ، وهم سبة الحياة بالاستخذاء :

كم سبحوا لله في الروا
ح ، والهولك لدى البكور

ورايتهم لك سجدا
كسجود موسى في الحضور

خفقوا الرؤوس وولوا
بالذل اقواس الظهور (١٩)

والذين تستهويهم الثورة وخصال العنف ، لا يعدمونها في الرجل ، فشوقي لم يشتد ـ قط ـ شدته في قضية الشورى او الدستور ، فعنف **بالسلطان عبد الحميد** حين شاد الناس في الدستور ، وحين حجبه عن الامة ليستبد بالامر ، فناصر **عليه انور باشا** وصحبه :

صبروا لدولتك السنين
وما صبرت سوى شهور

اوذيت من دستورهم
وحننت للحكم العسير

وتغضبت كالمنصور او
هارون في خالي العصور

فنوا بضائع حقهم
وفتنت بالدنيا الغرور

هلا احتفظت به احتفا
ظ ، مرحب فرح قرير

هو حلية الملك الرشيـ
ـد وعصمة الملك الغرير (٢٠)

وقوله « وخالي العصور » هنا من باب الذم والتحقير لا التماجد والافتخار ، **فراى شوقي في هارون الرشيد رايه في معاوية وعامة الخلفاء من بعده** ، صارت بهم الخلافة ملكا عضوضا « على سنة الفرس والرومان » فتزحزحوا بها عن سمت البيعة والانتخاب إلى سنة التعيين والتوريث :

---

(١٧) جـ ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) جـ ٢ ص ٨٢ من الديوا

(١٩ جـ١ ص ١٤٥ منالديوان وقوله فيالحضور اى في حضرةالله تعالى في الوادى المقدس طوى

(٢٠) جـ ١ ص ١٢٢/١٢٢ من الديوان

ان الذين توارثوك على الهـوى
بعد (ابـن هنـد) طالما ظلموك

لم يلبسـوا برد النبـي وانما
لبسوا طقوس الروم اذ لبسوك

وقصارى القول ان شوقى ثار ـ أشد الثورة بالظلم والظالمين ، لا فرق بين حاكم او محكوم ، وشوقى لا يخطىء مواضع الظلم ، يكون فى السلطان ، ويكون فى أولى الامر ، كما يكون فى الرعية وعامة الناس سواء بسواء . وهو فى جميع ذلك حرب عليه أينما كان لا يحاشى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والذين يسقطون شوقى من الثورة بالظلم انما يسقطونه من سياق العصر ، فالعصر الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضارى منذ عهد « نابليون » الى يوم الناس هذا ، والادب الحديث فى مصر وعامة العالم العربي يضطرب بهذه الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه هيكل (٢١) ، وشوقى بلا جدال « لسان مصر الناطق » كما شهد به **الرافعي** وكان الرافعي قبلا من حساده ومبغضيه (٢٢) .

والذين يريدون أن يسقطوا شوقى من سياق العصر الثائر يعجزون أن يبرروا لنا وللتاريخ الادبى خلود الرجل فى المشاعر والاذهان ، والحافظة أكبر ناقد رغم أنف الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة ضربا من المناوأة ولا غير ،وشق عصا الطاعة فحسب، على سنة المخربين أو المحترفين .

ونريد بهذا التفريق أن الثورة الفرنسية فيض شعبى كاللوحة الفنية أو القصيدة الشعرية قامت على غير مثال سبق،فاستمدت روعتها من فيض الايمان بالمبادىء أو الصدق فى المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل مكرور خلا من الطعن بالتقليد والاتهام بالمحاكاة.

ويوم تكون الثورة حرفة تصبح كالعمل الادبى المقصود ، يعمل فيها الوعى والتدبير فتلتوى بالناس الى قصد غير القصد وسبيل غير السبيل ، وثورة أتاتورك ماثلة يومذاك فى الاذهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد الاصلاح ، وانتهت بهم الى « القومية » أو « الوطنية» مبدأ لم يخطر ـ قط ـ على أذهان المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم أو الشعب ، فوقع فى العنجهية القبلية أو « شعب الله المختار » ، لا يأبه الناس فيه « بالغير » الخارج على شاكلتهم فى الجنس أو مفارقهم فى الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ، لانهم نشأوا على ولاء أعم ، جاز بهم الاسلام حدود « الدم » و « الاقليم » عصب « الدولة الحديثة » الى هذا الولاء الجامع بين الامم وأطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم
فى كل غـدوة جمعـة ورواح

جمعت على البر الحضور وطالما
جمعت عليه سرائر النـزاح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

أبـى الاسـلام لا أب لى سواه
اذا هتفـوا ببكـر أو تميم

وهذا الولاء الاسلامي الجامع ، كأبرية « **أرنولد توينبي** » الولاء القومى ، الذى سارع اليه **كمال أتاتورك** ، فالقومية عنده مرض من

---

(٢١) ثورة الادب .

(٢٢) وحى القلم .

(٢٣) جـ ١ ص ١١٥ من الديوان .

امراض الحضارة الأوروبية ، لانها من عوائق « الولاء الانسانى » الاعم ابتلى بها الشرق واخذها على غير هدى او بصيرة ، (٢٤) ولقد صدر شوقى عن مثل هذا السخط بالكماليين فكتب يقول :

شربوا على سر العدو وغردوا

كالبوم فوق جدارك المدكوك(٢٤مكرر)

فاذا اضفت هذا الى قوله :

هتكوا بايديهم ملاءة فخرهم ...

ادركت كيف شربوا على سر العدو ، وانفذوا له ما اراد ، فقطعوا اوصال الخلافة او الوحدة الجامعة للمسلمين بهذا الفكر القومى الطارىء على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على أن الامر له وجهه الدستورى عند شوقى ، اذا جاوزنا العواطف او المبادىء الاسلامية ، فالكماليون طلاب الديموقراطية او دعاة الراى والشورى ، كانوا اول من استبد بهذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صح العزم واخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رأيهم ، ولكنهم الغوا الخلافة على غير هوى الناس ، أو راى المسلمين ، فكانت اول مثلبة دكتاتورية تتراءى للناس فى تطبيق الديموقراطية الغربية فى دار الاسلام فكتب شوقى يقول :

الفرد بالشورى وباسم نديها

خلع الخليفه فى الظلام شريدا

خلعته دون المسلمين عصابة

لم يجعلوا للمسلمين وجودا (٢٥)

وخلاصة الامر ان شوقى شاخص الى الشورى الاسلامية أو روح الديموقراطية لا ينخدع عنها بالنظم واشكال الحكم ، فالاستبداد ـ عنده ـ يقوم والنظم الدستورية ـ بعد ـ قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على راس الحكم ، فالعبرة ـ عند شوقى ـ بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالامم وانما الامم هى التى تنهض بالنظم ، ونزوع شوقى الى الاخلاق ، اريد به الامة او تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، أو تلك هى رسالته التي اراد ان يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة او المجتمع ما هما الا اجتماع الآحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يومذاك ، وفى تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

يقول رفاعة رافع الطهطاوى : اعلم ان (الفرنساوية) مفترقة الراى فرقتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بانه ينبغى تسليم الامر لولى الامر من غير ان يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكانه عبارة عن آلة ، ولا شك ان الرأيين متباينان ...

فالفرقة الاولى اعانة الملك ، والاخرى اضعافه واعانة الرعية ، ولاحاجة للملك اصلا ... وهذا هو حكم الجمهورية » .

ومؤدى هذا القول ان النظم السياسية او نظم الحكم ثلاثة انماط ، ملكية مطلقة ، واخرى مقيدة او دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث هو النظام الجمهورى ، الامر فيه للمبايعة او الانتخاب ، يقول رفاعة :

---

(٢٤) Toynbee; Civilization on Trial

(٢٤ مكرر) ـ جـ ١ ص ٢٠٠ من الشوقيات .

(٢٥) جـ ١ ص من الشوقيات .

« وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها » (٢٦)

وشوقى من راى رفاعة لانه راى الاسلام غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد مختارا على سنة النظم الجمهورية فى الاختيار برايه ، وقامت بهيستشير ويشار عليه ،وقامت به معينا او معهودا اليه ، وقامت بـه مبايعا والانتخاب .

وقد امتدح شوقى الخلفاء والحكام بجميع ذلك ، فالخليفة لا ينبغى ان يضار بالخلافة فيسقط عنه حق الاجتهاد ، لان الاجتهاد حق الناس خلفاء وغير خلفاء :

الـراى راى امـير المـؤمـنـين اذا
حارت رجـال وضلت فى مراميهـا

وانما هـى شورى اللـه جاءبهـا
كتابه الحـق يعليها ويغليهـا (٢٧)

ولا ياخذ الناس الراى هنا ماخذ الدكتاتورية لان الاسلام لادكتاتورية فيه فالحاكم المسلم مقيد بالاسلام ومحكوم به ابدا ، او هكذا ينبغى له ، يقول رفاعة :

« والافرنج يعدون الحكومات الاسلامية من قبيل مطلقات التصرف ، والحال انها مقيدة اكثر من قوانينهم » . (٢٨)

والدستور فى قصاراه قيد يغل يد الحاكم ، او عاصم من الاختلاف فى تأويل الحقوق ، يصطلح عليها المسلمون فيلتقى الحاكم واياهم على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد آثر شوقى القيد الدستورى، فالخلفاء عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيق بالدستور ولا يضيق به الدستور ،وخليفة غر ،فالدستور عاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حليـة الملك الرشيد ، وعصمـة الملك الغريـر .

على ان فريقا من الناس والكواكبى على راسهم اشتطوا فى الامر فابوا الفرد حاكما ولو عمر بن الخطاب ، (٢٩) ولا يعنى ذلك ان شوقى كان دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمـــــان واهلــــه
فزعوا من الفرد اللعين (٣٠)

الانصاف ـ اذن ـ ان تنسب الرجل الى ادب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين او الحكام فى مصر والآستانة ، وهذا خلق يتخلق به صاحب الذكاء ، وشوقى كان فوار الذكاء كما يقول مطران (٣١) ، لان الذكاء يصل بصاحبه الى غاياته البعيدة دون ان يخرم حرفا واحدا من آداب المجاملة والحديث ، وبهذه الخلة كان يمدح ويتمدح :

شديـد صلـب فى الحـق حتـى
يقول الحق لينـا واندا ما (٣٢)

---

(٢٦) التخليص ص ٢٥٢ .

(٢٧) جـ ١ ص ٢٨٧ من الديوان .

(٢٨) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ص ٥٤نقلا عن الوقائع الرسمية ع ٦٢٣ .

(٢٩) ام القرى ص ١٤١ .

(٣٠) جـ ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .

(٣١) الشوقيات المجهولة جـ ١ ص

(٣٢) جـ ٢ ص ٩٨ من الشوقيات .

فلسفته في مدح العثمانيين

على ان العثمانيين كانوا بالقياس الى شوقي تاريخا وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضرا يعلو على الاتهام او النقد والتجريح .

اما العثمانيون آحادا وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الاسلامية في لغة القرآن فضلا من لغته التركية ، والاغلب منهم كان يحفظ القرآن ويتخذ الاساتذة والمعلمين من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على انهم أرادوا نسبا تسقط فيه القومية التركية او العنجهية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

واذا جاوزنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان او الدولة البيزنطية ، وكانت خطرا اتصل حبله منذ ابي تمام والمتنبي والمعتصم وسيف الدولة ، وقد تأبت من قبل هذا وذاك على معاوية بن ابي سفيان .

وهذا الفتح في موازين الحضارة اخطر منه في تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها في الحضارة الاسلامية او دار الاسلام ، وليس ذلك بيسير .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى أسوار فينا في القرن السابع عشر ، ودخلت اوروبا الشرقية باغلب دولها في حوزة دار الاسلام او خلافة المسلمين ثلاث قارات من العثمانيين ، وليس قليلا في التاريخ أن تنتظم اوروبا الى غرب آسيا الى شمال افريقيا ،حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حدا لم تبلغه امبراطورية قبلها ، فكانت فخرا لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول الشيخ محمد عبده : « اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى . . . حدود الصين ، اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب ، كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها (ملوك) الصين ، وترتعد فرائص اعظم ملوك اوروبا . »

ومن ملوكهم في قرونهم الوسطى مثل محمد الغزنوي ، وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في الشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني .

اولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح أثرهم (٣٣) .

ومن قبل أشاد رفاعة الطهطاوي بالسلطان سليمان الثاني واعتد عصره « اعظم الاعصار » فقد بلغ بالدولة العثمانية « أوج الفخار » فافتتح الفتوحات العظيمة واعلى كلمة الله » (٣٤) .

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يصدون سيدا عن السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصدارة وولاية الامور ، حكم الاسلام او شريعته النازلون عليها في التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وخير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير في مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استجلب الاوروبيون اليهم العبيد في أمريكا صنيع الاتراك المتهمين ، فلم نسمع عنهم الا الاضطهاد ، انزلوهم من المجتمع أحط المراتب ، وختموا على اتضاعهم بالعرف المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الاوروبيين في أسباب الحضارة على نحو من انحاء المشاركة يفرضه الانصاف .

---

(٣٣) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستاذ الامام .

(٣٤) الاعمال الكاملة لرفاعة ج ١ ص ٤١٦ نشر وتحقيق محمد عمارة .

كان العثمانيون ــ اذن ــ بالقياس الى شوقى تاريخا وحضارة ، او ان شئت كانوا مجدا اسلاميا ، وبطولة متصلة فى تاريخ المسلمين :

قد ظننى اللاحى نطقت عن الهوى
وركبت متن الجهل اذ اطريك

لم ينقذ الاسلام او يرفع له
راسا سوى النفر الالى رفعوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقى ــ قط ــ الى السلاطين العثمانيين الا وهو شاخص الى مآثر آبائهم الاولين منذ محمد الفاتح الى سليمان القانونى الى غيرهما من ابطال الفتوح والحضارة الاسلامية :

سما بك يا عبد الحميد ابوة
ثلاثون حضار الجلالة غيب (٣٦)

حنيفية او قد عزها واعزها
ثلاثون ملكا فاتحون غزاة (٣٧)

يابن الخواقين الثلاثين الألى ... (٣٨)

عشرون خاقانا نموك وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء الماضون ــ اذن ــ هم مفتاح المدح عند شوقى ، وهم مادته التى صدر عنها فى التغنى بالسلاطين ، فهم جيل من اجيال الحضارة الاسلامية، والحلقة الوثقى فى تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بدر بعدما
خيف المحاق عليه والاظلام (٤٠)

يقول **الدكتور لويس عوض** : « فمنذاللحظة الاولى (من دخول الفرنسيين) احس الجبرتى انه ازاء حضارة جديدة ارقى من حضارة الترك والمماليك ، لا فى مقوماتها المادية فحسب ، ولكن فى كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطىء الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والمماليك ليسوا حضارة قائمة براسها ، لان المماليكظاهرة اسلامية ، او نظام حربى اقضى اليه اجتهاد المجتهدين على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطىء له اجر .

والمماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتمون الى وطن واحد او قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون الى حضارة تحمد او تذم .

والاتراك هم الآخرون يفتقرون الى الف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيفتستقيم لهم حضارة، فيقال حضارة الترك او المماليك ؟

وهم انفسهم قد نبذوا « طورانيتهم » وتسموا بالعثمانيين وهم الغالبون يومذاك على امرهم فى الاسلام ، شانهم فى ذلك شان التتار، غلبوا على دار الاسلام وغلبهم الاسلام فى ميدان الحضارة والعقيدة جميعا .

---

(٣٥) جـ ١ ص ٦٥ من الشوقيات .
(٣٦) جـ ١ ص ٤٢ من الشوقيات .
(٣٧) جـ ١ ص ٩٥ من الشوقيات .
(٣٨) جـ ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .
(٣٩) جـ ١ ص ٢٢٨ من الشوقيات .
(٤٠) جـ ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .
(٤١) تاريخ الفكر المصرى جـ ٢ ص ٢٠ .

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار والاتراك ، انتصروا على اليونان بالسيف ، وانتصر عليهم اليونان في الحضارة وشئون الفكر ، والرومان احق ان تكون لهم حضارة براسها من التتار والاتراك ، ولكنها دائما وابدا مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقي - اذن - من راى استاذنا الدكتور لويس عوض ، ولا كان الجبرتي منه على التحقيق ، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والاقليم ، فالحضارة الاسلامية علم على الميراث المشترك بين الأمم الاسلامية على اختلافها في اللون والجنس واللغة والاقليم ، يقول الشيخ محمد عبده : « هذا ما ارشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لسيادة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض ، وان المسلم في تبدل حكوماته، ولا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها » (٤٢) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين متربص بشعوب الخلافة الاسلامية وكلهم شاخص الى هذا « الرجل المريض » يتحاجزون دونه ، اصدقاؤه والأعداء لا ابقاء عليه وانما اغتناما للظروف المواتية التي تكثر فيها الغنيمة ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف ، فمثلهم والدولة العثمانية كمثل قول الشاعر :

يفرقهم بغض ويجمعهم حقد

وموقعة ابي قير البحرية شاهد على ذلك بما كتبه « **نلسون** » في يومياته او مذكراته (٤٣) باسم بينهم شديد ، وهم - بعد - جميع على الدولة العثمانية على سنة التحدي الحضاري في عرف آرنولد توينبي ، ويرجع توينبي بوادر هذا التحدي الى ارتداد العثمانيين عن فيينا في القرن السابع عشر ، وقد بلغ اقصاه حوالي مطلع هذا القرن العشرين ، وقد ادرك شوقي هذا القصد المبين من قبل ان يقول به توينبي فكتب قصيدة في مسجد ايا صوفيا تفضح هذا العداء الكامن او الحقد الذي لا هوادة فيه :

لن يترك الروم عباداتهم
او ينزل الترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعباداتهم مواطن العبادة واماكنها من باب حذف المضاف ، ويريد بهذه المواطن او الأماكن عامة البلاد التي غلب عليها الترك ، ونزعوا عنها الحضارة الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام والمسلمين :

فيا لثار بيننا بعده
اقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثار القدس من قبله
لا تنتهي منه ولا يبتدى

فلا يغرنك سكون الملا
فالشر حول الصارم المغمد

لن يترك الروم عباداتهم
او ينزل الترك عن السؤدد

---

(٤٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٥/٢٢٦ .

(٤٣) The Life of Nelson.

هـذا لهم بيت على بيتهم
ما اشبه المسجد بالمسجد

فان يعادوا فى مفاتيحه
فيا ليوم للورى اسود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لامر الشرق وقد احيط به ، وها نحن أولاء لا نزال يأخذنا الشر صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على عدو ، وانما يتركوه بين بين ، والبين بين دائما فى حيص بيص ، فهو متوجس ابدا ، لا هو المنتصر فيفرح بالنصر ولا البالغ الهزيمة فييأس من النصر ، واليأس احدى الراحتين .

فالشر حول الصارم المغمد
اقام لم يقرب ولم يبعد
لا ننتهى منه ولا يبتدى

والأمر مناط يومذاك بخاطر مضموف ، والأوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين يحملون اوضار كل ذلك على الاسلام وخلافة المسلمين ، لا يعنيهم ما يعنينا من مجد الماضى وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى وعليه ما انقضى كما قيل يومذاك ، وانما العبرة بالحاضر فهم يأخذون الاسلام والمسلمين بما يزخر به الواقع من الظلم ومظاهر التخلف والجمود .

فكان على شوقى أن يختط خطة رفاعة وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، فيحارب فى جبهات ثلاث صنيع طه حسين والعقاد ، فيصد عنا الغزو الفكرى وينقض تهم الغرب ، ويحمل على الظلم الموروث ومظاهر للتلخف والجمود ، وهو من وراء ذلك شاخص ابدا الى ماضى الحضارة الاسلامية يكابر بها ، ويستحيى فى الناس قيمها ، يحفزهم على الاستمساك بأصرتها ، والخلافة الاسلامية ـ بعد ـ حضارة متصلة فى تاريخ المسلمين :

حسب اتى طول الليالى دونه ....
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ....
جمعت على البر الحضور ....

لم يكن شوقى ـ يغافل ـ اذن ـ عن سىء العصر ولا عن تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين على القوة والنهوض :

شعوبك فى شرق البلاد وغربها
كاصحاب كهف فى عميق سبات

بإيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم فى حالك الظلمات

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم
فما ضرهم لو يعلمون الآتى

والفارق بين شوقى وهؤلاء الناقمين كما اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم وعقابيل التخلف وبين الثورة بعامة الخلافة ونظم الاسلام والمسلمين ، او هو الفارق بين ثورة الشفيق بأهله المؤمن بجدوى حضارته ، فمدحه تحريض على الفضل وسخطه عتاب على المثالب والعيوب ، واصول الحضارة الاسلامية ـ آخر الأمر ـ هى محك الرضى ومعيار السخط والعتاب .

★★★

عالم القيم او المدنية الفاضلة عند شوقى :

هناك منهج فى البحث ذو شقين سلكه « **كولنجوود** » فى تعريف الفن وماهيته ، الشق الأول منه : تخليص الفن من المدخول عليه ، ورده على قائليه ، وهذا ما كان منا فى أمر شوقى .

وهذا التعريف « بالسلب » كما يسمونه تكمن جدواه فى تقريب الأذهان من غاية الصواب ، لانه يميط عن طريقها الاخطاء الشائعة ، او اذى الخلط وآفة الادعاء .

واذا خلصت الأذهان من زائف القول ، وتهيات للحق ، ونشطت لاستقبال الصواب ، جاءها الشق الثانى ، أو التعريف بالايجاب ، ليقيم على اطلال الخطا صرح العالم الانسانى او الرؤية الاخلاقية ، او الشخصية الادبية ، او الأبعاد الحضارية لفكر الرجل ، وعامة مشاعره ووجدانه .

فشوقى لا تقف عبقريته عند دفع التهم ، وانما هو عالم من القيم او الحضارة مستتم الاطراف ، لن تجد فيه منفذا مشروعا لما ادعوه عليه من البهتان :

يقولون يرثى الراحلين فويحهم
المثلت عند الراحلين الجوازيا

ابوا حسدا ان اجعل الحى اسوة
لهم ، ومثالا قد تقاضاه خالقيا

فلما رثيت الميت اقضى حقوقه
وجدت حسودا للرفات وشانيا

فالرجل فى مدحه ، وفى رثائه ، وفى عامة شعره شاخص ابدا الى القيم الانسانية العليا ، يشتقها من وقائع حياة العظماء واحداث التاريخ ، يستوى فى ذلك الأحياء منهم والأموات ، والمصريون وغير المصريين ، والنصارى والمسلمون ، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد ، وعن بغداد وروما وباريس والآستانة وليبيا وبيروت ودمشق ، وعن صلاح الدين ونابليون ، وعن حافظ والمنفلوطى وشكسبير وتولستوى وهوجو ، وعن مصطفى كامل وبطرس غالى ، وعمر المختار وادهم باشا وسعد زغلول .

ذلك بانه آمن ان الناس هم الأحداث ، وهم صناع التاريخ ، ولم يفهم قط ان الأحداث والتاريخ هما الغالبان على امرهما فى التطور بالناس الى ما يريده انصار الحتمية التاريخية على سنة هيبوليت تين أو الماركسيين ، فشوقى يؤمن مع « **كارلايل** » ان التاريخ عربة يجرها **الجياد من الرجال كما يقولون** ، ولم يخطر له ـ قط ـ ان التاريخ يمضى بالناس حيث يشاء على سنة هيجل فى السعى الى المطلق من الأفكار ، ولا على سنة الماركسيين فى الصراع الناشب ـ حتما ـ بين الطبقات .

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الانسان عظمته فى معترك الحياة ، ويسخر من جدواه فى سير الاحداث ، ولا يثبتون له بعض شانه الا بالتمحل والتخريج فى « الجدلية » او فلسفة الصراع عند الماركسيين .

وشوقى يربا بالانسان ان يكون ريشة فى مهب التاريخ ، تمضى الاحداث الى غاياتها ، وهو بعد مسلوب الارادة لا قوة له يقصده ، ولا غاية يتغياها عن عزم وتدبير .

والناقمون على شوقى لا يصبرون على هذا المنهج فى جدوى الفضائل وآحاد الناس فى الاصلاح وسير التاريخ ، لأنهم غارقون فى المذاهب التاريخية ، وفلسفتها فى التعويل على الظروف والملابسات ، وجاءت المادية الجدلية ومذاهبها فى الحتمية او الجبر التاريخى ، فوقفت للناس بالجهد البشرى او الفضائل وخصال الافراد عند حب الخير و « الطوباوية » التى تحمد اصحابها ، ثم لا طائل من ورائها فى اصلاح المجتمع وشئون الناس ، لأن المعول عندها فى النظم وفلسفة المجتمع ، لا فى الخلق وخصال الناس ، فالناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحه ، والصلاح مقصور على المجتمع اللاطبقى الذى يزعمون انهم بالغوه غدا او بعد غد فتحسن الخصال ، وتفضل اخلاق الناس دون جهد يبذل ، او تدبير مقصود .

اما المجتمع البرجوازى القائم فاصل الشر وجرثومة الفساد ، والخلاص منه او الثورة به خلاص من الشرور والآثام .

وهذا القول يسقط عن آحاد الناس مؤونة الجهد فى تهذيب النفس ، والاضطلاع بعبء الفضل ومسئولية الخلق او خصال الاستعلاء .

ولا كذلك شوقي :

والنفس من خيرها في خير عافية ...

فانما الأمم الاخلاق ما بقيت ...

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ...

صلاح أمرك للاخلاق مرجعه ...

وما السلاح لقوم كل عدتهم

حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

واذا ما أصاب بنيان قوم

وهي خلق فانه وهى أس

فالاخلاق عند شوقي عليها مدار التقدم في حياة الافراد كما في حياة الامم والجماعات ، فالأمم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح **بصلاحهم وتفسد بفسادهم** ، وهو قول لا **يسقط من الحقيقة** ، وان سقط في موازين الماركسية ، اللهم الا اذا قالوا بالجدل بين الفرد والجماعة ، وهو جدل ينظرون فيه آخر الأمر الى جهد الفرد في الثورة او دفع عجلة التاريخ الى المجتمع الفاضل الذي ينعدم فيه التمايز والطبقات .

والانسان مهما طال بهم الجدل ، وتملقوه بصفات البطولة هو ـ عندهم آخر الأمر ـ وسيلة لا غاية ، والأمر عند شوقي على الضد والخلاف ، لان شوقي يكابر بالانسان وجدواه في الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق في الحضارة ومدارج الرقي .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره ووجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبي أو الصرح الحضاري ، أو ما شابه ذلك من المصطلحات التي تفضي الى « الرؤية » الادبية بلغة العصر .

وقد أصاب الذين وصفوا شوقي بانه شاعر الأخلاق ، الا ان هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال ، لان الاخلاق اختلطت في الأذهان بالاصطلاح المدرسي الذي يقف بها عند القواعد المقررة في العرف او ضوابط السلوك ، وما يريده بالأخلاق عند شوقي أمر وراء ذلك بكثير ، فالعباقرة لا ينشدون الكمال القائم في اذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وانما ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل وخصال السمو والعظمة .

ولو اقتصر امر شوقي على هذه الاخلاق التي يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد والخلود ، لأن عبقريته لا تعدو ـ عندئذ ـ نظم ما ينبغي أن يكون ، على سنة ابي العتاهية او صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاسع بين نظم الأخلاق ، وشعر الاخلاق ، فشعر الأخلاق شاخص ابدا الى ما وراء الكمال من عظمة النفس ، وسمو الشاعر والوجدان :

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها

واستغفرت كرما منها لشانيها (٤٤)

فارادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمعه العنقاء (٤٥)

متدرع صبر الكرام على الأذى

ان الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وارانا التاريخ فرعون يمشي

ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

انما يقدر الكرام كريم

.... (٤٨)

(٤٤) جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٤٥) جـ ١ ص ٢٢ .

(٤٦) جـ ٢ ص ٦ .

(٤٧) جـ ١ ص ٢٠ .

(٤٨) جـ ١ ص ١٨٨ .

ويثنيـــك فيه فــلا يكلف نفســـه
غير الترفع والوقــار نضـــالا (٤٩)

الفضيت ضـنا بعرض أن الم؛ بـه
وقد يروق العمى للحر والصمم (٥٠)

واذا ملكت النفس قمت ببرهـا
ولو ان ما ملكت يـداك الشـاء (٥١)

واذا بنيت فخيـر زوج عشـرة
واذا ابتنيـت فدونـك الآبـاء (٥٢)

قـوم وقـار الـدين فى اخلاقهـم

• • •

وقـد نسـتطيع ان نجمع هذه العظمة او الخصال فى المصطلحات الاسلامية التى جرى بها التواتر او جاء بها القرآن ، وفصلتها السنة فى كثير من الحديث ، ولعـل « البـر » او « الاحسان » احفلها بهذه المعانى ، او تلك الغايات ، « ان الله يامر بالعدل والاحسان » .

« نبى البر بينة طريقا »
« والبر عندك ذمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون — وهم مخطئون — ان هذه المعانى مضت فى الادب العربى ، والمتنبى سبق اليها فى حكمه ومأثوراته ، واصح من هذا الزعم انهـا مضت فى الآداب الاسلاميـة ، او حضارة المسلمين — وشوقى بلا شك هو الجانب الانسانى من هذه الحضارة ، واعنى به جانب « الاحسان » او ماقدمنا من مصطلح « نوافل الكمال » ، فالسيئة جزاء السيئة كمال ولاشك ، واما العفو ففوق الكمال او هو كمال آخر لايفى بمعناه الا مصطلح « الاحسان » .

« ان الاديب مسامح ومدارى »

خلقت كانثى عيسى حـرام
على قلبى الضغينـة والشمـات

وهذا هو الفارق بيـن المتنبـى وشوقى او الفارق بين الكمال ونوافل الكمال ، او الفارق بيـن واقـع التصرف واصطـراع النـاس فى السلوك ، وبين التامل وآداب السلوك او النزعة الانسانية التى تتسم بها حكمة شوقى ، فالمتنبى فى اقرب ابياته من الكمال ونوافله لا يعدو ان يقـول :

تـرفـق ايهـا المولـى عليهـم
فـان الرفـق بالجانـى عتـاب

فلا يجعل الترفق بهم خالصا لوجه « البر والاحسان » ، وانما يجعله عتابا او عقابا ان شئت .

جـ — الا ان فريقا من نقاد شوقى لا صبر لهم على اطلاق القول ، ويضيقون بالعموم الذى لا اختيار فيـه ولا مفاضلـة ، لان الاختيار والمفاضلة يقتضيان التخصيص المنبىء عن الشاعر وخاصة مذهبه فى الامور ، وذلـك ادل على موقف الرجل ، وعلى شخصه او عامة فكـره ووجدانــه .

ونسوق الى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقى كما يزعمون لاتصرف عنه ، وهو غير مضطر اليه ، ولكنها عبقرية الرجل ونفاذه فى الصعب ، وشخصيته القادرة على المشكل من الامور :

ظـن فرعـون ان موسى له واف
وعنـد الكرام يرجى الجـزاء

لم يكـن فى حسبانه يوم ربى
ان سيأتى ضـد الجزاء الجـزاء

تقضى اللـه ان يعـق ولله تقى
لا لغيـــره الأنبيـــاء

ومؤدى هذا القول ان المبادىء العليا تعصف بالمبادىء الدنيا ، لانها اوفق واصلح للبشرية على سنة « الانتخاب الطبيعى » ، او البقاء للاصلح عند دارون وعامة التطوريين :

---

(٤٩) جـ ١ ص ٢١٢ .
(٥٠) جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥١) جـ ١ ص ٣٦ .
(٥٢) جـ ٢ ص ٨٤ .

فما على المرء في الاخلاق من حرج
اذا رعى صلة في الله او رحما

وليس وراء ذلك اصرار على ما قدمنا من نوافل الكمال او معاني البر والاحسان ، ورحم الله **علي بن ابي طالب** حين رق لاحد الخارجين عليه في وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

وتستتم اطراف هذا العالم الادبي او هذه الرؤية الفنية لنمط آخر من انماط الكمال ونوافله او انماط الجمال الفني في معناه ومبناه جميعا :

وردتك كولرا وسفرن حورا
وهل بالحور ان اسفرن باس

فقل للجانحين الى حجاب
اتحجب عن صنيع الله نفس

اذا لم يستر الادب الغواني
فلا يغني الحرير ولا الدمقس

تأمل هل ترى الا جلالا
تحس النفس منه ما يحس

كان الخود « مريم » في صفوف
ورائهما حواري وقس

تهيبها الرجال فلا ضمير
يهم بها ولا عين تحس

وليس وراء ذلك قداسة او جلال يحملك على السمو والاحتشام ، ولا يعدله عندي الا قولك في آثار الفراعنة ، وروعة انس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخشع
لا تحاول من آية الدهر غضا

فانت هنا كما انت هناك في حضرة **الجمال والجلال** ، هذا **عبقرية الفن والانسان** ، وذاك عبقرية **الطبيعة والحياة** .

هذا قل من كثر ، او قليل من كثير تخلص منه الى ان الاخلاق عند شوقي هي **القيم الانسانية الكبرى** التي اريد بها **« الاحسان »** في حضارة الاسلام والمسلمين ، **وهي امر وراء القواعد والقوانين ، او وراء الحدود والتشريع** كالتصوف سواء بسواء ، فانت تستوفي امر العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتي النوافل لا يزال العبد يتقرب بها الى الله حتى يصبح يده التي يبطش بها ، **وعينه التي يبصر بها** ، وتلك رتبة عالية في عرف **المتصوفة او المتصوفين**

وكلا الامرين داخل في رتبة الفضائل او نوافل الكمال ، لان الاحسان في مضمار الخلق والسلوك كالتصوف في العبادة ليس احدهما فرضا مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنى الزيادة لغة واصطلاحا ، والزيادة لا يشق الشارع على الناس بالتكليف بها ، وانما تؤتى تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

فهي لا تستمد سندها من التشريع او القانون ، وانما تستمده من رتبتها في السمو ، لانها غاية في ذاتها يسعى اليها اهلها ، ويستمسك بها الفضلاء من الناس ، وتلك هي مرتبة **الاخلاق بلا الزام** كما يقول « جويو » والتي آمنت بها الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا بلغ الناس المجتمع اللاطبقي في **تقديرهم ، فلا** حكومة ايان ذاك ولا سلطان ، وانما هي الفضائل التي يتكلفها الناس تكلفا في **المجتمع البرجوازي** او الراسمالي تصبح خلقا متاحا لكل احد .

ولا كذلك الحال عند شوقي ، فالحياة هي الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهي بحالها :

الناس كما تدري ودنيا بحالها
وشعب رخي تارة وعسير

واحوال خلق غابر متجدد
تشابه فيه اول واخير

الحال باقية كما صورتها
من عهد آدم مابها تغيير

وذلك بان شوقي يؤمن بالدنيا دار ابتلاء واختيار ، وهو رأي الاسلام ، ولا معنى للابتلاء والاختيار اذا استقامت الحياة بالناس ، وجرت الطبائع فيها على سنن الفضائل ولا غير ، فتلك مرتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم النفوس فتنتزع النفوس الى الكمال « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا » .



ربة البيت

آن اوكلى **

عرض وتحليل الدكتورة علية حسن حسين

يهتم هـذا الكتاب بابراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» في المجتمع الصناعي الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حول نظرة المجتمع للمرأة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو اما . ويهدف الكتاب الى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلقي الضوء على السمات والملامح التي تميز ربة البيت .

وتهتم الكاتبة بتتبع دور المرأة عبر الزمن معتمدة في ذلك على تحليل نتائج البحوث التي اجرتها بنفسها لعدد من الحالات التي قامت بدراستها ، وكان الطابع الانثوي غالبا على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

(*) Ann Oakley, House wife, Allen Lane, London, 1974

(**) ان اوكلى ، باحثة في كلية بدفورد بلندن ، ولدت في لندن عام ١٩٤٤ وتلقت تعليمها في كلية سومرفيل باكسفورد، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن من موضوع« اتجاهات المرأة نحو العمل المنزلي » ، وفي عـام ١٩٧٢ اصدرت كتابا بعنوان : « الجنس والذكورة والانوثة والمجتمع» Sex, Gender and Society . وفي عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب « ربة البيت » الذي تتناوله بالعرض والتحليل والنقد الدكتورة عليه حسين ، كما اصدرت ان اوكلى في نفس العام كتاب « سوسيولوجيا العمل المنزلي » الذي تقدم له ايضا الدكتورة سامية حسن الساعاتي عرضا تحليليا وتقييما نقديا له . (التحرير)

التى تقصر العمل على الذكور دون الاناث ، والتى تؤكد ان دور المراة ينحصر داخل المنزل فقط .

واتجاه الكاتبة الى الاهتمام بهذا النمط من النساء يرجع الى قصور السوسيولوجيين فى الاهتمام به . ويتضمن الكتاب تسعة فصول تتناول الموضوعات التالية :

اولا : المقصود بربة البيت واهم ما يميزها :

ان ربة البيت هي المراة التى تعمل فى البيت ولا تتقاضى اجرا عما تقوم بعمن اعمال، واذا حاولنا تحديد المقصود بهذا المصطلح من الناحية اللغوية فانه يشير الى كلمتين : بيت ـ زوجة . وهذا يعنى ان الدور الذى تقوم به ربة البيت هو دور عائلى وانثوى معا ، كما يعتبر ايضا دورا خاصا داخل المنزل . وربة البيت هي المسئولة عن معظم الواجبات المنزلية ، كما تقوم ايضا بكافة الاعمال المنزلية سواء ساعدها احد او لم يساعدها .. وهي بهذا المعنى ليست خادمة ، وانما المراة تباشر شئون منزلها ، كما انها سيدة البيت وزوجة رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة، فالزواج ليس شرطا لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها نخص منها ما شاع ويبرز فى المجتمع الصناعى الحديث . فربة البيت من المسميات التى يقصد بها المراة دون غيرها ، وتعنى هذه التسمية عدم استقلالها الاقتصادى ، ويعبر مضمونها عن الدور الاساسى الذى تضطلع به ويحدد مدلوله دائرة عملها ، ويبين منزلتها الاجتماعية كامراة غير عاملة . ومن الضرورى الا يفوتنا ، ونحن نتحدث عن ربة البيت ، ان نشير الى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية. فهذا الدور وان لم يمثل نشاطا اقتصاديا منتجا بصورة مباشرة الا انه يرتبط به ارتباطا وثيقا ، ويتمثل هذا الارتباط فى جوانب ثلاثة:

الاول : قيامها بخدمة افراد الاسرة وتهيئة الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام بادوارهم الاقتصادية المنتجة وان لم تقم بدور مباشر فى عملية الانتاج .

الثانى : كما ان قيامها بدور المستهلك الرئيسى فى الاسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من السوق ، احد انشطتها الرئيسية ، تزيد من حجم المبيعات فتنشط عملية التسويق مما يؤدى الى دفع عجلة الانتاج باطراد .

الثالث : ان عمل المراة كربة بيت لايدخل ضمن مفهوم العمل الحديث، فهى تؤدى العمل المنزلى الخاص بالاسرة والمتعلق بتدبير الحياة العائلية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من الاعمال او الخدمات العامة التى يتحتم ان تتقاضى عليها اجرا معينا ، كما انها غير ملزمة بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المراة كربة بيت خارجا عن مفهوم العمل الحديث الذى يؤدى نظير الكسب المادى او الاجر المحدد .

ولكن هل يعنى ذلك ان عمل ربة البيت يتباعد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية وينفصم عنها انفصاما تاما ؟

ان طبيعة هذا العمل والصورة التى يتم عليها والحدود التى يدور فى اطارها ، وان لم تبرز ارتباطا ظاهرا ومباشرا بالحياة الاقتصادية ، الا انها لا تعنى الانفصام عنها . والنظرة الدقيقة المتفرة لهذا الدور تؤكد مدى ارتباطه بالحياة الاقتصادية وتعى اهميته فى دفع حركة الانتاج دفعا مستمرا بتهيئة الظروف المستقرة للمنتجين من اعضاء الاسرة .

ثانيا : دور المراة فى مجتمع ما قبل الصناعة :

لقد اختلف دور ربة البيت فى المجتمع التقليدى عنه فى المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

الاختلاف انما يرجع الى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع الاهتمام بعمليات الانتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق فى مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعنى ان العمليات الانتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفى اطار العائلة كما كان يحدث فى المجتمع التقليدى ، فالعائلة فى المجتمع التقليدى كانت تمثل وحدة الانتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جزاين من كل" تقاق متكامل ، فالعمل اذن لم يكن منفصلا من حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الاسرة ، ولكن الكل يعمل من اجل استمرارها ووجودها . ورغم ان مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين ، تبعا لطبيعة كل جنس كان معروفا ، الا ان الادوار فى المجتمعات التقليدية كانت تحدد بالنظر الى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك المبدأ المعروف يمارس حتى فى المجتمعات التى عرفته على اساس قاعدة ثابتة تحدد عملا للمراة وعملا آخر للرجل . فالبناء الاقتصادى والاجتماعى للمجتمعات التقليدية لم يكن يتيح وجود مثل هذا التمييز الدقيق فى تقسيم العمل .

وان ادراكنا لمفهوم الدور الذى كانت تنهض به ربة البيت فى المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية ، ويؤكد انهما يمثلان معا كلا متكاملا .

وهذه صورة مخالفة للصورة السائدة فى المجتمع الصناعى الذى كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التى حدثت على مستوى العالم كان لها اثر واضح فى تميز ادوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادى مما اسفر عنه التميز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية .

وبعد ذلك العرض الذى يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المراة فى المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي يتميز بها دور ربة البيت فى المجتمع الغربى خاصة فى الفترة ما بين القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر .

ا ـ **العمل** : كان عمل المراة فى بريطانيا منحصرا فى الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الاساسيتين لافراد ذلك المجتمع فى تلك الفترة .

وحين عملت المراة كمزارعة كانت تقوم بانتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الالبان ، وكانت تتقاضى اجرا يقل من اجر الرجل ، رغم ان جهدها فى هذا المجال يفوق الجهد الذى يبذله الرجل . وهذا الدور يعتبر جزءا من دورها الذى كانت تنهض به داخل المنزل فى المجتمع البريطانى التقليدى . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها فى الزراعة حيث كان يتم ايضا فى اطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الاعمال قامت المراة بالعمل فى التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التى لم تكن تقل اهمية عن الاعمال السابقة ، فالمراة المتزوجة كانت تقوم بغزل ونسج الصوف والكتان لغرضين : الاول تغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . اما الغرض الثانى فهو المساهمة فى زيادة دخل العائلة .

ولم تقتصر الاعمال التى قامت بها المراة على ذلك ولكنها تجاوزتها الى اعمال اخرى كصناعة الخبز والبيرة ، وفضلا عن مساعدة زوجها فى عمله وتحمل القيام باعبائه بعد وفاته ، ومارست العمل ايضا فى مجالات اخرى مثل التجارة القطاعى ، وادارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهن يعملن باعة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهن .

ب ــ كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم عن طريقها ولم يكن الزواج يعفي المراة من الاعباء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصاديا بل تعتمد على دخلها من العمل الذى تمارسه فى الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الانفاق على اطفالها ، ويساهم الزوج فى ذلك ان كان دخله كافيا . فالمراة فى هذه الفترة كانت تحرص على التوفيق بين استمرار الحياة العائلية ورعاية الاطفال ، اما فيما يتعلق بالشئون المنزلية فانها كانت مسئولية مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت فى القرن السابع عشر ودورها فى القرن العشرين .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال انه رغم اعتراف القانون العام بخضوع المراة للرجل فى المجتمع الانجليزى الا ان ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان النبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، فى حين كانت العادات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين المزارعين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المراة بالرجل واستقلالها الاقتصادى عنه .

ج ــ المنزلة الاجتماعية للمراة فى المجتمع الانجليزى التقليدى :

ان استقلال المراة الاقتصادى فى المجتمع الانجليزى التقليدى خلال القرن السابع عشر قد اتخذ اشكالا مختلفة :

فالمراة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشتى المسؤليات التى كانت للرجل الذى يعمل فى نفس الظروف ، ولها ان تلجأ الى القانون فى جميع الحالات للحصول على حقوقها ، ولها ان تشارك مشاركة تامة فى اعمال الزوج وشئونه .

وقد تبين ان هناك اسماء لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجارى ، وقامت الزوجة بادارة اعمال زوجها كوكيلة لاعماله ، فضلا عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات فى حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية فى هذا المجتمع تبيح انتقال تجارة الزوج وامتيازاته الى الزوجة بعد وفاته .

وبعد ان ادركنا الدور الذى كانت تنهض به المراة فى المجتمع البريطانى التقليدى يتاكد لنا ان المراة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك ثمة تمييز فى قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المراة من ممارسة اى عمل لكونها امراة . وليس من بين ذلك كله ما يشير الى التفرقة بين العمل المنزلى والعمل الانتاجى والنظر اليهما كوحدتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التغيرات الاقتصادية التى نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرات تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذى تنهض به المراة ولطبيعة عملها كمركز للحياة العائلية .

ثالثا ــ المراة والتصنيع :

ان دور ربة البيت فى المجتمع الحديث يختلف عن الصورة التى كان عليها فى المجتمع التقليدى ، فاتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغيرا واضحا فى مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الامر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه الى دور الرجل .

وهذا التحول او التغير يتضح فى انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية وقد ادى ذلك الى ان اصبح دور ربة البيت محصورا فى النهوض بالاعمال المنزلية التى تفرضها

الحياة العائلية دون الانخراط فى الاعمال الانتاجية التى تتم خارج المنزل ، والتى تكون مقابل اجر نقدى ، فلم تعد المراة تشارك فى عمل انتاجى من اجل العمل ذاته او من اجل الاستهلاك .

اما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث افسح له العديد من المجالات ، فاتسعت دائرة عمل الرجل ومجالاته وانشطته وعلاقاته فى حين ضاقت دائرة عمل المراة واتجهت نشاطاتها الى المنزل اكثر من اى مجال آخر .

وكان هذا التحول فى دور الرجل ملائما لذلك التطور الذى حدث فى المجتمع الحديث، الذى كان اتجاهه الى التصنيع سببا فى انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية والانتقال بالعمل الانتاجى بعيدا عن المنزل الى مؤسسات صناعية كبرى يؤدى فيها العمل نظير اجر نقدى .

والمجتمع الصناعى الذى يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالانشطة الاقتصادية تختفى امامها العائلة كوحدة اقتصادية انتاجية .

واستبعاد العائلة عن النشاط الاقتصادى لم يستلزم تغيرا فى الانتاج فحسب ، بل انه استلزم ايضا تغيرا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت اصبحت غير عاملة وعليه فهى تعتمد اقتصاديا على الرجل الذى اختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه اجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادى للعائلة .

ويمكن تقسيم المراحل التى مر بها دور المراة منذ بداية مرحلة التصنيع الى ما يأتى :

المرحلة الاولى وهى ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

والمرحلة الثانية وهى مابين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة مابين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

اما المرحلة الاولى : ١٧٥٠ – ١٨٤١

فهى تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للانتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المراة عن ممارسة الاعمال الانتاجية التى كانت تنهض بها فى المجتمع التقليدى ، ولم يكن للصناعة اثر فى تغيير الاعمال الانتاجية التى كانت تقوم بها من قبل ، وانما ظهر اثرها واضحا فى زيادة الانتاج وما تبع ذلك من زيادة فى حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد انتاج النسيج المنزلى بزيادة حجم العمل الانتاجى الذى تقوم به ربة البيت رغم ميكنة هذه الصناعة . ولم يكن ذلك فى انتاج النسيج فقط بل تعداه الى انتاج القطن .

وفى عام ١٧٨٠ التحق بمصانع انتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحقت معهم المراة وصاحب ذلك انخفاض فى الاجور . ولا يعنى التحاق المراة للعمل بمصانع انتاج القطن الاستمرار فى مثل هذه الاعمال اذ اعتزلت الكثيرات من المتزوجات العمل فى المصنع فى اوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الام واجهتها مشكلة رعاية اطفالها اثناء انشغالها بالعمل فى المصنع ، مما ادى الى اعتزالها ، وكان ذلك سببا فى انخفاض نسبة النساء العاملات فى هذا القرن اى القرن التاسع عشر .

اما النساء المتزوجات وليس لديهن اطفال فقد استمر عملهن فى المصنع وكان ذلك مسايرة للاعتقاد السائد من ان المراة يجب ان تعمل وتعول نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان للعمل فى

المصنع دور فعال فى تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرك ما كان للثورة الصناعية من اثر واضح على كل النساء العاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتى ليس لديهن أولاد ، وما كان له من دور فى تحسين ظروف المرأةمن الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ فى كل من انجلترا وويلز الى الاعمال الاساسية التى كانت تنهض بها المراة ، واوضحت مجالات نشاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحياكة الملابس وكيها ، كما انها مارست مهنة التدريس أيضا، هذا الى جانب الاعمال الاخرى التى نهضت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها اعمال تمثل الادوار التقليدية التى اختصت بها المراة فى المجتمع التقليدى .

اما العمل فى المصنع فقد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والاجر المتقاضى منه يماثل الاجر الذى يحصل عليه الرجل . ولذا كان هذا العمل من اكثر الاعمال التى اجتذبت النساء يليه الخدمات المنزلية ويأتى بعدهما العمل الزراعى .

اما بالنسبة لبعض الحرف والاعمال الاخرى التى كانت المراة تزاولها وحدها فقد انخفضت نسبة العاملات فيها ، هذا الىجانب ما احدثه انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشاركة المراة للرجل فى عمله .

كما ان النمو الاقتصادى السريع فى الثروة ادى الى الاقلال من فرص العمل أمام المراة فى مجالات الاعمال الحرة فيما عدا تجارة القطاعى .

ومن تلك التغيرات التىحدثت فىمجالات العمل التى طرقتها المراة العمل فى الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمى اثره فى استمرار عمل المراة فى هذهالمهن وكانت الداية اكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التى طرأت على عمل المراة .

المرحلة الثانية : الفترة مابين ١٨٤١ ـ ١٩١٤

فى هذه الفترة برزت فىالمجتمعالانجليزى حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففى عام ١٨٤٢ صدر اول تشريع يحدد الظروف التى تعمل فيها المراة ويحدد كذلك مجالات العمل التى تلتحق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان المراة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذى صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء اثناء فترة الحمل وقرر منحهن اجازة لمدة اربعة اسابيع قبل الوضع واربعة اخرى بعد الوضع .

وفى عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضى بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعاتعمل اضافية، ولهذه التشريعات اثر واضح فى تحديد المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر اثرها فى انخفاض نسبة النساء المتزوجات العاملات، وساد الاعتقاد بأنمكانالمراة البيت، ودورها ينحصر فى التزامها بالعمل المنزلى فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل فى المصنع وابتعاده عن المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال.

ويضاف الى ذلك تلكالمنافسة الشديدة التى واجهتها المراة العاملة فى الانتاج الصناعى من الرجال ، والتى دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلى الذى تؤديه دون اجر يتقاضى عنه ،

خاصة وان الرجل قد أصبح صاحب الدخل الاساسى فى العائلة او الأسرة .

وبزيادة عدد ربات البيوت ، ونتيجة لزيادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب على الخدم الى الحد الذى دعا الى ظهور مشكلة نقص الخدم فى عام ١٩٠٠ .

وظهور هذه المشكلة يدل على مدى احتياج ربات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول فى دور ربة البيت الذى اصبح دورا اشرافيا ، فربة البيت تقوم بدور المشرفة على العمل المنزلى وهو نفس دور ربةالبيت العاملة فى القرن العشرين ، فهى الى جانب كونها ربة بيت فهي ايضا عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحولت المراة ربة البيت من مجال العمل فى الصناعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل فى الصناعات الغذائية ومؤسسات غسل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التى كانت تؤدى من قبل فى المنزل . كما ازداد النساء اللائى التحقن بالاعمال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنزل المرتبة الاولى بالنسبة للمراة المتزوجة، بينما احتلت الاعمال الاخرى المرتبة الثانية .

المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ — ١٩٥٠

تتميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كعاملة منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فقد ارتفعت نسبة النساء العاملات وزاد الطلب على العمل ، والتحقت المراة بمجالات عمل جديدة فى الادارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل فى الهندسة الصناعية وانتاج الاسلحة والذخيرة وقيادة السيارات . ثم انخفضت النسبة مرة اخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعية . ولم تختلف الصورة اثناء الحرب العالمية الثانية عما حدث بعد الحرب العالمية الأولى حيث زادت نسبة النساء العاملات فى الصناعة الى الضعف نتيجة لظروف الحرب .

وخلاصة القول ان التصنيع كان له دور فى حدوث بعض التغيرات التى يمكن اجمالها فيما يلى :

— ابتعاد الرجل عن الحياة الروتينية المنزلية بالانتقال للعمل فى المصنع وترك العمل فى المنزل .

— تحمل الرجل لأعباء المعيشة واعتماد المراة عليه فى ذلك .

— انفصال العمل المنزلى ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

— التصنيع ادى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسى اكثر منه فسيولوجى .

وكان يمكن لربة البيت ان تترك المنزل لتمارس عملا تتقاضى عنه اجرا نقديا ولكنها مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث انه الدور الاساسى لكل النساء على الرغم من انه قد يعوقها عن توسيع دائرة نشاطها الخارجى .

رابعا — وضع المراة فى الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المراة والرجل امر مالوف ويرجع هذا التمييز الى اساسين :

الاول : المراة تهتم بشئون المنزل ،وهذا الاهتمام يحدد وضعها داخل الاسرة وخارجها.

الثانى : المراة بوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الموجهة لدورها فى المجتمع .

ولتوضيح الاساس الاول الذى يعتمد عليه فى التمييز بين المراة والرجل يمكن ان تتبع دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة وخارجها فى الوقت الحاضر .

اولا : داخل الاسرة :

حين نتحدث عن دور المراة داخل الاسرة نعنى بذلك دورها فى المنزل او البيت ولا نعنى به مكان العمل .

فالمراة فى الاسرة هي التى تحمل الاطفال وترعاهم وتتولى تربيتهم ، وهى فى المنزل ربة البيت .

ووظيفة العائلة او الاسرة ــ فى مختلف المجتمعات ــ توجيه السلوك الشخصى ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون عن طريق التنشئة الاجتماعية ، والمراة هى التى تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها عبء تكوين الشخصية الانسانية .

وتكوين افراد المجتمع الذى تتولاه الاسرة يتم عن طريقين :

الاول : **تنشئة الاطفال اجتماعيا** ، والثانى : **صب الشخصيات الناضجة فى قوالب اجتماعية** . فهى تهيىء الافراد للقيام بادوار الزوجة ، الام ، ربة البيت ، الزوج ، الاب .

وتكوين افراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للاسرة ولكنها اصبحت ذات اهمية كبيرة فى الاسرة الحديثة ، حيث ان الاسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التى كانت تقوم بها العائلة فى المجتمع التقليدى ، اى مجتمع ما قبل التصنيع .

ان محور بناء الاسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المراة ودور الرجل فيها سواء او شيئا واحدا ، فالمراة لها دورها الذى يختلف عن دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكرا ودور المراة بوصفها انثى فى الاسرة الحديثة ليس تمايزا بسيطا ، فالترتيب الذى تسير عليه الاسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقا على الزوجة يوضح بناء متدرجا ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للانثى ان تسبق الذكر الا حين يذكر الوالدان ، فيقال الام ثم الاب وذلك لان المراة هي التى تقوم بتربية الاطفال ورعايتهم فى الاسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية فى هذا القرن دور فى زيادة اهمية الجنسين فى الاسرة، واهتمام المراة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هى به دون الرجل .

وقد ادى التصنيع الى ظهور الاسرة النووية، تلك التى تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن فى ظروف المعيشة وفى ظروف الاسرة كان له اثر فى زيادة الاعباء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من اهمية العمل المنزلى .

واذا كان العمل المنزلى قد تاثر بظروف التصنيع فقد تاثر ايضا دور المراة ونعنى الزوجة الام .

وقد ركزت التنمية على امرين اساسيين تعتمد عليهما الزوجة الام فى تربية الطفل ورعايته .

الامر الاول : ضرورة تزويد المراة بالمعلومات اللازمة عن تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المراة فى دور الامومة يتوقف على ذلك.

والامر الثانى : وجود الام بجانب الطفل، حيث ان الطفل فى حاجة الى استمرار وجود الام بجانبه اكثر من حاجته الى الاب . فالام

تهتم بتربية الاطفال ورعايتهم ، والأب يقوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى ان الاسرة كنظام اجتماعى يميز بين دور الجنسين ، والمراة فى الأسرة الحديثة التى تتالف من رجل وامراة تكون فى المحل الاول زوجة وام لطفل تقع عليهما كل الاعباء المنزلية ، مهما كانت الاعمال التى تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت ام طبيبة، فالمرأة فى الأسرة خالقة المنزل ،وراعية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعد ان اوضحنا دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة فى الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعية للشئون المنزلية خارج الاسرة ايضا .

ويتضح هذا الدور فى اهمية الاسرة فى توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لاعضائها ليكونوا افرادا منتجين فى المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور فى وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك فى ذلك اهتمام المراة بالشئون المنزلية.

وهذا ما تؤكده الاحصاءات الخاصة بالقوى العاملة من المساواة بين الجنسين والتشابه بين الوظائف والاعمال التى يقوم بها الرجال والنساء ، الا ان تلك المساواة وهمية ولا أساس لها فى الواقع الفعلى .

وقد ازدادت فى هذا القرن نسبة الاناث اللائى يعملن خارج المنزل ويتضح ذلك فى بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠—١٩٦٠ ، ويرجع ذلك الى قدرة المراة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، والى أنها قادرة على ان تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد ثباتا فى نسبة العاملات من الزوجات الامهات.

وهذه الزيادة فى نسبة العاملات من الاناث لا تشير الى حدوث تغيرات فى التمييز التقليدى بين الرجل والمراة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمراة لا تزال ترتبط بأعمال معينة ، فهي تعمل فى مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والاعمال الكتابية والبيع فى المحلات والعمل فى المصنع ، هذه كلها مجالات مارست المراة العمل فيها الى جانب نهوضها بالعمل المنزلى .

وفى انجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات فى هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء فى هذه المهن فى كل من الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انها اكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحق بهذه المهن من النساء قد تخصص فى نواح متعلقة بالمراة. فالمحامية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ،وتهتم الطبيبة بامراض النساء والولادة وطب الاطفال، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تاثير قوى على اختيار المراة للمهن التى تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومى الذى اجرى فى بريطانيا ان نسبة ربات البيوت اللائى لا يعملن خارج المنزل ١ ــ ٢ اما اللائى لهن اطفال ويعملن تتمثل ١ ــ ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الأمهات اللائى يخرجن للعمل عندما يبلغ اطفالهن سن ٥ــ١٥ سنة وتقل النسبة كلما صغر سن الاطفال عن ذلك .

ومن متابعتنا لدور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها فى الوقت الحاضر نخلص الى ان التعارض بين وضع الرجل والمراة ليس ناتجا من الدور البيولوجى الذى تقوم به المراة فى الحمل والولادة وانما ينتج عن الدور الثقافى فى التربية .

فالامومة مثلها مثل رعاية الشئون المنزلية من الادوار التى تختص بها المراة وتتميز بها عن الرجل . ومما يوضح ذلك

النظر الى اهتمامات المراة وتركيزها على اختيار المهن التى تتعلق أساسا بالشئون المنزلية والتى تربطها بالدور الانثوى . وهذه الاهتمامات من جانب المراة يزيد الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المراة وربما تكون من عوائق تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن الاساس الاول الذى يرجع اليه التمييز القائم بين الرجل والمراة فى المجتمع فى الوقت الحاضر ننتقل الى الحديث عن الاساس الثانى الذى يرجع اليه هذا التمييز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المراة فى المجتمع. وهذا التناقض يبرز من خلال الادوار التى تقوم بها المراة داخل وخارج المنزل . فالمراة عضو من اعضاء المجتمع يخصها بادوار تنهض بها . والمجتمع اذ يحدد لها الدور الانثوى التقليدى كربة بيت يحدد بذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وام .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك ان المراة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف فى ذلك عن غيره من الكائنات الانسانية ، فلا ثمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الانسانية فى ذلك ، وهذا يحتم ان تتساوى مع غيرها فى الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض فى تلك القيم الموجهة لدور المراة . فالمجتمع اذ يربطها بذلك الدور الانثوى يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها فى الحقوق والواجبات بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك ان المراة تتساوى مع غيرها فى التعليم وفق القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على اساس مقدرتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ترى حياتها فى ارتباطها بزوجها واطفالها وتحقق ذاتها بطريقة غير مباشرة تتمثل فى رعايتهم الرعاية التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدى للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والأم والمراة تواجه صراعا بين دورها فى المنزل ومسئوليتها فى رعاية شئون الاسرة ودورها فى المجتمع بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية تبيح له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فان الصراع الذى يواجه المراة الان انما هو صراع بين الادوار المتغيرة للجنسين ، والدور القائم على اساس الجنس يكون قائما على اساس بيولوجى يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجابات سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالناحية البيولوجية تفرض ان يكون اعضاء المجتمع ذكورا واناثا ، والمجتمع الصناعى الحديث قد اوجد فرصا للمساواة بين الذكور والانثى ، ولكن فى نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والاناث بوصفهم جميعا اعضاء فى المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخص النساء برعاية الاطفال وتدبير شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال ايضا .

فهذا الصراع الذى يواجه المراة حديثا يفرض عليها أن تختار بين سلوك الانثى التقليدى وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت، كما ان له الحق فى الحصول على وظائف معينة .

ولما كان المجتمع الذى اعترف للمراة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذى أعطى للرجل النصيب الاكبر من الحقوق فانه على الرغم من كل مانالته المراة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تتضح من ذلك هي ان المجتمع قد خص المراة بدور يعتبر اكثر الادوار اهمية ، الا وهو

الاهتمام بالاسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على ان التمييز بين الجنسين لا يزال قائما فى مختلف المجتمعات خاصة فى مجالى التعليم والعمل .

وتوضح نتائج احدى الدراسات التى اجريت فى احدى جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والاسرة ، أن من الاسباب التى تجعل المرأة تحجم عن العمل فى مجالات عمل الذكور النظر الى هذه الاعمال على انها ليست اعمالا انثوية ، والمرأة تخاف ان توصف بأنها غير انثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث فى الولايات المتحدة حيث كان تعليل المرأة لانخفاض نسبة المشتغلات بالمهن الهندسية ، فالسبب الرئيسى هو خوف المرأة من ان توصف بأنها غير انثى . هذا بالاضافة الى ان الوالدين لا يشجعان بناتها على التدريب فى مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول ان التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خداعا للعقل ، اذ انه من غير الممكن ان تتساوى المرأة بالرجل فى الحياة العامة او خارج المنزل فى الوقت الذى لا تتساوى فيه بالرجل داخل الاسرة ، ورغم خروج المرأة للعمل والاشتغال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالى والتدريب فى مختلف المجالات ، وما اتيح لها الآن من فرص تؤهلها للدخول فى المجالات السياسية والمهنية الا ان هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لغالبية النساء فى مجتمعنا .

خامسا ــ ربات البيوت ودورهن فى الوقت الحاضر :

لا شك ان كل فرد فى المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول فى المجتمع الحديث .

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز انما يأتى من تعدد مجالات انشطتها ، وكثرة الادوار التى تنهض بها .

فهي تقوم بدورها الانثوى كربة للبيت، وزوجة وام ، وهي فى نفس الوقت تقوم بدورها كعاملة تمارس مهنة معينة فى اطار المجتمع الذى تعيش فيه ، ولقد كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصية واحدة تتمثل فى عدم حصولها على اجر نقدى نظير ما تقوم به من اعمال منزلية .

وفى ضوء ذلك اختلفت الآراء فى تحديد وضع المرأة . يرى البعض ان الاهتمام بالشئون المنزلية ورعاية الاسرة ليس الا نوعا من العبودية والاستغلال للمرأة .

بينما يرى آخرون ان دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالا للابداع الفردى والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى ان ربة البيت انسانة مظلومة ، فى حين يرى غيرهم ان ربة البيت انسانة حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التى تفرضها نظم العمل الصناعى .

وهكذا ندرك ماكان من اختلاف فى الرأى حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلى .

ويجدر فى هذا المجال ان نعرض لرأى ربة البيت ذاتها لنتعرف على نظرتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسئوليات التى تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التى تصل بنا الى الرأى الاصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التى قامت بها المؤلفة ، ومن خلال الحالات التى درستها يتبين :

ان ربة البيت نفسها ترى ان اعظم شيء في العمل المنزلي هو عدم خضوعه لقيود العمل ومواعيده . فالعمل المنزلي يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلي بالمرأة دون الرجل ، وعدم رغبة المرأة في مشاركة الرجل لها في الاعمال المنزلية .

وهذا انما يعمق الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدي بدوره الى التاكيد على ان لكل من الجنسين دورا في المجتمع يختلف عن دور الاخر ، فالذكر له دوره الذي يختلف عنه دور الانثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التي تشكل ضغطا كبيرا على المرأة لتندرج سيكولوجيا مع العمل المنزلي .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعا من التدريب الذي يجب أن تهيأ له الانثى في فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الاعداد يعتبر جزءا من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد اهمية هذا التدريب ، بل واهمية ممارسته في فترة مبكرة واعتباره جزءا من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل في العمل المنزلي لا يختلفن في ذلك عن امهاتهن ، على الرغم من توفر الادوات التكنولوجية الحديثة التي تسهم في انجاز العمل المنزلي بصورة أسرع ، والتي تسهم كذلك في الاقلال من الجهد الذي يبذل فيه .

ولا شك ان طريقة اداء العمل المنزلي والمستوى الذي يتم انجازه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن اسلوب العمل ينتقل اساسا من الأم الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

وللعمل المنزلي اتجاهان مختلفان :

الاول : ان تادية ربة البيت للعمل المنزلي يمثل جزءا من تصورها لذاتها .

الثاني : يفصل دور ربة البيت عن دور الأم ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدي الذي يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلي يعتبر موضوعا شخصيا لغالبية النساء ، والرضا بقبوله او عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقابلات التي تمت لمجموعة من ربات البيوت ، لموضوع البحث الذي قامت المؤلفة باجرائه تشير الى رضا غالبية ربات البيوت عن عملهن ، بل انها تشير الى اكثر من ذلك، فهن يعطين العمل المنزلي أولوية على الاعمال الاخرى التي يقمن بها .

وكان تركيز المؤلفة على حالات اربع ، درستها دراسة مركزة ، تناولت فيها :الحياة الزوجية، المسكن، الاثاث ، التعليم، المساواة، الزواج المبكر ، العمل بالاجر قبل وبعده والوظائف ذات المهارة المنخفضة . وتطرقت فيها الى اثر البيئة الاجتماعية في تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلي ورعاية الطفل.

وقد أسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن أن العمل المنزلي يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما أوضحت مدى الاهتمام الذي حظي به العمل المنزلي، فكثير من ربات البيوت قد اقدمن على ترك الاعمال التي عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الاطفال ، كما اثبتت تلك الدراسة ان غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلي كما كانت تؤديه امهاتهن.

سادسا ــ مكانة المراة :

ان تحديد مكانة المراة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هـذا الدور بها الى الحد الذى اصبح معه احدى الميزات التى تختص بها المراة دون الرجل ــ لم يكن الشق الصناعى وحده هو الذى ادى اليه ؛ بل ان هناك قوى اخرى قد تدخلت فى ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الاساطير التى تتحدث عن وضع المراة فى المجتمع ، والايديولوجية التى تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الانثى ، وقصر اهتمامها على الشئون المنزلية .

وقد ظهرت اسطورتان تحددان مكانة المراة سنعرض للحديث عنهما لنتبين ما كان لهما من اثر فى تحديد تلك المكانة .

والاسطورة الاولى اذ تحدد مكانة المراة تعالج ذلك فى ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس . اما الثانية فهى تحدد هذه المكانة على اساس الامومة .

وتقوم الاسطورة الاولى اساسا على قصر دور المراة على الاهتمام بالشئون المنزلية والعائلية باعتبار انه الدور الطبيعى فى كل المجتمعات وعلى المراة أن توضح هذا الدور للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفى ضوء تقسيم العمل حاول بعض العلماء مناقشة طبيعة دور المراة . ومنهم علماء الانثرولوليجيا ، والسيكولوجى .

وعلوم الانثروبولجيا ، والاثيولوجيا ، والسيكولوجى تعتبر من المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس ، والتى تحدد مكانة المراة على هذا الاساس . ولما كان علم الأثيولوجيا يهتم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعى (١) فقد حاول الاثيولوجيون من العلماء تفسير اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فارتباط دور ربة البيت فى نظرهم بالمراةدون الرجل له جذور بيولوجية ، بل انهم يربطون كذلك تقسيم العمل فى المجتمعات الصناعية بين الذكر والانثى بتقسيم العمل فى المجتمعات التقليدية فى الماضى والحاضر .

واذا كانت نظرة الاثيولوجى ترجع الى الطبيعة وتقوم على الافتراض فان نظرة الانثروبولوجى قد جاءت على عكس ذلك ،فهى تعتمد على معلومات معينة مستمدة من دراسات للمجتمعات التقليديةوكان (ميردوك) واحدا من الانثروبولوجيين الذين اقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية يتميز بها عن المراة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الاعمال مشقة ، فى حين تحتم الطبيعة الفسيولوجية للمراة قيامها بالأعمال التى تتطلب جهدا اقل كجمع الطعام وأعداده ، وصناعة الملابس والنسج .

وقد لوحظ ازدياد التخصص والتعاون بين الجنسين فى كل المجتمعات الانسانية على هذا الأساس البيولوجى .

واكتسب الرجل فى ضوء ذلك بعض الميزات ، فالمراة عليها ان تقوم برعايته ،فهى توفر له الطعام ، وتهيىء الظروف المنزلية المناسبة لراحته ، الى جانب ما تبذله من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية .ان الرجل لم يكتسب هذه الصفات فحسب ، انه اعتبرها حقا مكتسبا دائما ، وعلى المراة أن تنهض به وقد منح هذا الحق استنادا

(١) الاثيولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الانسان والبيئة بمعنى اخر للعلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التى تميز جماعة عن جماعة اخرى فكل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

الى الاساس الذى يرتكز عليه فى تقسيم العمل الا وهو الجنس .

والملاحظ ان الاثيولوجيا لم تختلف عن الانثروبولوجيا فى مناقشتها لموضوع دور ربة البيت ، وقصر هذا الدور على المراة ، واختصاصها دون الرجل بالنهوض به ، بل ان كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا فى البناء الاجتماعى لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الراى يواجه معارضة ، اذ ان تقسيم العمل لا يتم على اساس الجنس فقط ، وانما تمثل الاعتبارات الثقافية اساسا آخر فى هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجى الذى تنهض به المراة ، والذى يتمثل فى الحمل والولادة والرضاعة وتربية الاطفال ، ليس وحده الذى يحدد التقسيم بين الجنسين فى المجتمع ، بل ان للقيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة والانوثة دورا آخر فى هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المراة فى معظم الثقافات بل وفى كل انحاء العالم بالدور الانتاجى وخاصة فى فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجى كان يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلى ويستنفد حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها الذى تنهض به فى رعاية الاطفال .

وكان يساعدها على اداء هذا الدور والد زوجها او جماعة الاقارب ، كما ان اكبر الاطفال سنا يشارك فى المساعدة ايضا .

والمراة لم يقتصر دورها على العمل الانتاجى وحده بل كان لها دور فى الحروب فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه الملايين من النساء شاركت فى مختلف الاعمال فى الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل فى الاعمال العسكرية بمختلف انواعها ، وقامت بالمشاركة فى اعمال البناء والزراعة وان ذلك ليدل على ان المراة نهضت باعمال كثيرة خاصة بالذكور فى كثير من المجتمعات .

وكل ذلك انما يهدم اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس من اساسها ، حيث قامت المراة فى مختلف المجتمعات بالاعمال التى تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المراة البريطانية بالعمل الذى تطلب جهدا كبيرا فى هذا المجال . هذا فى القرن الماضى ، ولاتزال تمارس مثل هذه الاعمال فى انحاء العالم خاصة فى افريقيا ، فها هى تعمل بالزراعة بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات الانثروبولوجية الى قيام المراة باعمال شاقة مثل اعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير الى انها عملت فى بعض المجتمعات بالتجارة ، وتحملت فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

ومع اختلاف الثقافات فى نظرتها تجاه الاعمال التى يقوم بها كل من الجنسين فان هناك اتفاقا على ان رعاية الطفل تعتبر عملا طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة فى المجتمعات الصغيرة حيث تحمل المراة الطفل اكثر الاوقات ، كما تقوم باعمال اخرى تبذل فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس والتى تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل ، قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد ادت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل من الرجل والمراة يمثل نمطا واحدا فى كل الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك ان هذا التعميم قائم على اساس بيولوجى ، مع وجود كثير من الامثلة التى تكشف عن خطأ هذا التعميم .

كما ان القول بأن دور ربة البيت ليس قائما فى كل مجتمع ، وان وجوده يتوقف على نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ، حيث ان تعدد الثقافات لا يرجع الى القوى البيولوجية وحدها وانما يرجع الى قدرة الانسان على الخلق والابداع .

بقي ان نتحدث عن المصدر السيكولوجي الذي يعد احد المصادر العلمية التي قامت عليها أسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدي للجنسين ويعتبرون ذلك اساسا لاستمرار النظام الاجتماعي وبقائه .

فالمصدر السيكولوجي الآن يعتمد على الاتجاه الوظيفي بتركيزه على اهمية الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصدر السيكولوجي كالمصدر الانثربولوجي والابيولوجي للاسطورة يؤكد الافتراض القائل بان وضع المرأة في المجتمع يتحدد بالضرورة بيولوجيا وعلى اساسه يتحدد مكان المرأة في بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الاطفال في الاسرة . والام هي التي تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور اجتماعي حيث انها تنهض بهذه الرعاية من الحمل والولادة ، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل وبرعاية الزوج نفسه في الوقت الذي يكون فيه الرجل حرا منطلقا في كثير من المجالات بينما تكون المرأة مقيدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبريرا آخر غير التبرير البيولوجي ، والتحليل السيكولوجي لبناء العائلة يشير الى تأكيد القيم التقليدية لدور الجنسين ، ويفرق بين الدور المساعد او المساند والدور التعبيري ، ويعتبر دور المرأة دورا تعبيريا ، واساس ذلك الاعتبار ما تقوم به المرأة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل ، وما تقوم به من تدعيم للعلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذي يختص به.

ان السيكولوجي يؤكد أن دور الجنسين اساس لبقاء المجتمع في صورته الحالية ، فدور المرأة — كعاملة دون اجر ومربية وراعية للاطفال وقائمة على خدمة الرجل توفر له حاجاته الاسرية والعاطفية — استثمار اقتصادي .

ان استمرار النسق الاجتماعي في الوجود، واستمرار العائلة كذلك امر حتمي ، واستمرار هذا النسق يقتضي تقسيما للعمل يقوم على اساس الجنس كما يقتضي تمييزا للادوار في العائلة ، وهذا يحتم أن تكون المرأة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عائليا فان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس تحمي النظام الاسري وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى ان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس هي اساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجي والانثروبولوجي ، والابيولوجي .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التي تحدد مكانة المرأة على ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس .

اما بالنسبة للاسطورة الثانية فانها تحدد تلك المكانة على اساس الامومة .

والامومة هي دور ثابت في كل زمان ومكان ، لا يطرأ عليه تغيير او تبديل في حين يتغير دور ربة البيت ، بل ويتغير كذلك دور الزوجة .

وهذا الثبات الذي يتميز به دور الامومة تؤكده حاجات اساسية ثلاث :

الاولى : ان الاطفال دوما في حاجة الى امهاتهم .

الثانية : وان الامهات ايضا في حاجة الى اطفالهن .

الثالثة : ان الامومة هي العمل الاكبر الذي تقوم عليه حياة المرأة .

وهذه الحاجات الثلاث ، يكمل بعضها البعض ، وهي حقائق معروفة في كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تتضح في عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تركز التنشئة الاجتماعية

الاهتمام فى المرحلة الاولى على اعداد الانثى لدور الامومة كدور لكل الاناث . وان ابتعدت بعض النساء فى الوقت الحاضر من هذا الدور نتيجة لما طرأ على المناشط الانثوية من تغيرات . فالمرأة تعهد الى غيرها مسئولية تربية الاطفال لكي تتفرغ للاعمال الاخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة ان تهتم بعدم حبها للاطفال أو بعدم رغبتها فى رعايتهم .

ان الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الاطفال الى امهاتهم . ويمكن تقويم الامومة على أساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل ان يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالامر يتعدى ذلك بالنسبة لرابطة الامومة التى تمثل ارتباطا روحيا بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحى بين الطفل والأم يؤكد ان اى رعاية يتلقاها الطفل من أى انسان آخر خلاف أمه لا تساوى مطلقا رعاية الام . ولذا يتحتم على الام ان تكون بجوار الطفل خاصة فى مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الامهات العاملات عن غيرهن من النساء فى كل العصور والثقافات ، فهن يشاركن فى مناشط الحياة الاقتصادية الانتاجية فى المجتمع ، ويقمن فى نفس الوقت برعاية الاطفال ، وانما يكون الاختلاف فى نوعية الرعاية التى يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث أن تلك الاتجاهات هي التى تحدد نوع الرعاية التى يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذى يحددها .

ولذا يكون الاعتقاد السائد بان عمل المرأة يتعارض مع وجود الاطفال اعتقادا لايزال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائما ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فان لها مشاكلها التى تد تصرفها عن رعاية الاطفال ، وأعباؤها المنزلية قد تحول بينها وبين امكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخروج المرأة للعمل الذى يتحقق من ورائه الكسب المادى ليس وحده الذى يخلق المشاكل التى تعوق المرأة من رعاية الاطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لايمكن لأحد غير الأم اشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل ام يقتصر ذلك على الاعمال المنزلية أو اى اعمال اخرى تشغل المرأة .

وحيث ان الام ترتبط ارتباطا وثيقا بالطفل ، خاصة فى مرحلة الطفولة الاولى ، فعليها ان تصلح اخطاءها وتعدل سلوكها ليكون سلوكا مثاليا لما لذلك من تاثير فى حياة الطفل . فالاخطاء التى قد تقع فيها الأم تتغلغل فى حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الامومة فى المجتمع الحديث الا انه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح ان كلا الاسطورتين ، اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس واسطورة الأمومة ، يمثلان عاملا من العوامل الاساسية التى تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلى ، بل يشير مضمونها ايضا الى ظلم المرأة واضطهادها .

اوردت المؤلفة فى ختام كتابها فصلا يعرض لكيفية تحرر المرأة من الاعمال المنزلية التى تستغرق الكثير من وقتها ، والتى تكلفها جهدا كبيرا ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

واساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ماتراه من أن تحرر الامة كلها رهن بتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثا وضعها لتبين ورآها سبيلا لتحرير المرأة من هذا العبء الذى يثقل كاهلها .

الطريقة الاولى : تتمثل فى الغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل فى الغاء العائلة

اما الثالثة : فهي تتمثل فى الغاء تقسيم العمل على اساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الاولى التى تستشهد بها المؤلفة اعتبارها واحدة من

الطرائق المؤدية الى تحرير المراة ، والتي تتمثل في الغاء دور ربة البيت ، فانها تعنى التركيز على نوع العمل الذى تقوم به المراة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكتنفه حوافز او دوافع تشعر المراة مع وجودها بالرغبة في الابداع أو حتى محاولة التقدم في هذا العمل ، وهي كذلك لا تشعر بمتعة ما في تاديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق ربة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ، ولكن العزلة التي تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها او التقدير ممن حولها .

وعلى الرغم من بذل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلي وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة ربة البيت ولتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لذاتها الا ان ذلك كله لا يؤدى الى تحررها .

ان محاولة الغاء دور ربة البيت امر يحتاج الى مناقشة لتنتهي برفضه او قبوله .

فهناك بعض الآراء التي تتفق على ان تهيئة الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير اجر معين يمنح نظيره قد يؤدى الى اقبال المراة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الاراء يرون ذلك اولى الخطوات لتحسين وضع المراة الاجتماعي .

وهناك آراء اخرى ترى ان الظروف كلها مهياة لاسعاد المراة في حدود الامكان وتتصدى للاراء السابقة التي ترى تقرير اجر يمنح لربة البيت ، وانما تعارض تلك الاراء نظرا لانها سوف تضيف ظلما جديدا للمراة ، فالاجور حينئذ تكون بمثابة منحة وليست اجرا ، فالاجر يقدم في هذه الحالة نظير قيام ربة البيت بتربية اطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من انواع الرعاية للطفولة والامومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية عند انجاب الاطفال . فهي وان قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للام .

ان سعادة المراة بالعمل المنزلي امر يحوطه الشك ، اذ ان التزامها بهذا العمل يفرض عليها ان تكون في وضع التابع في المجتمع ، والمجتمع كذلك ينكر اهمية العمل المنزلي لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حائلا دون اى مطالب تهدف المراة من ورائها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير اسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المراة اكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك اكثر قنطا ، وخاصة اولئك النساء اللاتي يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان اهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق اهميته بالنسبة للمراة ، فالدور الاهم بالنسبة للمراة هو دور الزوجة والام ، والاكثر من ذلك اهمية قبول المراة للوظائف التي تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المراة عليها ان ترفض الراى الذى يربطها بالعمل المنزلي وحده وهو الذى يرى ان المراة تعنى ربة البيت .

ولا شك ان الدعوة الى الغاء هذا الدور ــ دور ربة البيت ــ يتضمن الدعوة الى الغاء الاسرة ، فالاسرة رمز للعمل المنزلي ولا وجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يختص بالطريقة التي تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المراة فهي تتمثل في الغاء العائلة او الاسرة ، واساس ذلك ان الاعمال المنزلية تمثل نوعا من الاستعباد

للمراة ، كما ان هذه الاعمال لا تعدو ان تكون مجالا تعليميا تجريبيا لا تستفيد منه المراة.

وتعتبر الاسرة رمزا للعمل المنزلي ، حيث ترتكز هذه الاعمال اساسا على وجودها والنهوض بهذه الاعمال لا يخرج عن كونه عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمراة ، فالمراة تغرس في بناتها هذا الدور الثابت منذ الصغر ويتم ذلك من خلال توحد الام بابنتها على عكس علاقة الاب بالابن .

وهذه العلاقة تنشا قبل ميلاد الطفل ، فالطفل جزء من امه وتظل الانثى بعد الميلاد جزءا من الام .

وارتباط الطفل بالام على هذا النحو يؤدي الى اكتسابه كل مايريد ان يتعلمه من الام ، والاسرة ممثلة في ربة البيت تمثل موقعا تجريبيا يمكن للاطفال عن طريقه ممارسة الحب وتكرار السلوك الذي قد لا يكون منطقيا ، فالام في نظر الطفل هي الحاضر وهي المثل الاعلى للحب ، والهدية التي تقدمها الاسرة للمراة تتمثل في تهيئتها وتدريبها على النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فان القول بالغاء دور ربة البيت يعني بالضرورة الغاء الاسرة ، حيث ان ربة البيت هي الزوجة وهي الام ، ومهما حدث من تغيرات في العلاقة بين الرجل والمراة على مر السنين فلن يغير ذلك من دور المراة التقليدي الذي يتمثل في القيام بالعمل المنزلي .

وقد اوضحت نتائج البحوث ان الزوجة العاملة تقصر في دورها كربة بيت ، وان اي مكاسب تحصل عليها تكون على حساب هذا الدور .

وان ايديولوجية المجتمع هي التي تحدد دور الزوجين وبناء العائلة وهي غير قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استبعاد الاسرة او الغاؤها قولا لا فعلا ، وتصورا لا حقيقة .

والطريقة الثالثة التي تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المراة تتمثل في الغاء تقسيم العمل على اساس الجنس . الحقيقة ان كثيرا من الثقافات يؤكد شيوع هذا الذي تدعو الحاجة الى الغائه .

وان الدعوة الى الغاء دور ربة البيت يؤدي ضمنا الى الغاء الاسرة ، ولكن ذلك ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه الى ضرورة الغاء التمييز بين الجنسين .

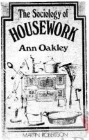
وهذه الطرائق الثلاث التي استشهدت بها باعتبارها السبيل لتحرير المراة قد واجهت الكبير من المعارضة ، فالغاء دور ربة البيت والاسرة وتقسيم العمل على اساس الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها الى واقع فعلي ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المراة الاقتصادي والسياسي والقانوني في المجتمع، هو امر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضي ان يغير الناس انفسهم اولا .

ولذا فالمراة يمكنها ان تتحرر من العمل المنزلي عن طريق :

١ ـ رفض اي محاولة لربطها بالعمل المنزلي وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ ـ محاولة الحصول على كل ما تشاء من امتيازات لقيامها بتربية الاطفال .وعليها الا تعمد الى تعليم بناتها كيفية القيام بدور ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك في نفوسهن منذ الصغر ، وفي الوقت ذاته يجب ان تربط الابناء بالعمل المنزلي دون ان تخص الاناث بهذا العمل وتقصره عليهن .

٣ ـ محاولة التصرف في العمل المنزلي وابتكار الاساليب التي تمكنها من انجاز هذا العمل في اقصر وقت ممكن ، وعلى المراة فوق ذلك ان تغير نفسها استعدادا لكسب معركة تحريرها .



سوسيولوجيا العمل المنزلي

ا . آن أوكلى *

عرض وتحليل الدكتورة سامية حسن الساعاتي

تأتى أهمية هذا الكتاب من انه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المرأة ، فهو دراسة تتحدى النظرة التقليدية الى العمل المنزلى التي تحاول دائما التقليل من شانه ، كما انها تتحدى اهمال السوسيولوجيين ، وبخاصة المتخصصين فى علم الاجتماع الأسرى وعلم اجتماع العمل ، للعمل المنزلى ، كموضوع علمى جاد .

فقد دأب الباحثون فى علم الاجتماع الاسرى على دراسة المرأة اما من خلال دورها الاسرى كزوجة وام ، او من خلال دورها كعاملة خارج المنزل ، لكن دورها كعاملة داخل المنزل بدون أجر لم يحظ بدراسة جادة أو منظمة .

ويتناول هذا الكتاب قضية هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدى من المرأة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديرة بالاهتمام مثل : نظرة النساء للعمل المنزلى ، ونظرتهن لانفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهن المختلفة نحو العمل المنزلى ، واتجاهاتهن نحو الاعمال المنزلية المختلفة من طهى وتنظيف .. الخ . ومدة العمل المنزلى الذى تقوم به المرأة محسوبا بالاسبوع . ومدى اهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد من أن العمل المنزلى يتم على وجه أكمل ، وكأسلوب على مكافأة الذات .

وقد حاولت الباحثة فى هذا الكتاب وضع تقييم يكشف عما اذا كانت النساء راضيات او

* Ann Oakley, The Sociology of House Work, Martin Robertson, 1974

غير راضيات عن العمل المنزلي، ومدى الاختلاف في درجات الرضا بينهن . كما يتناول الكتاب ايضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلي والرضا عنه، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمراة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربة البيت وزوجها في المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلي ، وواجبات الامومة .

وعماد هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة في سنة ١٩٧١ على اربعين زوجة من ربات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها الى فئتين مختلفتين من القراء ، الاولى تتالف من المتخصصين في علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بموقف ربة البيت اهتماما خاصا دون ان تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب في جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التي بنى عليها هذا الكتاب، كانت عينة انجليزية ، فان وضع الزوجة ربة المنزل فيها ، ينطبق في اساسياته على الزوجات في مجتمعات صناعية معاصرة اخرى .

فصول الكتاب :

يحتوى هذا الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الاول** وهو في راينا اهم الفصول على الاطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهي قضية التحيز الذكرى في علم الاجتماع . ولاياتي تقييمنا لهذا الفصل على انه اهم فصول الكتاب من اهمية موضوعه فقط ، بل لان هذا الموضوع هو الفكرة الاساسية التي تتكرر في كل فصول الكتاب ، بل وفي كتب المؤلفة الاخرى ولعل ذلك انعكاسا لاصداء موضوع التحيز ضد المراة لا في علم الاجتماع بخاصة ، بل وفي العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع الذى اصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفي هذا الفصل تعرض المؤلفة لوضع المراة في المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذى تصفه بانه معوق ومنتقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية في صالحها ، ومن صغر حجم الاسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التى زادت وتحسنت وانفتحت امام النساء ، خلال القرن الاخير ، الا انه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الادوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكل انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ،في شكل حركة تحرير المراة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو ان الموقف الذى نشهده الآن ليس نتاج المعطيات البيولوجية لادوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذى تفرضه وتنص عليه نظم المجتمع ومؤسساته المختلفة فقط ، وانما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء الى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة في المجتمع .

ان حقيقة وضع المراة كما ترى المؤلفة يكمن في انه يتشكل يوميا من هذه الاتجاهات . ان النساء يصبحن على الوجه الذى هن عليه ، تبعا للطريقة التى يتوقع منهن ان يكن عليها ، او التي يفكر الناس فيهن على اساسها .

وتأسيسا على ما تقدم فاننا لا نجد ان التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان في المجتمع الكبير فحسب ، بل ان هذا التمييز وتلك التفرقة ينسحبان ايضا على الميدان الاكاديمي ويتضح ذلك بجلاء في علم الاجتماع ، العلم الذى يدرس الواقع الاجتماعي ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المراة ، يعكس ، بل يطابق ذلك التمييز وتلك التفرقة الموجودين في المجتمع الكبير بحيث يمكن القول ان التحيز

ضد المراة فى علم الاجتماع انما يشكل الوجه الاخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها فى المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلفة فى هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين اساسيين ، وثيقى الصلة بالاخر : اولهما هو اهمال علم الاجتماع للعمل المنزلى كموضوع علمى جاد ، وثانيهما وهو الاكثر شمولا ويتركز فى التحيز ضد المراة فى علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المراة ، لانه علم موجه توجيها ذكريا (Male Oriented) وتعنى المؤلفة بذلك انه يمثل تركيزا على انشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متمايز من حيث الذكورة والانوثة . ان الوضع الاجتماعى للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعى للمراة ، من الناحيتين البنائية ، والايديولوجية على السواء . كما نجد ان النسق القيمى السائد فى المجتمعات الصناعية الحديثة يخلع على الادوار الذكرية اهمية وقدرا اعظم مما يفعله بالنسبة للادوار الانثوية ، وبالمثل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة ينعكسان على علم الاجتماع ، الذى ينحو الى تبنى قيم المجتمع الاكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التى تمثل مسلمة اساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجى ، يمكن ان تقلل كثيرا من التحيزات الظاهرة فى مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تاثيرا عميقا فى هذا التحيز المتاصل ضد الاناث فى علم الاجتماع .

ان وضع المراة كموضوع فى علم الاجتماع يعطينا انطباعا محرفا عن الواقع الاجتماعى الحقيقى لوضعها فى المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المراة واهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تتفق صورتها مع الصورة المحددة لها سلفا فى علم الاجتماع ، والموجهة توجيها ذكريا فى المحل الاول .

ويعد التوجيه الذكرى من وجهة نظر المؤلفة اهم المشكلات المسئولة عن اختفاء المراة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكرى المتجسد فى تحديد موضوعات علم الاجتماع انما يقلل من شان المراة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبيا ، ويجعلها دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فان التصنيف الحالى لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء فى وضعهن الحالى .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلى على سبيل المثال ، وهو عمل اساسى للمراة ، فسنجد ان اغفال هذا الموضوع من ميدانى علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل انما ينقل بوضوح انطباعا محرفا ومشوها عن موقف المراة الحقيقى . فليس هناك اهتمام بمدى اهمية العمل المنزلى للمراة ، لا من حيث مقدار الوقت الذى تنفقه فى الانشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتى العمل المنزلى بالنسبة للمراة الذى يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة اخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المراة فى علم الاجتماع ووجودها الاجتماعى الحقيقى ، كما يعد ايضا دليلا على فشل علم الاجتماع فى اخذ خبرات المراة وواقع حياتها فى الاعتبار . ويمكن ان يوحى ذلك باعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينه بحيث تمثل كلا المنظورين الذكرى والانثوى على السواء .

وتمضى المؤلفة الى الفصل الثانى من الكتاب لتحلل العمل المنزلى بوجه عام ، وتصف البحث الذى قامت به بوجه خاص .
وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، يتزايد فى السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث فى عالم العمل والمهن والوظائف ، فسيظل هناك دائما دور وظيفى انثوى برمته وهو دور ربة البيت .

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا ان هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية تقف عائقا امام الرجل ، وتمنعه من الدخول في رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلفة هذا الفصل بتعريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التعريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هى الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلى) عن معظم المهام المنزلية ، او عن الاشراف على الخادم المنزلى الذى يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متزوجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لاتكون ، وقد أفصح ذلك المسح الذى قام به «هنت» (Hunt) عن أن تسعة اعشار النساء من غير العاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة اعشار العاملات خارج منازلهن من ربات البيوت » (١) وعلى هذا لايكون دور ربة البيت دورا انثويا فقط ، بل انه يعد الدور الوظيفى الرئيسى للمرأة فى عصرنا الحالى ، لان مسئولية ادارة المنزل هى مسئولية مشتركة بين معظم النساء البالغات .

ذلك اذن هو التبرير الاساسى لدراسة العمل المنزلى ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة فى حياة معظم النساء اللائى يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التى تطلق عليها المسح الاستطلاعى الكشفى ، والسبب فى هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات فى هذا الموضوع الذى صادف اهمالا بالغا فى علم الاجتماع .

وتبدأ بتحديد اهداف دراستها التى تجملها فى ثلاثة اهداف رئيسية ، اولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلى ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثانى يتبلور فى فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلى فى علاقته بعدد من المتغيرات التى تشمل الطبقة الاجتماعية، والتربية والتعليم، وتقسيم العمل فى الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعى .. الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر فى اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

---

(١) تتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلى :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بشئون المنزل بين الزوجين فى الاسرة المصرية ان الزوجة العاملة فى معظم الحالات تقوم بعمل كل شيء يتعلق ببيتها بمجرد عودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يذهب اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلى فى بيتها . والدليل من استعراضنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، ومدى لمسنا لاضطلاع الزوجة بالنصيب الاكبر فى الغالبية العظمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا على الرغم من وجود الخادمة فى الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن الساعاتى ، الدور الوظيفى للزوجين فى الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية فى الريف والحضر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٤١ .

« ويتفق هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » عند تقصيها النشاط المنزلى لعينة تبلغ الواحد والسبعين من الامهات العاملات ومدى اسهامهن فى اعمال البيت . اذ تبين لها ان غالبية الامهات العاملات ونسبتهن ٦٤٫٨٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال فى البيت بعد عودتهن من العمل ، وان القلة من هؤلاء الامهات العاملات بنسبة ١٢٫٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ٢٢٫٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراك فى بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الحضانة والمجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

بين ربات البيوت فيما يختص باتجاهاتهن نحو العمل المنزلى ، وموقف العمل المنزلى ذاته . .

وقد تكونت العينة من اربعين من ربات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللائي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبار ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنين من الاطباء العموميين . وقد تم استبار **افراد العينة فى أوائل سنة ١٩٧١ ، وكان عماد** البحث استبارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين فى المتوسط . وعلى اساس من اجابات الاستبارات قننت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلى بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر اخرى داخل موقف العمل المنزلى ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلى والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجى بأجر ، كما كان هناك تقييم لدرجة توحد المرأة مع دور ربة البيت ، واهمية تحديد معايير للعمل المنزلى وروتينيته .

وترى الباحثة ان النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى انه ليس هناك من سبب يدعونا الى القول بأن هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على ان تلك التسجيلات لا تعكس الواقع .

وتمضى الباحثة فى وصف دراستها ، فتقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن اربعين كن من الطبقة العاملة ، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

اما الفصل الثالث فيعطينا فكرة واضحة عن صور العمل المنزلى وتبدؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلى فى التفكير الشعبى المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد فى عمل محقر ، كريه ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . اما الفكرة الثانية فترى ان العمل المنزلى يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على انه عمل بل على انه صناعة منزلية يشكل فيها المنزل وزارة للمالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبارا ، أن هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلى كعمل قد بدا يبزغ . فالنساء فى عينة البحث يخبرن العمل المنزلى ، ويعرفنه على انه عمل مماثل لذلك الذى يتطلبه اى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا وثيقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لمظاهر العمل المنزلى التي اطلق عليها انها مشبعة او غير مشبعة نظائر فى عالم المصنع ، والمكتب ، ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انعكاساتهن نحو العمل المنزلى بخبرتهن فى العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلى وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات فى مظاهر كثيرة اهمها الاستقلال والذاتية ، ووجود الاطفال ، ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصدت عينة الزوجات بالذاتية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلى وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبرات فى اجابتهن عن هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصفن شعورهن ازاء العمل المنزلى . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

مقارنة عقدتها النساء بين العمل المنزلي والعمل الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك. انك تستطيعين أن تحددي ما تريدين أن تفعلي وما لا تريدين ، انه شيء مختلف عن الوجود في عمل وظيفي ، حيث يدق احدهم الجرس ، فتضطرين الى الصعود او الهبوط لتلبية طلبه ، او حيث تجدين نفسك مضطرة لانجاز هذا العمل او ذاك في غضون نصف ساعة » .

وفي اجابة اخرى نجد تعبيرا آخر عن مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت ، هو انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب الى العمل » .

وفي الحقيقة ان الذاتية والإستقلال فيما يتعلق بربة البيت هي أمر نظري أكثر منه واقعي متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها واجبا ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلي وتتأكد من ان كل شيء في موضعه . ومسئولية العمل المنزلي هي مسئولية من جانب واحد فقط ، والفشل في تحملها ، قد يكون له نتائج بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه يضيف الى الضغوط السيكلوجية لاداء العمل المنزلي اكثر من كونه يخفف منها . وتوضح أحدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان اسوأ شيء يتعلق بالعمل المنزلي هو انك تضطرين لادائه لمجرد انك في المنزل . وعلى الرغم من انى املك حرية الاختيار في الا اقوم به ، فاني اشعر انى لا استطيع ، لانه يجب ان اقوم به » .

وتصوره اخرى بقولها :

« ليس هناك أحد يمسك لي سوطا اذا لم اقم بالعمل المنزلي ولكني اعرف ، انني اذا لم افعل ، فغدا سيكون على أن اقوم بضعف العمل ، ففي الحقيقة انني اقوم بامساك السوط لنفسي » .

ان مسالة حرية العمل المنزلي يمكن اختزالها في انها حرية من ، وليست حرية لفعل. انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست حرية لها لتختار ما تفعله من انشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوىء العمل المنزلي تبلورت الاجابات بالترتيب في العمل المنزلي نفسه ، والرتابة ، والتكرار والسأم ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعزلة والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلي والتقيد الشديد بالمنزل .

وعندما طلب من الزوجات ان يقارن عملهن المنزلي ، بعمل ازواجهن ، كانت معظم الاجابات تشير الى انهن يعتقدن انهن يعملن اكثر من ازواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة منهن الى أن الزوج يعمل اكثر ، او ان هذه المسالة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع العمل من جهة اخرى . وقد صورت احدى الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك ان ربات البيوت يعملن اكثر . ان زوجي يعود دائما من عمله ، ليقول لي : لقد جلسنا اليوم وتحدثنا في كيت وكيت . أو لقد كان يوما مسليا فقد ضحكنا ، وتسامرنا حول كذا من الموضوعات . اما أنا فلا افعل ذلك ، انى لا اجلس لحظة » .

وكثيرا ما يوصف العمل المنزلي بأنه « عمل لا ينتهى » ، ويذهب البعض الى انه عمل اكثر ارهاقا من الناحية الجسمية ، من اى عمل آخر مأجور . وتذهب بعض السيدات الى القول بانه يأخذ جهدا عاطفيا اكثر من اى عمل آخر بالاضافة الى الجهد الفيزيقى . وتشير بعض السيدات الى طبيعة الاعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانظار ، الى الاحباط العاطفى الذى ينشأ عن كون احساس ربة البيت بأنها مشدودة الى طاحونة ، او ساقية ، يتطلب منها ان تؤدى الفعل نفسه مرات ومرات .

والزوجات يوضحهن العمل المنزلى ضمن الاعمال اليدوية ، يجعلنه بذلك فى مرتبه عالية من مراتب الاعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلى ضرورى من جانب الزوجات ، ازاء الاعمال السائد لهذا العمل ، وازاء النظر الى ربة البيت على انها مدبرة منزل تعمل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن ازاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيوت فى اية صحيفة او اوراق رسمية . اجابت اكثر من نصف افراد العينة بأنهن يستشعرن حرجا ، ومشاعر بالاقلية نشأت من ان العمل المنزلى عمل اقل من غيره من الاعمال ، وهن يعبرن عن ذلك بكتابتهن فى تلك الاوراق : « مجرد ربة بيت » . ان هذه الكلمة مجرد ربة بيت او ربة بيت فقط تعنى الكثير ، انها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شان هذا العمل مقارنا بالاعمال الاخرى ، كما ان هذا يتضمن ايضا تقليلا من شان ادوارها كزوجة وام . وتصور احدى افراد عينة البحث هذه المشاعر اصدق تصوير حين تقول : « انى اكره كلمة ربة بيت ، وعندما يسالوننى من انت ؟ وماذا تعملين ؟ واجيب بانى ام ، ولى اولاد ، واننى زوجة ، فانهم يهزون رؤوسهم باستخفاف قائلين : اوه ، مجرد ربة بيت التى العجب ... مجرد ربة بيت ! اشق مهنة فى العالم ... ينظر اليها بهذه الطريقة ؟! » .

ويتبين مما سبق ان مسالة التصنيف المهنى او الوظيفى مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة الذات ، لانها تعكس كيفية رؤية الزوجات لانفسهن كربات بيوت ، ولكن مهما كان مستوى توحد الزوجات الذاتي مع دور ربة البيت ، فيكفى ان الفكرة السائدة عنه فى ثقافة المجتمع هو انه عمل تافه وضيع ، منخفض المكانة بالنسبة للاعمال الاخرى ، وهذا ما يخلع عليه اوصافا معينة مثل العمل الممل ، او العمل التافه ، وما يخلع على ربة البيت اوصافا مثل المللة ، والغبية ... الخ من الاوصاف السلبية وتصور احد الزوجات ذلك بقولها :

« انى احرج من كتابة ربة بيت على اية اوراق رسمية ، انى افضل ان اكتب سكرتيرة مثلا او اية وظيفة اخرى ، فان لها انعكاسا احسن ، ان معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو روتينيا مملا . انك لا تتوقع حينئذ الا التنظيف ، والاتربة ، والطبخ » .

تنتقل الباحثة بعد . ذلك الى نقطة اخرى جديرة بالاهتمام وهى مسالة الخلط بين الانشطة المختلفة التي يتضمنها العمل المنزلى ، ومدى الحاجة الى تحديدها ، وتصنيفها . ان العمل المنزلى فى رايها هو مجموعة من الاعمال غير المتجانسة التى تتطلب مهارات متنوعة ، وانواعا مختلفة من النشاط ، فمسح الارضية يختلف عن الذهاب لشراء بعض اللحوم

والفاكهة ، وطهي وجبة يختلف عن غسل الملابس ... الخ . واطلاقنا الاسم نفسه على كل هذه الاعمال امر يتضمن انكارنا لوجود اختلافات وفروق بينها . ففي الحقيقة توجد بين هذه الاعمال ، اعمال احب من الاخرى ، واعمال اقل رتابة وبعثا على الملل ، واخرى اكثر خلقا وايجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر ان كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت كالطهي ، وغسل الملابس ، وكيها ، وتنظيف المنزل يمكن ان يشكل دورا مهنيا ماجورا .

ومن تحليل المؤلفة للاعمال المنزلية المختلفة وجدت ان اهمها هي : التنظيف والتسوق، والطهي ، وغسل الاطباق، وغسيل الملابس ، والكي . وقد كانت هناك اسئلة عن احب هذه الاعمال الى قلب ربات البيوت ومن ابغضها اليهن ، كشفت الاجابات عن ان ابغض تلك الاعمال ، كان كي الملابس لانه عمل مجهد رتيب ، يتلوه العمل الخاص بغسيل الاطباق لما فيه من قذارة ، وتكرار . اما تنظيف المنزل فاتى ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات البيوت له ، ذلك لانه عمل متكرر لا ينتهي ، كما انه على العكس من عملية التسوق ، عمل يؤدى في عزلة وصمت ، فعندما تعمل المكنسة الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع الاخرين ، بعكس ما يحدث لعملية الطبخ والكي ، فيمكن لربة البيت تأديتهما وهي تتحدث الى صديقة مثلا . وتاتي بعد ذلك في الترتيب الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ، والطهي . اما بالنسبة لغسيل الملابس فهو عمل اقل بغضا الى رباتالبيوتمن غسيل الاطباق، رغم ان كلا العملين يتطلب ازالة القاذورات من الاشياء .

ويعزى ذلكالى ان هنالكارتباطا شخصيا بالملابس . فالملابس التي تغسلها ربة البيت تنتمي الى زوجها او احد ابنائها ، او اليها ذاتها . يضاف الى ذلك ان وسائل الاعلام تركز على عملية الغسيل وتغلفها بهالة جميلة في اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية الى ربة المنزل بان نقاء غسيلها وبياضه لانه هو احد واجباتها الاساسية .

وجدير بالذكر اناستخدام الالة بالنسبة لعمليتي غسيل الاطباق وغسيل الملابس ، يقلب اتجاه ربة البيت اليهما من كره الى تقبل ، وقد لوحظ ذلك بالنسبة الى الكثير من افراد العينة (٢) .

اما التسوق،كدور من ادوار ربة البيت، فامره مختلف ، ذلك انه دور اكثر اجتماعية ، فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ، لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات ان التسوق من الاعمال المحببة لانه يتضمن خروجا من المنزل ، ومقابلة للناس ونوعا من التغيير من جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات انهن لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ، لكنهن يفعلن ذلك لمجرد الخروج من المنزل ، او لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة.ورغم هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكي لربة

---

(٢) تتفق هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبته :

« ان الزوجات انفسهن اصبحن يتضايقن من اداء الاعمال الخاصة بالغسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لانها تتضمن قدرا كبيرا من (الرمطة) . ولكنهن يقبلن عليها للغاسيلات الية . »

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر السابق ،ص ٥٤٣ .

البيت فان هناك سلبيات لهذا الدور تتبلور فى المصاعب الفيزيقية . فاصطحاب اطفال اثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسمانيا وعقليا ، فان الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل او اكثر اثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعا ، ويقلل من كفاءتها كمشترية كما ان الانتظار الطويل فى بعض المجمعات الاستهلاكية ، او المحلات امر يبعث على الملل . ويلاحظ ان هناك فرقا بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئى ، ويحدث يوميا تقريبا لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلى يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة اسبوعيا او كل اسبوعين . وهذا النوع الاخير من التسوق هو الاكثر كراهية من جانب ربات البيوت لانه يتطلب جهدا مضاعفا فى شرائه وتوصيله الى المنزل ، ولا شك ان وجود سيارة ، وهو امر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم فى التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

اما العمل السادس من الاعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهى ، والذى اعتبرته جميع ربات البيوت اللائى تضمنتهن العينة اكثر الانشطة المنزلية قربا الى قلوبهن لانه يمثل فى رأيهن فنا خلاقا،واستعراضا للقدرة والمهارة. ولا شك ان نظرة ربات البيوت للطهى على انه عمل فنى خلاق ، يمثل انعكاسا للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتى تؤكدها وسائل الاعلام والاعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التى تخصص كتبا بأكملها لهذا الفن . والملاحظ ان معظم التوجيهات الثقافية فى هذا المجال والتى تتناول الطهى بوصفه فنا ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت الى كيفية صنع اكثر الوجبات غنى بالمواد الغذائية المفيدة فى اقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة لنقل الطهى من كونه عملا الى كونه تسلية وقضاء وقت،ولعكس تلك المحاولة مثلا واضحا على الانكار الاجتماعى لاعتبار العمل المنزلي عملا بالمعنى الصحيح . ولكن ايجابيات العمل المنزلى الخاص بالطهى تفسده سلبيات منها ان الازواج يطلبون الطعام فى اوقات محددة ، وان وقت طهى الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لغسل الملابس او تغيير الاسرة ، او اطعام الوليد او الصغير . ومن السلبيات الاساسية لعملية الطهى تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهى ابدا وهى التفكير الدائم فى السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ان نلخص فى آخر هذا الفصل الايجابيات المتصلة بالاعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب اهميتها فى نظر الزوجات، وهى : التمكن من محادثة الآخرين اثناء العمل ، واعتدال المزاج اثناء اداء العمل المنزلى ووجود وقت كاف لادائه ، وان تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الادوات الحديثة ، ووجود مقدار كاف من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . اما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلى ، فتمركزت حول الملل والرتابة والتكرار،وعدم توفر الادوات المناسبة لاداء الاعمال المنزلية ، وانحراف المزاج اثناء العمل ، واعتراض الاطفال طريق ربة البيت اثناء ادائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافى لاداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطرار الدائم الى التفكير فى العمل المنزلى وترتيباته .

مما سبق يتضح لنا يتضح لنا اذن صدق ما ذهبت اليه المؤلفة من ان رباتالبيوتينظرن الى العمل المنزلى على انه عمل يماثل غيره من انواع الاعمال الاخرى . ومن تحليل ملاحظاتهن عن احب مظاهر العمل المنزلى ، وعن ابغضها بالنسبة اليهن تبين ان التحرر من الرقابة كان

على راس الصفات الايجابية ، اما العمل المنزلى ذاته فكان فى مقدمة السلبيات التى ذكرناها . وقد عرفن العمل المنزلى **بانه عمل « حقيقى وشاق »** ، وهى صفات اكدتها ليجابهن بها تلك الافكار النمطية الخاطئة السائدة فى ثقافتهن ، والتى تخلع على العمل المنزلى مكانة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث ايضا انه بينما تتناول تلك الافكار النمطية الخاطئة الشائعة فى الثقافة ، العمل المنزلى كنشاط منفرد ، فان ربات البيوت ينظرن اليه على انه عمل رئيسى يتضمن اعمالا وانشطة فرعية منفصلة. **وظهر من البحث ان مشاعر الرضا او عدم الرضا من مختلف الاعمال المنزلية تتاثر كثيرا بالظروف** التى تتم فيها هذه الاعمال والتى تتعلق بمدى توفر الاجهزة والادوات الميسرة والمخففة .

وفى نهاية هذا الفصل يمكن القول بان الصورة التى رسمتها المؤلفة للعمل المنزلى ولربات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التى اسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعنهن فى الثقافة ، والتى تذهب الى ان ربات البيوت يشكلن طبقة مرفهة ، وانهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

اما الفصل الرابع ، فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والاعمال المنزلية ومدى الرضا او عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلى فى هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم فى علم الاجتماع الصناعى ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الايجابية او السلبية التى تتناول بها ربات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على اساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدى ، وقد بررت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدى بانه اكثر ملائمة فى المقارنة بين بحثها وبين بحوث اخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدى اساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديرة بالاهتمام فى هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية فى النوع وانما فى الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربات البيوت ، اللائى كان لهن عمل خارجى قبل الزواج، فى تفضيل العمل الوظيفى على العمل المنزلى على اساس أن العمل المنزلى يفتقد المكافاة الاقتصادية ، ويتميز بالانعزال ونقص الاعتراف الاجتماعى بالمسئوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن اهم النتائج التى توصلت اليها الباحثة ، هو انه ليست هناك فروق فى الطبقة الاجتماعية بين الراضيات وغير الراضيات عن العمل المنزلى ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستبرات فى عينة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلى سواء بين ربات البيوت من الطبقة العاملة او من الطبقة الوسطى . اما من حيث اتجاه افراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربات البيوت من الطبقة العاملة بعامة اكثر ايجابية من مثيله بين ربات البيوت من الطبقة الوسطى. ومن هذا يتبدى ان ربات البيوت من الطبقة الوسطى اكثر ميلا لادراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلاتهن من الطبقة العاملة. ولذلك فان الشكوى من تلك العبارة الشائعة « مجرد ربة بيت » ، هى اكثر ترددا بينهن منها بين نظيراتهن من الطبقة العاملة .

وقد يبدو فى النتائج السابقة شيئا من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول اذا ما ادركنا ان المؤلفة تفرق بين المشاعر نحو

العمل المنزلي ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما احست المرأة بايجابية وتقبل لدور ربة البيت ، ولكنها في الوقت نفسه تكره العمل المنزلي ، كما ان عكس ذلك النموذج يمكن تواجده ايضا ؛ فالمشاعر تجاه العمل المنزلي يتدخل فيها التعود على اداء هذه الاعمال والخبرة بها ، اما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسالة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التي تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الانثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المرأة نحو دور ربة البيت في الطبقة العاملة عنها في الطبقة المتوسطة ، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلي .

وفي الفصل الخامس تناقش المؤلفة ظروف العمل المنزلي ، وتتناول فيه الفترات التي يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التي يتم فيها . وقد تبين منه ان متوسط عدد ساعات العمل المنزلي لربات البيوت في هذا البحث كان سبعاً وسبعين ساعة اسبوعيا ، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الاسبوعية للعامل الصناعي والذى يقدر باربعين ساعة في المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الاجهزة والادوات المناسبة في العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلي لكنه لايحوله من عمل بغيض الى عمل سار محبوب . كما ظهر ان بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل ايضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

وفي الفصل السادس تلقى المؤلفة الضوء على المعايير المتعلقة بالعمل المنزلي والتي على اساسها تتبع ربة البيت اسلوبا معينا او روتينا معينا في ادائه . وقد كانت هناك اختلافات عديدة بين ربات البيوت في عينة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهن تضع لنفسها معايير صارمة في اداء العمل المنزلي ، حتى انه يمكن تصنيفها بالولوجيا ضمن الحوازيات ، بينما لا تتبع الاخريات اسلوبا او نظاما معينا في ادائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف هامة ، **اولها** انها وسيلة لتوحيد اعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلي في بناء وظيفي متماسك ، **وثانيها** انها دليل على ان العمل المنزلي عمل له معاييره وروتينه مثل اى عمل آخر ، وهذا في ذاته دفاع ضد من يقول ان المرأة في المنزل لا تفعل شيء ، **وثالثها** ان في تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لمجال العمل المنزلي ، وبخاصة امام ربة البيت المتفرغة التي لا تعمل خارج منزلها ، **وآخرها** ان ربة البيت بذلك التحديد انما تضع ميكانيزما تستطيع ان تكافىء نفسها عن طريقه في مجال العمل المنزلي . وتأخذ المكافأة السيكلوجية التي تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير اداء العمل المنزلي ، وروتينه المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من انها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كاملة . وتلعب وسائل الاعلام ايضا دورا في تحديد معايير العمل المنزلي ، كما تسهم في ذلك الى حد كبير ، التنشئة الاجتماعية المنزلية السابقة لربة البيت واعدادها للعمل المنزلي .

وتخصص المؤلفة الفصل السابع للعلاقة بين التنشئة الاجتماعية لربة البيت وبين صورتها عن ذاتها. وفيه تبين ان العمل المنزلي ، مثله في ذلك مثل اى عمل ، لابد أن تسبقه فترة تدريب مهني او تلمذة وظيفية . ولكن الاعداد الانثوى للدور المنزلي ، يختلف عن الاعمال الاخرى في انه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر اليه على انه تلمذة وظيفية .

والسبب الرئيسي في ذلك هو ان اعداد المراة لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها الانثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث عن ان جميع افراد العينة قد قررن انهن على وعي بوجود صلة وثيقة بين طرقهن في اداء العمل المنزلي وبين الطرائق التي كانت امهاتهن يستخدمنها لأداء العمل نفسه . وفي هذا تقول احدى افراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التي كانت تتبعها امي فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت تفعل كل ما ينبغي عمله ، ولم يكن هناك من يستطيع ان يتجول بعينيه في المنزل ليقول ان هذا العمل او ذاك ينقصه شيء .. انني دائما احاول ان اتمثل بها . . . »

ومن النتائج الهامة في هذا الصدد ، ان هناك فروقا طبقية بين ربات البيوت فيما يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل لدى اللائي ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى الى ذكر احد دوري الزوجة ، والأم او كليهما، دون الاشارة الى دور ربة البيت في تصورهن لذاتهن . كما وجد ميل لديهن ايضا الى رؤية انفسهن من خلال ادوار اخرى غير منزلية ، كالأدوار الدينية او السياسية . . . الخ . اما ربات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن الى اختصار دوري الزوجة والأم تحت كلمة « ربة بيت » ، وذلك في وصفهن لذواتهن . وفيما يلي اجابة احدى ربات البيوت من الطبقة الوسطى على اختبار العشرجمل ، الذي يكشف عن تصور الذات . .

« انني متقلبة ــ انني اعمل بجد ــ انني اتكلم كثيرا ــ انني سعيدة معظم الوقت ــ انني امرأة راضية ــ انني احتاج وجود الآخرين طوال الوقت ــ انني اعشق الخروج ــ انني مسيطرة ــ انني حالمة ــ انني قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فاننا نسوق اجابة اخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة العاملة تكشف عن تصورها لذاتها :

« انني ربة بيت جيدة ــ انني اجيد معاملة ابنائي ــ انني اجيد العمل المنزلي ــ انني اجيد معاملة زوجي ــ انني اجيد الغسيل ــ انني اشعر بالسأم احيانا ــ انني اشعر بالغضب احيانا ــ انني شديدة السعادة بعملي ــ انني سعيدة باولادي ــ نادرا ما اكون عصبية . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة اخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر وتؤيدها ، وهي ان صورة المراة من الطبقة العاملة عن نفسها يتضح فيها بشدة توحدها بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلي، بينما تظهر قدرة المراة من الطبقة الوسطى على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور الشخصية وسماتها .

وفي الفصل الثامن تبحث المؤلفة موضوع الزواج ، وتقسيم العمل بين الزوجين من وجهة نظر بعض المتخصصين في علم الاجتماع الأسري ، كما تتعرض المؤلفة في هذا الفصل الى وصف تقسيم العمل المنزلي بين الزوجين وتحليله كما تبحث معتقدات ربات البيوت من افراد العينة حول الادوار الذكرية والانثوية .

وقد اجريت الاستبارات مع الزوجات فقط ، ولم تشمل الازواج ، وقد طلب منهن تقييم مدى اشتراك ازواجهن معهن في العمل

المنزلي وفي رعاية الابناء على السواء بثلاثة محكات تتراوح بين عال، ومتوسط ، ومنخفض، وقد افصحت اجابات الاستبارات عن ثلاث نتائج هامة :

١ – ان قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الازواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال في المشاركة في العمل المنزلي بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته في المشاركة في رعاية الاطفال .

٢ – اختلفت نماذج مشاركة الازواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة في العينة ، اكثر انخفاضا من اشتراك الازواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلي ورعاية الاطفال .

٣ – كان هنالك ميل اكثر من قبل الازواج للمشاركة في رعاية الاطفال منه في العمل المنزلي .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الاطفال ننتقي هذه الصورة لزوج يعمل في تجارة المعلبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل ان ترزق بطفلها :

« انني اساعده في عمله ، فاطبع له اوراقه ، واضيف بعض فقرات اذا لزم الامر . كما انه يساعدني في عملي ايضا . انه طاه ممتاز ، وهو لا يمانع في ان يأتي في نهاية اليوم ليطهي وجبة . وفي الاسبوع الماضي مثلا قام بطهي ثلاث وجبات . واذا حدث ان كنت اقوم بتنظيف حجرة بالمكنسة الكهربائية واقبل هو في هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الاخرى ، كما انه ينظف النوافذ بانتظام ، ويقوم بتجفيف الاطباق ، وهو يعينني على الانتهاء من عمل المنزل لانه يحب ان نجلس معا سويا بعد الظهر ، وهو يكوي ملابسه ايضا . وعندما نكون في المنزل معا فانه يشاركني في رعاية الطفل ، فهو يحممه في المساء ويغير له لفائفه ، **وفي يوم العطلة يصحو له مبكرا** في الصباح كي يعطيني الفرصة لانام بضعة ساعات . »

وهذه صورة اخرى لزوج حصل على تقدير منخفض في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الاطفال ، تقول زوجته :

« انه لايساعدني ابدا في الاعمال المنزلية، ولا في شراء لوازم المنزل ، ولا في الطهي ، انه يقول دائما : انني اعمل طوال اليوم ، وعندما اعود الى المنزل اكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك في رعاية ابنائه ابدا . انه يحب الاطفال ، ولكنه لا يرعاهم . لقد كان على أن اؤدي واجب العزاء منذ يومين ، ولكنه لم يدعني اذهب لانه قال لي : انا غير مستعد لان ارعى الاطفال الى حين عودتك . لذلك فانه اذا كان على ان اذهب لاى مكان لقضاء احد شئوني فلابد ان تكون « ماري » اكبر بناتي بالمنزل . انني اقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع ابنائه لحين عودتي ، لا لانه يكره الاطفال ، بل لانه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه عن والده ودائما ما يردد كلمته المأثورة : انني لا يمكن ان اقبل ان تدلني امرأة على ما ينبغي فعله . »

اما من حيث تحليل معتقدات ربات البيوت التي تدور حول الادوار الذكرية والادوار الانثوية فقد ثبت من البحث ان معظمهن يذهبن الى ان مكان الرجل ليس في

البيت ، حتى وان كن يحبذن مشاركة الرجل لهن في الاعمال المنزلية مشاركة اكثر . وبالمثل فان من كانت تريد منهن ان تسهم بقدر اقل في العمل المنزلي فانها كانت تجابه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة عن المعيار القائل بان المرأة تنتمي الى مملكة العمل المنزلي ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث ايضا انه خلال دورة الزواج تكون هناك فترات تتسم بالمشاركة اكثر من غيرها . فحين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجة مشاركة الأزواج لهن في الاعمال المنزلية ، وفي رعاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث اخرى كبحث «هوفمان» Hoffman الشهير عن النساء العاملات وتأثير عملهن على الاسرة ، **ولكن ذلك لا يعني ان آراء الزوجين** متحررة او منادية بالمساواة ذلك لانه عندما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج في مساعدتها تقل ، ويعكس تقسيم العمل بينهما عندئذ نموذجا تقليديا واضحا. ويدل ذلك على ان معتقدات الزوجين الاصيلة عن الادوار الذكرية والأنثوية لم تتغير .

وتعالج الكاتبة في الفصل التاسع والأخير تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتباط بالعمل المنزلي . فمعظم ربات البيوت من الامهات ، وكل الامهات ربات بيوت . وقد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة، ان الاطفال يؤثرون في مدى الاستمتاع بالعمل المنزلي، لانهم يجعلون ساعات العمل الاسبوعية اطول ، كما انهم كثيرا ما يظهرون كعوامل محبطة لربة البيت كعاملة منزلية . فدائما ما يقطعون عليها عملها ، ودائما ما تجد نفسها وسط اعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية ابنائها في الوقت نفسه . ويزيد رضاء ربة البيت عن عملها المنزلي كلما ساعدها زوجها في ان يحمل عنها بعض العبء في تربية الاطفال لانه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن اداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

وتلقي الكاتبة الضوء على دوري الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة عن الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ،ولاينجم هذا التناقض فقط من ان الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا من حاجتهم لأن تطعمهم الأم ، او تلعب معهم ، اثناء اعدادها الطعام او تنظيفها للحجرات ، بل أن هناك تناقضا اساسيا يكمن في طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فتربية الاطفال عمل منتج ومثمر Productive ، بينمالاينطبق ذلك على العمل المنزلي . **فالعمل المنزلي عمل** له اهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينظف اليوم ، وتعاد نظافته في الغد ، وهكذا لمدة سنوات قد تربو على الثلاثين أو الاربعين . اما الامومة فان لها هدفا وحيدا بعيد المدى ، فالأم تربي الابناء حتى يعتمدوا على انفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان احد المحكات الاساسية في اختيار العينة ان يكون لدى كل امرأة طفل على الأقل في سن ما قبل المدرسة .

وتنظر الكثير من الزوجات الى دورهن كربات بيوت ، ومربيات أطفال على انهما وجهان لعملة واحدة ، وغالبا ما يعتبرن تربية الطفل ، وتنظيف ملابسه ، وترتيبها ، جزءا من العمل المنزلي ، كما أن المعايير التي يضعنها لأنفسهن والمتعلقة بالعمل المنزلي ، غالبا ما تنسحب على تربيتهن لأطفالهن ، واهمها

معايير النظافة والترتيب . وتعد هذه المماثلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة فى النظر الى المراة ، والتى تذهب الى ان دور ربة البيت يشمل ادوار المراة ، والزوجة ، والأم ونادرا ما تفرق بين هذه الادوار ، او تذكرها منفصلة .

وتنتهى الباحثة فى هذا الفصل الى نتائج عامة استقتها من بيانات بحثها ، وهى ان الام المعاصرة تؤدى دورها فى سياق اجتماعى لايبعث على الرضا . ومنشا عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسئولية المستمرة ؛ كما وجدت ان الام كعاملة منزلية تواجه صراعا بين المطالب المختلفة للعمل المنزلى بحيث يعد الطفل احيانا وسط خضم هذه المطالب عائقا فى سبيل الرضا عن العمل المنزلى ، اما بالنسبة للطفل فيعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل **المنزلى شيئا محبطا له وللام** . وعلى الرغم من ان الرجل يحاول احيانا ان يعالج تلك المشكلة بالتدخل فى رعاية الاطفال ، فان تدخله يكون غالبا محدودا بانشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الاطفال للنزهة او وضعهم فى الفراش ، لكنه يحجم عن الاشتراك فى انشطة اخرى لها مظاهر اكثر روتينية ، واقل متعة فى تربية الاطفال ورعايتهم . وهذا التوسع فى دور الاب يعطى الأم الفرصة لاداء **بعض الاعمال المنزلية ، وترتيبا على ذلك** فانه يعطيها مزيدا من الاحساس بالرضا عن العمل المنزلى .

وفى الخاتمة تركز المؤلفة على تلخيص اهم نتائج بحثها . وتكرس الجزء الاخير منها لمناقشة مسالة مركز ربة البيت فى المجتمع بعامة . وتطرح عدة اسئلة اهمها : ما هو مدى وعى ربات البيوت ــ او مدى الوعى الذى ينبغى ان يكن عليه ــ بموقفهن كنساء ، وهل ينظرن الى انفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المراة صدى بينهن ؟ والى اى مدى نجحت حركة التحرير هذه فى توصيل ايديولوجيتها وافكارها اليهن ؟ وما هى انسب الوسائل ، وانجع الطرق لتحرير ربة البيت ؟ .

وتجيب الباحثة عن هذه الاسئلة اجابة مركزة فتقول : ان انتماء معظم النساء للادوار التقليدية لربة البيت والزوجة والأم ، لايمكن ان يعالج فقط بالنظر لمواقعهن من بناء اجتماعى واقتصادى معين ، بل يجب ان تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التى تستطيع بها النساء ان يتوحدن مع تهرهن . بمعنى آخر ان الابنية والنظم التى تضطهد المراة ، لا يمكن ان تتغير ما لم يوجد وعى مسبق لدى المراة لاهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المراة .

•••

ثانيا ــ تقييم ونقد :

نجحت المؤلفة فى ايضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلى ، وفى تحليلها له كعمل يماثل غيره من الاعمال ، كما انها اظهرت زيف تلك الاسطورة السائدة فى الثقافة الانجليزية ، وفى ثقافات اخرى كثيرة ، والخاصة بسلبية العمل المنزلى ، وسهولته ، وطبيعيته بالنسبة للمراة والتى تتضح من اسئلة توجه الى النساء فى عالمنا المعاصر مثل : هل ستعملين ؟ ام ستبقين فى المنزل ؟ وكان البقاء فى المنزل لا يتضمن عملا . (٣)

(٣) هناك عبارات تشير الى ذلك فى الثقافات المختلفة ، ففى الثقافة الاوروبية تجيب المراة اذا سئلت عن هويتها (مجرد ربة بيت Just a House wife) وفى الثقافة العربية تجيب (مجرد ست بيت) وتشير عبارات مصرية مثل (فلانة مش بتشتغل ، دى قاعدة فى البيت .. الخ) الى ان البقاء فى المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وعبارة « فلانة بتشتغل وجوزها قعدها فى البيت » تشير ايضا الى ان البقاء فى البيت راحة ، بعكس العمل الذى لا يكون الا خارجه .

وكان تعمق المؤلفة فى تحليل صور ربات البيوت عن انفسهن ، وعن اتجاهاتهن نحو العمل المنزلى وما يتضمنه من اعمال فرعية مختلفة ، ومدى شعورهن بالرضا او عدم الرضا عن عملهن ، ونفاذها الى طبيعة العمل المنزلى نفسه ، بما يستغرقه من وقت وما يتفرع اليه من اعمال ، والكشف عن المعايير التى تحكم انجازها ، كل ذلك كان عملا جديرا بالاعجاب ، كما وفقت الكاتبة فى عرض افكارها فجاءت فصول الكتاب منطقية مرتبطة ، يسلم كل فصل منها الى مابعده فى سلاسة ووضوح .

لكننى بالتعمق فى دراسة محتويات هذا **الكتاب لا اجد مبررا لهذا العنوان البارز** الذى اتخذه وهو (سوسيولوجيا العمل المنزلى) فقد كان الكتاب فيما عدا الفصل الاول منه ، واجزاء يسيرة من الفصل الثالث **والسابع والثامن** ، سيكولوجى النزعة قلبا وقالبا . فهو يلقى الضوء كله على مسألة الرضا او عدم الرضا عن العمل المنزلى ويحلل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكلوجية بحتة وذلك بالكشف عن صورة الذات ، واحيانا يغرق فى تحليلها بمنظور علم النفس التحليلى فياتى ذكر (فرويد) فى عدة صفحات من الكتاب . اما تحديد الباحثة للطبقة على اساس تقليدى وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقيا مع اتجاهها التجديدى ، كما انه لم يكن واضح الدلالات فى ثنايا الكتاب . ولا يشفع لها فى ذلك ما بررت به موقفها ، من ان ذلك التحديد كان اكثر ملاءمة فى المقارنة بين نتائج بحثها ونتائج بحوث اخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة اننى ارى ان استبدال عنوان هذا الكتاب بـ (**سيكلوجية العمل المنزلى**) كان يصبح اكثر ايحاءا ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

ان كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلى ، لابد ان يتضمن موضوعات سوسيولوجية متخصصة من بينها : تصنيف الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التى يجرى فى اطارها العمل المنزلى فى ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة تكنولوجيا ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيث طبيعة العمل المنزلى فى كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل فى تاثيرها فى نماذج شخصيات اطفالها وسلوكهم فى التنشئة الاساسية لهم ، بل ان مركزها المحورى فى الاسرة يمكن ان يؤثر فى صحة افرادها ومرضهم على السواء . كما لابد ان يحتوى مثل هذا الكتاب على دراسة التفاعل الاجتماعى لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلى كعمل يجعلها تتفاعل مع زوجها وابنائها وجيرانها واقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والبائعين سواء من يذهبون اليها فى المنزل ، او من تذهب هى اليهم ، وتفاعلها مع الدولة والاسعار عن طريق وضعها لميزانية الاسرة ، وتحديدها لمواصفات السلع المتوقفة على مدى اقبالها او احجامها عن شراء سلع معينة . وكذلك فى اتخاذ القرارات اليومية المتعلقة بنماذج الاستهلاك والموضات ، والشئون العامة ، واهمية النظر الى مطالبها التكنولوجية وكل ذلك يدخل فى اطار علم الاجتماع الاسرى وعلم الاجتماع الاقتصادى .

كما ان كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلى لابد ان يشمل توضيحا للصلة بين

---

(٤) ربما كان السبب فى تلك النزعة السيكلوجية التى لونت الكتاب هو ان المؤلفة قد اخذت افكار هذا الكتاب وموضوعاته من رسالتها للدكتوراه التي قدمتها سنة ١٩٧٤ ، وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان يشير الى منظور سيكلوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished PH.D thesis. University of London, 1974.

العمل المنزلي ، وبين اختيار الشريكة في الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لأسباب من بينها انها تجيد الطهي ، او انها قدمت اليه أكلة مفضلة بطريقة مشوقة ، او لانها ممتازة في العمل المنزلي أو « شغل البيت » كما تشيع الاشارة اليه في لغتنا الدارجة (٥) وكم من رجل اعرض من الزواج **بامرأة جاهرته بانها لا تحب العمل المنزلي** ولا تجيده . كما ان مفهوم العمل المنزلي نفسه لابد وان يدرس في اطره الاقتصادية المختلفة ، فهو في المجتمع الزراعي الريفي غيره في المجتمع الصناعي الحضري ، غيره في مجتمع الرعي (٦) وهكذا .

---

(٥) انظر في ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثة مصرية عن الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وقارنت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم؛ اما المهارة في اداء اعمال المنزل (الشطارة في شغل البيت) فقد اتى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عند اختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الآباء الحضريين والريفيين على السواء ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هذا الترتيب بلغ حد التطابق .

وقد كانت المهارة في اعمال المنزل ، امرا هاما وجوهريا في اختيار زوجة المستقبل في المجموعات الثلاث المكونة لعينة الابناء ، وهي المجموعة الحضرية ، والمجموعة الريفو ـ حضرية ومجموعة القرناء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الابناء ، لم يقرر ابدا في اجابته بانه لا يرغب في توافر هذه الصفة في زوجة المستقبل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي، دار النجاح بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠٢ .

(٦) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيه تقول الباحثة :

« رأينا ان غالبية افراد عينة الابناء في مجموعاتها الثلاث يرغبون بلا استثناء في ان تكون زوجة المستقبل ربة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هذا مفهوم نسبي ، لذلك رأينا ان نتعرف على اهم مقاصده الشائعة في عرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت اهم الاجابات الشائعة ما يلي :

(١) تهتم بشئون المنزل .

(٢) تجيد الطبخ .

(٣) مدبرة .

(٤) توازن بين عملها ومسئولياتها المنزلية .

(٥) توائم بين واجبها كزوجة وام .

(٦) تجيد العجن والخبز والحلب ، وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني اكثر تواترا في اجابات مجموعة القرناء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان اكثر شيوعا في اجابات الطلبة الحضريين ، تليهم فئة الطلبة الريفو ـ حضريين ، ولعل ذلك يتفق مع تحبيذ هاتين المجموعتين الظاهر لاشتغال المرأة خارج المنزل واعتبار ذلك قضية مسلم بها .

اما السبب السادس والاخير فاقتصر على فئة القرناء الريفيين ولعلنا نلاحظ ان مفهوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب دراية بامور كثيرة ومتشابكة . ولا غرابة في ذلك فالمهارة (او شطارة البنت) كما يقول الريفيون ، من اولى الصفات التي ترفع قيمة الخطيبة وتتحدث عنها النساء في القرية اذ يقلن « ان بنت فلان ، نار وشرار » ، وقلبها حامي « اى انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا للاعمال المنزلية في الثقافة الريفية والثقافة الحضرية في :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين في الاسرة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

وقد اهتمت المؤلفة كثيرا بالجزاء الذاتي السيكولوجي الذي تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وتمسكها بالمعايير التي حددتها ، والروتين الذي وضعته لنفسها . ولكنها نسيت او تناست ابعادا اجتماعية غاية في الاهمية، وتشمل الجزاءات الاجتماعية التي تحصل عليه من خلال تعليقات زوجها ، وابنائها ، وجيرانها ، أو صديقاتها ، أو من مقارنة عملها بالاعمال المنزلية التي تصورها وتبرزها وسائل الاعلام المختلفة من اذاعة وصحافة وتليفزيون وسينما . ان ربة البيت حين تعمل فانها لا تعمل في فراغ وانما تعمل وهي تضع في ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها واولادها وانتهاء بمعارفها ، في مدى اقبالها على العمل المنزلي وتقبلها له ، او اعراضها ونفورها منه . فالزوجة المحبة لزوجها ، والتي تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر في زوجها اثناء عملها المنزلي ، وتضع نصب عينيها ان تدخل السرور على قلبه حين يعود وان تنجز عملها على وجه يرضاه وترتضيه هي لاسعاده ، كما أن ثناءه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها اكثر رضا واقبالا على عملها المنزلي ، ويصدق ذلك ايضا على ابنائها واصدقائها وجيرانها . اما من لا تتمتع بعلاقات جيدة مع زوجها ، او لا تتمتع بتقدير زوجها او ابنائها لعملها فسوف لا تستشعر بدوافع الابداع في عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل اصدقائها واقاربها .

وفي النهاية كان لابد وان يتضمن كتاب عن سوسيولوجيا العمل المنزلي تحليلا وافيا لديناميات العمل المنزلي ، ودراسة لمدى مشاركة آخرين غير الزوج والابناء لربة البيت في العمل المنزلي وانماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التي تحدث بين ربة البيت وجيرانها او صديقاتها ، كأن يتبادلن المشاركة في اعمال منزلية معينة كطهي اكلات معروفة وشائعة في اوقات معينة كالاعياد مثلا ، او كاعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، او مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما ان هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد في العمل المنزلي قد يمتد دورهم احيانا ليشمل رعاية الاطفال ايضا ، او اداء العمل المنزلي برمته وفي ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت في اسرتها وفي عملها الخارجي ان كانت تعمل .

* * *

(٧) يشيع في القرية المصرية ، ان تتبادل ربات البيوت الريفيات ، المساعدة في الاعمال المنزلية لاعداد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من طحن وعجن وخبز ، وان يتبادلن المساعدة في الاعمال المنزلية في الاعياد والمواسم وبخاصة في العيد الصغير اثناء قيامهن بعمل الكعك ويأخذ ذلك شكل تجمعات متفاعلة تتشابك فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

— Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.

— Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.

— Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.

— Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.

— Mcintosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.

* * *